رشاد سلام

كهنة في كل العصور

أباطيل... تمشي على الأرض





رشاد سلام

كهنة في كل العصور

أباطيل... تمشي على الأرض





رشاد سلام

كهنة في كل العصور

أباطيل... تمشي على الأرض



Arab Diffustion Company

كهنة في كل العصور

أباطيل... تمشي على الأرض

رشاد سلام



ص.ب: 113/5752
E-mail: arabdiffusion@hotmail.com
www.alintishar.com

بيروت - لبنان
هاتف: 9611-659148 فاكس: 9611-659150

ISBN 978-614-404-048-5
الطبعة الأولى 2010

الفهرس

مقدمة

تنبثق فكرة الكهانة في رأس الكاهن على خلفية رؤيتة للمجتمع الذي يعيش فيه، وعلى رغبة منه في تطويع هذا المجتمع لا رادته لتحقيق أطماع تتطلع اليها نفسه.

ولأن الكاهن (كاهن!)، فهو على دراية بنقاط الضعف في أفراد مجتمعه، وهو قبل أن يطرح فكرته يكون قد قلّب نقاط الضعف تلك، وبحث عن أبواب اختراقها، وهيأ لها من الوسائل عوامل الامساك وسبل الاستغلال، فإن كان هدف الكاهن إنسانًا نقطة الضعف فيه الحاجة، فباب دخولها هو الحثّ على تهيئة صاحبها للتمرّد، وإن كانت هي قلّة الحيلة أو انعدام الوسيلة، ففي تكاتف الضعفاء وتماسكهم ما يخلق الحيلة، ويهيّئ الوسيلة، وإن كانت نقطة

الضعف هي الرغبة في التّسيد واستعباد الآخر، ففي «الفكرة» ما يدعو إلى تجييش الجيوش والإغارة «صُبحاً»، لتكون العودة بالأسلاب والسّبايا في ساعة الزوال والشمس على الرؤوس.

يبدأ الكاهن طرح فكرته من خلال تجمّع صغير ممن يعيشون على هامش الحياة في مجتمعه، وهو على علم بهم، فكم طاف بذهنه طائفهم بما عليه حالهم وهم يتلمسون الوسيلة للحصول على القوت فلا يجدونه، أو الملاذ الآمن فلا يبصرونه، فيتساقط على رؤوسهم، يرقب فيهم - حين الإياب من رحلة القهر اليومية - دلالة انحناءة الرؤوس وفراغ الرؤية، فيبيت يفكر في الوسيلة التي تمكنه من الرأس المنحني ليحمله عن صاحبه، كذلك فللناظر إلى فراغ وسائل ملء هذا الفراغ بترويض صاحبه على الانسحاب من الواقع إلى «الحُلم» ليرى فيه مشتهاه.

ولأن الكاهن على دراية بأن مثل هؤلاء لا يأتلفون إلا لمن على شاكلتهم، إذ لا يأتلف التابع مع من

يتبعه، ولا السائل مع من يسأله إلّا إذا توحدت الرّؤى، فإن عليه أن يكون على الشاكلة مع هؤلاء ليأنسوا إليه.

فإن أتوا إليه بدأ في «بثّ» الفكرة، لا عن طريق الطرح القولي، وإنما بطريق الايعاز!، فهو إذ يأكل وبين يديه أيّ من هؤلاء، يدعوه إلى طعامه، وفي المقابل، إن دعاه داع منهم إلى الطعام استجاب، فهو لا يأنف من مجالستهم أو الحديث معهم، إذ هو من خلال التحادث يتقصّى دواخلهم، بل ويهيىء تلك الدواخل لانبات بذور فكرته.

والكاهن لا يتعجل الوقت، فهو يعرف أن مهمة «التّجميع» شاقة، فإن أفلح في اجتذاب جماعته أوسع لأفرادها، وقربهم إليه، وأوحى فيهم بأنهم حواريّوه الذين يحملون عنه مهمة الابلاغ، ثم يطلقهم يأتون له بقرنائهم من التعساء، فيوسع لهم، ويبش في وجوهم.

ولأن «الضائع» في حياته يعيش الحياة كمداً، فهو إما مسترقّ بالعبودية يتحكم في رقبته سيّده، وإما مسترقّ (بالحاجة) يتحكم في خُطاه من لديه حاجته، فلن ترى ضائعاً في حياته يُحبّ حياته، بل هي الوجه الكئيب الذي يأنف من النظر إليه، ولأنه مرغم على التطلع، بوجوده حيّاً، فإنه يتربص لنفسه العتق مما يحياه بالموت!.

فإن غرست في وجدان المرء من هؤلاء أن الموت الذي يخافه الناس جميعاً هو الطريق إلى «جنة» خلد بها من اللذائذ ما فوق التصور، بأن تقول له «إن كنت الآن جائعاً لا تجد لقيمات عجافاً»!، فهناك لحم طير وعسل وخمر ورمّان وتين، وإن كان قد قطع نياط رغبتك في الأنثى، أنّ كل أنثى رأيتها كانت تتطلع إلى حالك ثم تزدريك!، فهناك قاصرات الطّرف من الكواعب يهيئن لك الأرائك وهن حافلات في لباس من الحرير والسّندس، في قصور تتدفق من تحتها الأنهار!، لو قلت لبائس ذلك ثم سألته، أيهما تختار،

حياة ضنكك التي تسقيك العلقم، أم موتة (ناعمة) تعْبُر بها إلى فردوس النعم الذي هيأت لتصورك بعضاً مما فيه.. لأجابك على الفور، أختار الموت!.

فإن اشترطت عليه أن تكون طاعته لك هي الثمن للنعيم الذي عرضت قائمته عليه لأطرق متردداً، فارتباط المجهول بالمعلوم داع للشك!، لكنك لو أفلحت في اقناعه بأن لديك ما يصل المجهول بالمعلوم لإمساكك بقناة الوصل بينهما، وأوضحت له طريقة هذا الإمساك، لخرّ ساجداً لصاحب النعيم في شخصك!.

فإن أفلح الكاهن في عملية الإيحاء، أفلح في عملية (التنويم) فأقام الأساس لمعمل «التفريخ» لفكرته، وبالقدر الذي تأخذه (الأجنّة) قبل تفريخها من رعاية الكاهن لها تتجذّر سيطرته، ويعلو شأنه.

والكاهن الذي على تلك الشاكلة مثله مثل النّبت «الشيطاني» تنشق عنه الارض فيخرج حيث لاراع

ولا مهتم، فهو صانع نفسه بنفسه، عكس كهنة آخرين جرت عملية «تصنيعهم» في مصانع الحُكّام وبيد السلطة ليكونوا وسيلتها في تخضيع الناس بالمعروف وقهرهم بالقول الحسن. فهؤلاء «توابع» كاهن أكبر، يرتزقون من انتسابهم اليه من ناحية وينعمون به على فراش السلطة من ناحية.. يطلقهم الحاكم على الرعّية ويبيت قرير العين في غير حاجة إلى محتسب ولا جند، اذ يكفي أن تكون موعظة النوم قد تناولت «الحُكم الشرعي» بأن طاعة الحاكم من طاعة الله، وأن في الخروج عليه خروجاً على الجماعة عقابه قطع الأيدي والأرجل من خلاف!.

وكم كان التاريخ سخياً، فأفاض علينا من هؤلاء الفيض الوفير!... تأمّل حولك ترَ على كل ناحية «تابعاً»، ولكل «هوائيّة» تابع، وكلهم بلباس «النّسك» يحملقون فيك بالأحداق المُنوَّمة، ويصرخون فيمن حولك بحناجر «مدرّبة» على بث الفزع طيّ أجنحة الألفاظ المنغمة!.

وليت الأمر قد اقتصر على ذلك، فبعد أن أدرك «السلاطين» الأثر الذي تحدثه الكهانة في النفوس من تمييع وتطويع، باتت الكهانة هي البديل عن «العسكر» في الغزو والاحتلال والإذلال، فهذا كاهن «نجْع» أفلح في تدمير أنوثة الأنثى.. فكراً ومظهراً ولباساً، وذاك ممن زاوج بين «الوراء» وعصر الفضاء، فبات يبث فكر «التخّلف» في لباس عصريّ يخالط فيه بين «التّحنيك» والتكنيك!، وآخر - غيرهما - يبث اليك خلاصة كهانته على أسطوانة (دى. سى) تراها طيّ جريدة الصباح التي تشتريها هدية لوجه الله!.

فإن سألت عن الغرض من كل ذلك، قلت لك، بأن الغرض هو أنت، فما يُنفق على هؤلاء «التّوابع» بل وعلى مدارس تعليمهم، ومؤسسات تشغيلهم.. مضافاً إلى ذلك ما يُنفق على الرؤوس المدبّرة، المدمّرة!، وما يرصد لـ علام وللأقلام من أكياس دنانير [الزّفت الأسْود] لاقتناء القصور في المشاتي، واستباء

«البدور» في المصايف.. غايته هو أنت... لا لتنعم به، وإنما لتظل تشقى، شريطة أن ترضى بشقائك.. وأن تكون مستمتعًا به!.

رشاد سلام

28/ فبراير - شباط / 2009

الفصل الأول

تهيئة المسرح...

الموت هو الأم الحقيقية للأديان جميعاً

ليسنر

ما رأيك في الموت؟.. سؤال صادم دون شك، وهو صادم لأنه انطلق مباشرة إلى «الخبيئة» التي بها (قمقم) الأفزاع في رأسك، فيما يعرف بالعقل الباطن فنزع سُدّة «القنّينة» المطمور فيها آلامك.. فاجأك مارد الفزع «يهبش وعيك» فكانت الصدمة.

فحين باغتك السؤال، لم تكن ألفاظه هي التي

واجهتك، وإنما كان الموت محمولاً في (كفنه) اللّفظي هو الذي أطل عليك فأزاح عنك لباس التحضّر الذي هيّأته لك الطبيعة على مدار ألوف السنين، لتصبح عارياً إلّا من جسدك «البدائي» الذي ترى عليه أي كائن حيّ، حين يواجه موته، إذ المواجهة تلك هي.. هي، سواء لديك أو لدى الفأر في مواجهة عين الأفعى!.

فإن أمسكت بيدك «فكرة الموت» وقلّبتها على ساحة ما عليه وعي الإنسان الآن، في عصر التّداوي بالعقاقير والإحياء بالأجهزة البديلة، ورأيتها - أنّي كانت وعلى أيّ وجه تراءت - هي الطامة الكبرى في حياة البشرية.. فسل نفسك عما كانت عليه تلك الفكرة حين كان الإنسان بدائياً على مشارف وعيه في بداية التاريخ الإنساني!.

لقد أجرى الفكر الإنساني - ولا يزال - مقابلة بين الحياة والموت سعياً بتلك المقابلة إلى تمعين الحياة ومعرفة الجدوى من ورائها، فكانت النتيجة أن ارتد

الفكر خاسراً، فمعادلة الحياة بالموت هي معادلة طاغية الظلم، إذ ما معنى أن توهب «تلك الحياة» على قصرها، وعلى ما بها من كدّ وألم - لتكون مقابلاً لفناء أبديّ!.. ثم دعها تطلّ عليك وبين يديها «فخاخ قنصك» من جنس وطعام ومتع شتّى، أفهل تكون مقابلاً - عادلاً - للحظة وعْي في حالة الاحتضار؟.

وإذا كان عقلك حين مررت - بمجرد القراءة على نتاج تلك المقابلة قد أعاد إجراءها ليستوثق من النتيجة بنفسه، فخلص إلى انعدام الجدوى من حياة نهايتها الموت!، أفلا يكون ذلك داعياً إلى تأكيد الاعتقاد بأن الموت هو الغاية من الوجود، وأن الحياة هي الوسيلة لتحقيق تلك الغاية؟.

فإن سأل سائل عن الدّاعي لتلك المقدمة «الكئيبة» قلنا له، وهل نَبْش القبور غير كئيب؟، أتسأل من يقوم بعملية دفن ميّت عن السبب في امتعاضه؟!.. غاية ما في الأمر أن النّهج في التقديم موصول بما

يقدّم له، ونحن نسعى إلى استخلاص «يقين» بأن الموت هو هاجس «الفزع الأكبر» الذي أحاط بالإنسان ولازمه، فإن كان إنسان الحاضر قد استطاع الدفع بهذا الهاجس إلى مستقر المخبوء في عقله الباطن لينساه، فإنسان البداية واجه الهاجس نفسه ولم يكن بعد قد تشكّل لديه ما يفصل بين الوعي واللاّوعْي، فانساب بالهاجس وعيه على لا وعيه مشكّلاً تصوّراً «كابوسيّاً» لعملية التحول غير المفهومة للجسد الذي مات صاحبه، بما أضاف إلى الرعب من الموت رُعباً من المجهول بعده، فإذا ما اعتراك ظن بأن ما قرأته سلفاً فيما قلنا بأنه تهيئة للكشف عن «الوسط» الذي ظهر [الكاهن] من خلاله، قد اتخذ طريقاً يحيطه الغموض بما انعطف به إلى فكرة الموت، ظناً بانعزال تلك الفكرة عن عملية المخاض التي أثمرت ولادة الكاهن، إن كان ذلك ظنّك، فالحاجة ماسّة إلى مطالبتك بالتريّث!، فساحة الطّرح التي انبثقت منها «الكهانة» ليست طوْعاً

هيّناً للبحث عن الجذور من خلالها، إذ طَوَت تلك الساحة ألوف السنين تحت ركام تاريخ غير مكتوب، وبين بشر لم تكن الطبيعة قد هيأتهم للحفاظ على ما كان يتردّد في رؤوسهم من أفكار، بل لعلّ في ذلك ما يدعو إلى البدء بإمساك إنسان ذلك الزمن وتقليبه والتعرف على هواجسه.

فالإنسان - منذ تفتحت عين وَعيْه - وهو بين عالمين يتناوبان حياته، عالم «الصّحو» نهاراً، وعالم «النوم» ليلاً [(1)]، فإذا كان عالم الصّحْو ممثلاً بواقع الحياة اليومية بما فيها من ضروب الكفاح في سبيل البقاء، فإن عالم النوم هو انعكاسة هذا الواقع على مرآة الرّغبات المكبوتة في النفس الحالمة، كذلك فهو (صَدَى) انشطار الوعي عن اللاوعي في المتاهة «الطلسميّة» التي لم يستطع تفكير الإنسان - آنذاك - أن يفصل بين معطياتها المطلة من «الحُلم» وبين معطيات الواقع المعيش، فخالط بين الشاخص حين الصّحْو، وبين الجاثم حين

النوم، مُشَكّلاً من هذا التخالط واقعاً مزدوجاً تداخلت فيه الحقائق مع الأحلام بما أنتج واقعاً على وجهين، أحدهما حقيقي، والآخر نسج خيال.

لذلك فإن قيل بأن حُلْم الإنسان «البدائي» كان هو الصانع لصورة «الميّت الشّبح» التي تعايش معها إنسان ذلك العصر على اعتبار أنها حقيقة، كان هذا القول على جانب كبير من الصحّة، فبعد أن كان الإنسان «القديم» يُوارى جثمان ميّته في الثّرى، ويقفل عائداً تدور الأفكار في رأسه عن مصير الميت بعد الدفن، وحين كان يرهقه التفكير في ذلك وينام، كان يرى الميّت في الحلم وقد نفض عنه قبره واستقام على هيئة غريبة شكّلتها المتاهة الطلسميّة في عقله على صورة (شبح!) له من القدرة أن يتضخّم، وأن يتشكّل على هيئات مفزعة، بل وأن يخترق الحُجب جبالاً وبحاراً قاصداً الكهف الذي كان يعيش فيه طلباً للمأكل والمشرب وربما كان يقصّ الحُلم على من معه متناسياً أنه كان حلماً، فيتردّد

الحلم (حَكْياً) بين أفراد الجماعة، ثم يتردد انتقالاً من جيل إلى جيل بقصّه للصغار تحذيراً لهم، فتخلّى الحلم بين نقله وتنقله عن معالم كونه حلماً، واستقر في الأذهان على أنه حقيقة (1) .

فإن قيل بأن الإنسان البدائي لم يكتب تاريخه، ولم يترك ما يفصح عن الأفكار التي كانت تراوده، بما يقطع الطريق على من يتحدث عن فكر هذا الانسان!.. قلنا بأن ما خلّفه هذا الإنسان وراءه - مطموراً في الطبيعة، مكشوفاً عنه بالتنقيب - كان سجلاً حافلاً بأفكاره وعاداته.

فعند التنقيب في مقابر ما قبل التاريخ المكتوب، لاحظ العلماء ما أثار دهشتهم، إذ عُثر في تلك المقابر على رفات الموتى - رجالاً ونساء - وقد كسر عظم ساعة اليد!، وفي مقابر أخرى وجدت الجثث وقد تم «تكسير» عظامها بالكامل.

يقول الدكتور سليم حسن:

وقد حار العلماء شرقاً وغرباً في معرفه السبب الذي دعا الإنسان القديم لتكسير عظام موتاه قبل دفنهم، فقد عُثر في «دشاشة» التي يرجع عهدها إلى ما قبل عصر الأسرات الحديث في مصر على مقابر سليمة لم تمسَسْها يد إنسان، ووجدت فيها الأجسام وقد انفصلت عظامها بعضها عن بعض، ثم لفّت في الكتان الذي وجد أنه لم يمس بعد، مما يدل على أن فصل عظام الميت كان شائعاً في عصر ما قبل الأسْرات، وقد أرجع البعض ذلك إلى أن يكون لحم هؤلاء قد أكل قبل الدفن، غير أن ذلك مستبعد [(1)] .

والواقع أن حيرة العلماء حول تلك الظاهرة لم يكن لها محل، فلم يكن تكسير عظام الميت نتاجاً لأن

لحمه قد أَكل، كذلك فإنسان هذا العصر لم يكن قد عرف «إلهاً» يقيم له الطقوس لتكون تلك العادة من طقوس العبادة عنده، الأرجح ـ كما نعتقد ـ أن فكرة «الميت الشّبح» كانت شائعة، فامتلأت بها القلوب رعباً، بما دعا إلى التفكير في وسيلة لمقاومة تلك الأشباح، ودفع أذاها.

وربما مرت مئات السنين قبل أن يصل الإنسان إلى فكرة تكسير عظام الميت قبل دفنه للحيلولة بينه وبين اتّخاذ صورته الشبحيّة بعد الدفن، إذ يحُول تكسير العظام بين الميت وبين النهوض من قبره، بل بينه وبين تشكيل الهيئة الشبحيّة التي يظهر بها.

ومن جانب آخر، كان هذا الإنسان مشتتاً لا يرتبط بجماعة، غير أنه حين مداهمة الخطر له، وربما حين كان يصرخ رعباً في مواجهة حيوان يهمّ بالفتك به، وتلتقط آذان الآخرين من حوله صرخته فيتدافعون لملاقاة الحيوان ودفعه، تولّد لديه الإحساس بفائدة الانخراط في جماعة، غير أنها لم

يكن يوحّدها سوى مواجهة الأخطار، إذ ظل أفرادها كل منهم وشأنه، يقتنص لنفسه، ويجمع الثّمار لنفسه، ويطارد الأنثى ليظفر بها وحده، بما أدّى بالتنافس إلى الاقتتال الذي كان لا يحسمه إلا أقوى أفراد الجماعة وأشدّهم بطشاً.

ولأن القوّة كانت هو الوسيلة للسيطرة، فقد أسندت زعامة الجماعة إلى أقوى الأفراد فيها، وكان لسلطان القوة أثره في خلق رابطة محكومة بين أفراد الجماعة وبين الزعيم، فمقابل حاجة الأفراد إلى الزعيم في فضّ التقاتل بينهم، وفي قيادته للجماعة حين مواجهة الخطر، كانت حاجة الزعيم إلى الجماعة فيما يتعلق بتأمين حياته من مأكل ومشرب وحماية لمقره الذي اختارته له الجماعة على رأس مكان تجمّعها.

وقد باعد انعزال مقر الزعيم عن مكان تجمّع الجماعة بينه وبين الاختلاط المباشر معهم، بما دعا (لوسيط!) يصل بين الطرفين، فهو الذي كان يحمل

الطعام والشراب، وربما الأنثى للزعيم في مستقره، وهو الذي كان يعود إلى الجماعة بتعاليم الزعيم ووصاياه.

غير أن قوّة الزعيم كانت تتناقص على مدار سنين عمره، ليصبح في كهولته خائراً ضعيفاً، فكان عليه إمّا أن تنبذه الجماعة لضعفه، وإما أن يتّخذ بديلاً عن قوته التي رحلت ليكون سنداً له في زعامته، فكان البديل هو الهيئة التي خلّفتها الشيخوخة على مظهره بما تعطيه من وقار وحكمة، فظهر عصر «الكهل» الزعيم على أنقاض عصر «الزعيم الباطش».

ولقد حدث - في يوم من أيام ذلك الزمن - أن توجّه «الوسيط» إلى مقر إقامة الكهل فوجده ميّتاً، وربّما حار الوسيط آنذاك فيما يفعله، لكن المؤكد أنه انتهى إلى قرار بأن يأكل طعام الكهل، وأن يشرب شرابه، فلما عاد إلى الجماعة أخبرها بأن الكهل قد أكل ما أُرسل إليه من طعام، فإن سألَتْه الجماعة عمّا

أوصى به، تكفل خياله بنسج وصيّة نسبها إلى الكهل، ونسب إلى نفسه مُهمّة تبليغها.

فلما تحلل الكهل بات على الوسيط أن يواريه، لكنه لم يتحمل فكرة خلوّ المكان منه، إذ تقطع عليه تلك الفكرة - إن استشعرتها الجماعة - مهمّة وساطته، فكان أن شكّل من بعض الأحجار شبيهاً لجسد الكهل، ونصب الشبيه على ربْوة تطل على الجماعة مُوحياً بأن الكهل يتطلّع إلى أفراد جماعته! (1) .

فإن طالعْت دراسة عن مرحلة عبادة «الفتش» (2) أظهرت لك تلك الدراسة أن الفتش - الصنم - عبارة عن نموذج لشيء، لكنه ليس الشيء المعبّر عنه بالنموذج، بما يجعل للفتش - الصنم - ظاهراً ومضموناً، فالظاهر هو صورة الصّنم، والمضمون هو ما يُعبّر الصنم عنه، فإن قيل بوجود وثن للكهل - صنم له - فإن هيئة هذا الوثن - مُربّعاً كان أو مستطيلاً - هي المعبّرة عن الكهل، بينما «مضمون

الكهل» موجود في بنْية الجماعة الاجتماعية (3) .

غير أنه بمرور الزمن أزيح عن «الوثن» ما يعبّر عنه بظاهرة وحلّ المضمون ليأخذ مكانه فأصبح وثن الكهل في وعي الجماعة هو الكهل بذاته، فتعاظم دور «الوسيط» للاعتقاد بأنه هو الوحيد الذي بإمكانه فهم لغة الكهل - الصنم -، وبأنه الوسيلة الوحيدة للتواصل معه.

وكان على الوسيط أن يكون بارعاً، فهو الذي سيحمل القرابين للوثن، وهو الذي سيأكلها، فتخَيّر من القرابين ما تشتهيه نفسه، كذلك فلأنه هو الذي يسمع كلام «الوثن» ويقوم بنقله، فعليه صياغة الوصايا التي سينقلها بما يحقق له المصلحة، ويضمن له الاستمرار في مهمّته!.

هكذا، وعلى امتداد ساحة الأرض - في ذلك الزمن السحيق - نبتت بذور الحسك المسموم فيما يعرف الآن بالكهانة!.

فإن ظننت أن ذلك قد مضى مع الزمن الذي كان فيه فأصبح مجرّد «حكاية» تقُال قد تكون صحيحة وقد لا تكون، فلن ندعك ترهق نفسك في التّنقيب عن الجذور بين آثار إنسان ذلك الزّمان، فبين يديك يُوجد الدليل ساطعاً قاطعاً إذ يكفيك تأمّل (صناديق النّذور) بالمساجد وهي ملحقة بالأضرحة، وقرين المال الذي يودع بتلك الصناديق تودع رسائل لصاحب الضّريح ليتوسط عند (الله) في قضاء الحاجات وفكّ الكروب، وهو نفسه ما كان يفعله المكلوم في بداية التاريخ الإنساني. من تغيّر هو «الوسيط» فبدلاً من كونه رسول الجماعة إلى الكهل الحاكم - الصّنم - أصبح هو (الوليّ) صاحب الضّريح. وأصبح يوم مولده - بما ترسّخ في العقل الجمعيّ من خرافات الماضي - ساحة تغصّ بأصحاب الحاجات، وكلّهم! على يقين - كاذب - بأن الخرافة حقيقة!.

(1) انظر - الكسندر بوربلي، أسرار النوم ، ترجمة أحمد عبد العزيز، عالم المعرفة ع 163 ص 11.

(1) حتى إنسان الحاضر لم يسلم من تسلط تلك الفكرة عليه، إذ لا

يزال البعض على اعتقاد بوجود قرين - عفريت! - للميت يلازم جثمانه نهاراً وينفصل عنه ليلاً هائماً على وجهه.. وتتعدد قصص الأشباح في كل مكان، فيفسرها البعض بأنها «روح الميت» بينما يرجعها البعض الآخر إلى «عالم الجن»، وما هي إلا موروث الإنسان من التصور البدائي «الكابوسي» لفكرة الميت الشبح.

(1) انظر، سليم حسن، موسوعة مصر القديمة ج/1 ص 77.

(1) انظر: هـ. ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية ، ترجمة عبد العزيز توفيق، الألف كتاب الثاني. ع 156 ج 1 الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 116.

(2) الفتش هو الصنم، راجع: جورجي غاتشف، الوعي والفن، عالم المعرفة ع 146 ص 19.

(3) المرجع السابق، ص 22.

الفصل الثاني

سيكولوجيّة الكاهن...

ألم يكن بمقدور الإله الّذي أرسلك إليّ بهذه الرّسالة، أن يخاطبني بها كما خاطبك!.

(مانو.. لكاهن طيبة الأكبر)

مدخل

الكاهن كذّاب! فلم يثبت - بطريق القطع - أن كاهناً قد صدق!، العكس هو الصّحيح، فمعالم كذب الكهنة شاخصة للعيان في كل مكان تحدّثك - ليل نهار - بأنّ الكهنة كاذبون.

فإن أردت التأكّد بنفسك، أن تسمع بأذنيك، وأن ترى بعينيك، فما عليك إلّا القيام برحلة إلى أحد مزارات الآثار في البلد الذي أنت فيه، فإن فعلت، فلا تجعل شاغلك هو الأثر - هرَماً كان أو تمثالاً أو مسلّة - بل اجعل شاغلك هو الإجابة عن سؤال - دعه يلحّ عليك! - ما الغرض الّذي من أجله أقيم هذا «النّصب!»، فإن كنت في مصر، فتساءل عن الّذي دعا عشرين ألفًا من المصريّين القدامى لعناء بلغ حدّ الموت، ولمدّة عشرين عاماً في سبيل بناء مقبرة!، فإن كان الشّاخص على ساحة تساؤلك هو هرم الجيزة الأكبر، فتأمّل حوله - من الجنوب أو الشرق - لترى بقايا (المعبد الجنائزيّ) وما زالت تتبعثر في دروبه بقايا عظام أجدادك القدامى!، ثم اسأل - لا تكفّ! - كم قرباناً - من البشر - أريق دمه في هذا المعبد، وكم من الضّحايا - رجالاً وإناثاً - سيقوا على أنغام ترتيل (كهنة الدّفن!) لدخول المقبرة والالتفاف حول جثمان الميّت ليطاف عليهم

بأقداح «الشّراب المقّدس!» وقد مُزج فيه المخدّر بالسمّ، ليصير الموت هيّناً قبل إغلاق المقبرة عليهم إلى الأبد (1) .

فإن ساءك حال الإنسان «الضحيّة» حين طرحه على خشبة الذّبح في المعبد، فلملم حاجتك وتهيّأ لرحلة يصحبك فيها التاريخ إلى «الهند» لتطالع ما بقى على أرضها من آثار ديانة (الفيدا) القديمة، تلك الدّيانة الطّوطميّة التي تعدّدت الآلهة فيها من صخور وحيوان وأشجار وأفاعٍ، حيث كان المعتقد أنّ روح الآله تسكن تلك الأشياء (2) . وكانت مذابح القرابين تنصب لكلّ قربان يراد تقديمه. فإن وطئت قدماك ما تبقّى من آثار المعبد القديم على ربوة جبل «النّار المقدّسة» فأغمض عينيك، ودع لخيالك أن يأخذك لتشاهد طقوس قربان «بشريّ» يضحّى به.

فقد كان من عقيدة «الفيدا» أنّ روح الميّت بعد الموت تلاقى، إمّا عذاباً أو نعيماً، فإمّا أن يلقيها الإله

(فارونا) في هوّة سحيقة مظلمة!، أو في (جهنّم!) ذات السعير، وإمّا أن يتلقّاها الإله (ياما) فيرفعها إلى الجنّة حيث النّعيم من كل صنوف «اللّذائذ» الأرضيّة إلى أبد الآبدين ([3]) .

وبما أنّ الإلهين «فارونا» صاحب الجحيم، و(ياما) صاحب الجنّة يقيمان في السّماء، فإنّ الحاجة ماسّة إلى ما يرفع القربان المقدّم إلى سمائهما!، وكانت «النّار المقدّسة» هي صاحبة هذه المهمّة.

وكان قربان (الفيدا) - في بداية الأمر حصاناً يتمّ إحراقه حيّاً بعد أن يصبّ على جسده الزّبد المسال بالنّار، فلمّا صار الإنسان هو القربان، كان يؤتى به (موثوقاً) إلى كومة الأخشاب التي أعدّت لإحراقه فيطرح بمنتصفها، ثم تبدأ طقوس القربان في الأداء.. ترانيم (الكهنة) متداخلة في دقّات الطّبول، فإذا ما رفع كبير (الكهنة) يده أُشعلت النار في

الكومة، لتتسلّل بطيئاً.. بطيئاً إلى الضحيّة، الذي يكون الرّعب قد أماته قبل أن تصل النيران إليه، فتكون مهمّة النيران تفحيم الجسد!.

فإن سألت عمّن بدأ بهذا الطّقس الفاحش، ووضع له تفاصيل الأداء وغلّفه بالقداسة، كانت الإجابة بأنهم (الكهنة).

يقول، ول ديورانت صاحب موسوعة قصّة الحضارة:

كان هؤلاء الكهنة يتقاضون أجورًا عالية على مساعدة المتعبّد في أداء طقوس القربان، التي أخذت تزداد مع مرّ الزّمن تعقيدًا، فإذا لم يكن في وسع المتعبّد أن يدفع أجره، رفض أن يتلو له الصّيغ

اللّازمة، فأجره لابدّ أن يسبق ما يُدفع (لله) من أجر، ولقد وضع رجال الدين قواعد تضبط مقدار ما يدفعه صاحب هذه العبادة، كم من الأبقار والجياد، وكم من الذّهب، وكان الذّهب بصفة خاصّة عميق التأثير في الكهنة والآلهة! ([1]) .

فإن ساءك «الشّرق» بما كان عليه من جهالة دفع الإنسان حياته ثمناً لها، فلا عليك، ويمّم وجهك شطر «الغرب» لتكون قد تعقّبت بغيتك في «عموم» كوكبك الأرضيّ!، وستحطّ بك الرحال في أمريكا الوسطى وتحديداً في جنوب «المكسيك» حيث كانت حضارة (المايا) على أرض ما يعرف الآن بـ «غواتيمالا»، فهناك وما زالت بقايا معابد «الشّمس» على الهضاب، وهناك تّم العثور على نصوص كتبها كهنة المايا على أعمدة حجريّة، يهمّنا منها ما يتعلّق بالعقيدة الدينّية والنّظام الكهنوتي.

فالفرد من «المايا» كان يتعبّد لكلّ ما تراءى له في الطبيعة قويّاً يكتنفه الغموض. وفي قلب كل مدينة حلّقت الأهرامات المدرّجة الشاهقة، وفوق قممها المسطّحة شيّدت الهياكل.

ولأن تاريخ «المايا» يقول بأن «آلهة المايا على الدّوام جَوْعى!» فقد كان ما يشغل النّاس اتّصالاً بتلك الآلهة هو إطعامهم بتقديم الدم لهم ([1]) .

يقول إيفار ليسنر الباحث التاريخيّ الأشهر:

ولمّا كان المايا يعتقدون أنّ بوسعهم إرضاء آلهة الشمس والأرض والمطر الّتي يتعبّدون لها بتقديم الدم لهم، لجأوا إلى القرابين البشريّة، وكانت الضّحايا تمدّ فوق كتلة خشبيّة خاصّة

بالقرابين فوق مذبح الهرم، ثم تنتزع قلوبها، ثم تطرح الجثث من فوق حافة الهرم فتهوى فوق درجاته إلى الأرض حيث تقطّعها الجماهير المنتظرة إرباً.. إرباً،، ويحمل كلّ منهم قطعة إلى داره حيث كان يقوم بطهيها والتهامها.

وقد عثر على حجر (ببيدراس) نقشت عليه تفاصيل تلك العمليّة، حيث كانت الضّحايا تضمّ محاربين وأطفالًا وشابّات، فكلّما كانت بدائر المحصول تبدو سيّئة، أو يتعرّض البلاط لقحط يطول مداه، هُرع بتقديم بعض العذارى اللواتي كن يقدّمن أيضًا لإرضاء الآبار والينابيع، فكان

«المايا» يقذفون بهنّ من شرفات الهيكل دون احتفال [1] .

أكاد أسمعك تقول، كفى!.. ليكن، لكن دعني - قبل الإغراق في الصّدمة - أسألك، أما أريقت تلك الدماء (شرقاً وغرباً) إيماناً بطقوس روّجها كهنة تلك الأزمنة، وألبسوها ثوب (المقدّس)، فكان مصير من يعارضها الموت؟، الآن.. تُرى، ألم تكن تلك كلّها خرافات (كهنة) أريقت على جوانبها الدّماء!، قرباناً لآلهة لم يكن لها في الواقع وجود؟!.

مختصر تحليلي

الكاهن إمّا أن يكون على علم بأنّه يكذب!، فيصَنّف نفسيّاً بأنّه إنسان «سيكوباتي» مريض بمعاداة النّاس وحبّ السيطرة عليهم، وإما أن يكون قد صدّق نفسه مؤمناً بضلالاته، فيطلق عليه في الطبّ النفسيّ «الفصاميّ».

والكاهن السيكوباتي - الّذي يعرف أنّه يكذب - مثله مثل أيّ مريض بالسيكوباتيّة، فهو حادّ الذّكاء، وواسع الحيلة، يتقصّى في النّاس نقاط ضعفهم فينفذ منها إلى أعماقهم، وهو «عُدوانيّ» يغلّف عدوانيّته بمظهر خادع من الطّيبة وصفاء السّريرة، ويسعى إلى الهدف الذي يريده بهدوء حذر وخطى متّزنة، محسوبة، فإن اقتنص فلا فكاك للفريسة من قبضته، مثله مثل الأفعى تتسلّل في هدوء (ناعم!) لتنقضّ، فإذا ما انقضّت كانت النّهاية.

ومثل هذا الكاهن «السيكوباتي» تراه في كلّ مكان حولك، إذ كلّ السيكوباتيّين، من الكهنة هم أذناب كاهن (فصاميّ) كان له الفضل في تخليق «الفكرة الكهانّية» الّتي يشارك الجميع في اللّعب عليها، بما حصر دور الكاهن «السيكوباتي» في التعامل مع تفاصيل «الفكرة» دون جوهرها، فألقى عليه قيد الانحصار في التفاصيل مهمّة اختلاق تلك التفاصيل وتبريرها لتساير المتغيّرات على ساحة الطّرح،

فأضيف إلى دوره في حماية الفكرة الكهنوتيّة، أن صار هو محرّكها بالانسلاخ بها من حيّز الماضي الذي (مات) إلى حيّز الحاضر الذي يحيا، فيما يعرف بالملاءمة!.

فإن تأمّلت حولك فرأيت مؤسّسات «دعم الفكر الكهانيّ» ضاربة الجذور في كلّ مكان فلا تشغل نفسك بالبحث عن دور تلك المؤسّسات في إثراء الفكر أو إفقاره، إذ لا شأن لتلك المؤسّسات بفكر، إلّا فيما تحتاجه لأزْمنة الفكرة الكهانّية وإعطائها صلاحيّات اختراقك على ساحة حاضرك!.

ولأن الدّولة في حاجة إلى الفكر «الكهنوتيّ» لتخضيع النّاس به، فقد غضّت الطّرف عمّا يدور بمعامل (تفريخ) هذا الفكر داخل تلك المؤسّسات، بل وأصبحت ـ الدّولة ـ هي القائمة على رعاية هذا التّفريخ، فانتشرت «الكهانة» الرسميّة المدفوع لها من خزينة الدّولة، والمحميّة بشرطتها! والمروّج لها بوسائل إعلامها.

وعلى غير وعي بالأثر الذي تحدثه جرثومة الفكرة المتسلّطة ([1]) دارت معامل التفّريخ بتلك المؤسّسات تطحن فكراً أنتجه الطّرح المتسلّط، بما نقل (عدواه) إلى «مهندسي!» التّفريخ وإلى «الأجنّة» فتحوّل كاهن الماضي «السيكوباتي» الذي كان يعرف أنّه يكذب، إلى كاهن «الحاضر» وقد أصبح فصاميّاً، يؤمن إيمان اليقين بصدق ما يدّعيه!.

فإن تطرّقنا إلى هذا الكاهن «الفصاميّ» الذي يعتقد بصدق فكرته الكهنوتية، لكنّا أمام البلاء بعينه، فهذا الكاهن مريض «ذهانياً» تحيط به ضلالات الفكرة وهلاوسها، وهو مصدّق لتلك الضّلالات والهلاوس، فإن كان ما وعاه عن الفكرة الكهنوتيّة أنّ ملكاً من السّماء يلازمه، ليُحصي عليه أفعاله، فهذا الملك شاخص - على الجوار - شخوص يقين، وإن كان ما وعاه عن الفكرة تلك، أنّ «إبليس» يقف على رأسه يوسوس له، فإبليسه بالفعل جاثم على رأسه يكاد أن يشخص له، وعبثاً تحاول إن أردت

إقناعاً - بفكر أو بمنطق - بأن تلك هي ضلالات، إذ المحصّلة أنّه إمّا أن يزدريك ويتجنّبك.. وإمّا أن يقتلك!.

فإن ساورك الشّك في ما قرأته، سألتك.. وبين يديك حصيلة التقصّي على أرض الماضي، فراعنة وبابليّين، وهنوداً، وعرباً، بل ومن كلّ الأجناس على الأرض:-

أفهل كان المصريّون القدماء على حقّ في عبادتهم - الّتي استمرت لما يزيد عن (ثلاثة آلاف سنة) لآمون، ورع، وحورس، وإيزيس، وغيرهم من عشرات (الآلهة) الّتي تعجّ بها كتب التاريخ!.

وهل كان البابليّون على حقّ وهم يتعبّدون (لعشتار) و (مردوخ)، وقد استمرّت عبادتهم تلك لما يتجاوز ألفين من السنين؟.

وهل كان الهنود على حقّ وهم يعتنقون ديانة (الفيدا) ويذبحون البشر قرابين لآلهتها على مّر تلك

السنين؟.

وهل كان المكسيكيّون القدامى على حقّ وهم على عهد (المايا) يدينون بآلهة الآبار والبحيرات والبراكين فيذبحون لها البشر وينتزعون من أجسادها (القلوب) التي يشتهي لحمها الإله، فترفع على سارية بأعلى الهرم وما زالت تلك القلوب تنبض، بل وتقطر منها الدماء، ليتسلّل الإله (الوهمّي) إليها ليلاً فيأكلها؟.

حدّثني عن كاهن واحد من كهنة هؤلاء الأقوام كان صادقاً ادّعاه لقومه، قبل أن تطلب منّي التسليم بصدق أيّ كاهن.. أيّاً كان هذا الكاهن!.

[(1)] في سنة 1922 كشف (ليونارد وولي) عن جبانة ضخمة بمدينة (أور) السومرية (2500 ق.م) وبها عدد من المقابر الملكية التي وجد بها جثمان الملك ومن حوله جثامين عدد كبير من أفراد الحاشية، وبيد كل منهم قدح، وفي وسط القبر إناء نحاسي كبير، وكانت هيئة الجثامين تدل على أنهم اغترفوا السمّ من الإناء وشربوه قبل إغلاق المقبرة عليهم إلى الأبد [إيفارليسنر، الماضي الحيّ، الهيئة المصرية للكتاب ص 29].

[(2)] انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود،

مج/ 2 الباب 14 ص 30.

(3) المرجع السابق ص 34.

(1) انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة ، ترجمة زكي نجيب محمود، مج /2 الباب 14 ص 35.

(1) انظر: إيفار ليسنر، الماضي الحي، ترجمة شكري إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب ص 341.

(1) انظر: إيفار ليسنر، الماضي الحي، ترجمة شكري إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب ص 342.

(1) في الفصل الذي يلي: آليات السيطرة، ما يكشف عن طبيعة تلك الجرثومة.

الفصل الثالث

آليّات السيطرة

سأضع لك البذور... وعليك رعايتها إلى أن تثمر!..

(كونفوشيوس)

لو سألك سائل! ما هي آخر مرّة رأيت فيها شجرة، أو سحابة، أو قطاراً.. إلخ ما حولك من أشياء، فستفكّر قليلاً ثم تجيبه. لكن لو سألك عن الشّجرة، لماذا هي شجرة؟، أو سألك عن السّحابة، لماذا هي سحابة، أو لماذا هو قطار، فستعتريك الدّهشة، وربّما لا تجيب عن سؤاله.

ولو أنّ لديك طفلاً في السّنة الأولى من عمره، وصادفه العطش وهو بين يديك، فمن المؤكّد أنّه سيتطلّع إليك ثم يهمس (أُمبُو) مشيراً بها إلى رغبته في شرب الماء.. تحوّلت لفظة «أمبُو» لدى الطفل إلى رمز للماء، لدرجة أنّك لو وضعت بين يديه كوب ماء وسألته عمّا به، يجيبك بكلمة «أمبو» وليس ماء.

ومقابل طفلك الذي يشير إلى الماء بكلمة «أُمبو» فلو أنّ مكانه طفلاً لا يعرف اللّغة العربيّة، أبواه إنجليزيّان أو فرنسيّان مثلاً، ووضعت أمامه كوب الماء وسألته عنه، لأشاح بوجهه عنك، إذ هو من الأصل لا يعرف لغتك ليستوعب السؤال، كما أنّه لم يسمع - قط - أنّ مقابل الماء يسمّى «أمبو».. الطّفل هو الطّفل، والماء هو الماء، الذي تغيّر هو «معنى» السائل الموجود في الكوب، فهذا (المعنى) في [معجم عقل] طفلك هو الماء، بينما هو في [معجم عقل] الطفل الآخر مسمّى آخر.

فإن عدنا إلى الشجرة نسأل عمّن أعطاها الاسم «شجرة» مشاراً به إلى هيئتها الماديّة المكوّنة من جذر وفروع وأوراق إلخ، كانت الإجابة أنّنا تعلّمنا (المعنى) بتلقينه لنا من المحيطين بنا منذ المهد فغرسناه في [مخزن/معجم] العقل بالرّأس، لنعود إليه حين تدعو الحاجة إلى ذلك، فبات معنى «كلمة» شجرة ثابتاً لا يعتريه التّغيير.

على أنّ معاني الأشياء في «المعجم العقليّ» لا تشير إلى هيئة الشّيء وحدها، ولكنّها معانٍ [مركّبة]، فمعنى كلمة شجرة يختلط به «في المعجم» أنّها شجرة برتقال أو ليمون.. صفراء أو خضراء، طويلة أو قصيرة، كذلك معنى «كلمة ماء» - الّتي هي في معجم الطّفل «أمبو» - قد يخالطها أن يكون الماء - (الأمبو) - بارداً أو حاراً، حلواً أو مرّاً، في الكوب أو في النّهر، وكلّ هذه المخالطات قد حدثت في المعجم العقلي حين تصنيفه للمعنى وتسجيله في «سجلّه الخاص» الّذي يرجع إليه حين

تدعو الحاجة إلى ذلك.

على أن تسمية «الحافظة» الموجودة داخل «المعجم العقلي» بالسجلّ، فيه تجاوز، فالسجلات الّتي نعرفها في المصالح والهيئات - وكذلك في أجهزة الحاسوب، لا تفكّر في ما هو مدوّن بها، عكس سجلّ [المعجم العقلي]، إذ بينما السّجلّات الأخرى كافّة كيانات «ميّتة!» ترى المعجم العقليّ كياناً «حيّاً» في حالة عمل دائم، فهو يصنّف ويرتّب ويقارن ويضيف ويحذف، فلندع الآن عملية «التجاوز» الّتي ساقتنا إليها الحاجة!، ولنقل بأن المعجم العقلي مجرّد سجلّ كغيره من السّجلّات!.. تُرى، ما الذي يحدث لهذا السجلّ إن داهمته «أرضَة الورق» أو انسكب عليه الماء، أو بعثرت محتوياته في سجلّ الحاسوب؟.. النّتيجة الحتميّة لذلك ستكون تدمير السجلّ بما يعجز عن الكشف عن محتوياته فيصبح خراباً لا فائدة منه.

ولو أن لديك سجلّاً - أيّاً كان غير العقليّ - فأصابه

التّلف، ورآه أحد ممّن معك (فأمسك) به وجعل (يشخبط) فيه ثم تركه جانباً، ثم دعتك الحاجة للرّجوع إلى السجلّ المعبوث به، فهل لو تصفّحت هذا السجلّ بحثاً عن مبتغاك منه ستعثر عليه؟، أم أنّك ستجد مكانه ما تكفّلت يد الشّخص العابث بتدوينه في المكان الذّي كانت معلومتك فيه؟.

ذلك - بالضّبط - هو ما يحدث في المعجم العقليّ لـ نسان حين اقتحامه (بفكرة متسلّطة) عبّرنا عنها فيما سلف بالجرثومة، فهي على شاكلتها تقتحم لتسيطر!.

جرثومة الفكر المتسلّط - إذن -، هي (فكرة) تسمعها أو تقرأها أو تشاهدها حدثاً في حياتك اليوميّة، فتعبُر إلى معجمك العقليّ لترجمتها وإعطائها المعنى بتطبيقهما على المستقرّ فيه من المعاني، فإن كانت الفكرة هي «العطش»، طاف بها المعجم على مخزونه من المعاني ليطابقها على المرموز به إليها، فالعطش يقابله في المعجم، الماء،

وحار، وبارد إلخ لينتج المعنى!.

وقد يحدث أن يطاف بالفكرة على مفردات المعجم كافة فلا تنطبق على أيّ شيء فيه، فلا ينحّيها المعجم ولا ينصرف عنها، وإنّما يبعث بها إلى «جاره» المختصّ (بالتخيّل) ليصنع لها (صورة) يمكن المطابقة عليها.

خذ - مثلاً - كلمة «عفريت» الّتي تبعث الرّعب في قلوب الأطفال والسذّج!، وطف بتلك الكلمة على مفردات معجمك العقليّ لتصنع لها معنى يشكّل عقلك منه صورة هذا «العفريت»، وسيردّك المعجم قائلاً: لا أعرف شيئاً كهذا، لكنه بعد فترة سيطرق عليك وعيك قائلاً: وجدتها لك، فالعفريت الّذي أردت معناه هو ما حدّثتك به «جدّتك» في طفولتك حين النّوم، هو ذلك الكائن المفزع ذو القرنين والعين الواحدة التي ينبعث منها الشرر... إلخ.

تشكّلت الصورة الخرافّية لكائن غير موجود عبر

(فكرة) عبرت إلى عقلك في الطّفولة، فهل كانت تلك الفكرة صحيحة؟.

فإن كانت إجابة هذا السؤال هي بالقطع: لا، فكيف تكوّنت صورة «العفريت» في عقلك من «اللّاشيء»؟..

لقد تكفّل «مصنع» تصنيع الخيال - المجاور لمعجمك في الرّأس! بتصنيع الصّورة، فهو الذي شكّل هيئة العفريت مارداً أو تنّيناً أو الشّخص الّذي بجانبك - وقد سحرته العرّافات في كهوف جبال الأوليمب!، لكن النّتيجة واحدة، فهذا العفريت ليس إلّا مجرّد تخيّل!.

وبما أنّ الخيال وليد البيئة - فمصنع الخيال في رأسك لم يصنّع صورة العفريت إلّا بعد الرّجوع إلى «حدّوتة النّوم» الّتي قالتها الجدّة في الصّغر!، فإن المطروحات الغيبيّة كافّة تتشكّل من واقع معطيات البيئة - واقعاً وتراثاً وفكراً، مع التّنويه بأنّ تلك

المعطيات لصيقة بالوجه الجغرافي للبيئة، فالبدويّ على أرض غاصّة من حوله بالخراب والسّراب نهاراً، وبهسيس اللّيل وتواري صفحة الأرض في الظّلام لتشخص السماء بنجومها وقد سيطرت على الأعين، لا يتخيّل إلّا من معطيات ما حوله، ولك في سجلّ العرب الأقدمين - المسمّى بشعرهم! - بيان حافل بما تفتّق عنه خيالهم من وصف إبل، ومناجاة أطلال وتصوّر لواد تسكنه «الجن»، بل، وتصوّر لاتّصال تلك الجنّ بالإنسان.

ما دخل جرثومة «الفكرة» في (الطّرح الكهنوتي) بكلّ ما سبق؟، وكيف تستقيم المقابلة بين فكرة هذا الطّرح - وقد أرّقت الفلسفة أزماناً طويلة - وبين فكرة المقابلة بين (الماء) وكلمة «أمبو» أو بين تصنيع «العفريت» وتصنيع صورة (الجبل)؟.

وإجابة هذا السّؤال تقتضي سلوك طريق آخر نحصل من خلاله على مكوّنات الإجابة، مفردات مقطوع بها (عمليّاً) كيلا يكون هناك احتجاج آخر!.

فمن المعروف أن إدراكنا للواقع المعيش يتم من خلال (الحواسّ) من سمع وبصر ولمس.. إلخ، فما نراه ندركه، وما نسمعه ندركه، وما نشمّه ندركه.. إلخ، والذي رأيته فأدركته، كذلك الذي سمعته فأدركته هو (موجود) خارج «كيانك» فإن أدركت بالبصر «قطّاً» فهذا القطّ هو كيان خارج كيانك، وكذلك ما يدرك بالحواس كافّة يتّجه في عمليّة إدراكه من الخارج إلى الداخل، فإن وضعنا لعمليّة الإدراك تلك (قناة) يَعبُر من خلالها الإدراك، كانت قناة الإدراك بالحواسّ قناة (خارجيّة).

غير أن هناك (مُدركات) لا ذوات لها في الخارج، إذ هي في نطاق الواقع لا وجود لها، مثل كلمة «عفريت» سابق الحديث عنها، كذلك «إبليس» و «الملائكة» و«الملأ الأعلى»، إذ كلّ تلك المسمّيات (غيب) يتمّ تصنيع صُوَرِه في «مصنع الخيال» بالرّأس، فتصنيع الصّورة جرى (بالدّاخل)، والإدراك بها جرى (بالدّاخل)، إذن فقناة إدراكها (داخليّة)!.

فإن أريد الامساك بالفكرة (حال عبورها قناة الإدراك بها) لتحويلها عن المسار، أو للعبث بها، فإن ذلك فيما يَعبُر عن طريق قناة النّقل الخارجيّة - قناة النّقل بالحواسّ - غير وارد، إذ يستحيل أن تمسك بصورة «القطّ» حين عبورها لتعبث بها محوّلاً إيّاها إلى صورة «قطار»، فالمعجم العقليّ لك بالمرصاد، تراه في مواجهتك صارخاً فيك كُفّ!، هذه صورة قطّ وليست صورة قطار!.

لكن الّذي يحدث عبر قناة النّقل الّداخليّة هو العكس، إذ إنّ المنقول كله من خلال تلك القناة هو متصوّرات صنعها العقل بخياله، ومن ثم فالمعجم العقلي خال (تماماً) من أيّ رمز يشير إلى معناها، فإن تصدّيت لكلمة (العفريت) حال عبور تصوّرها من (مصنع الخيال) إلى معجم المعاني - عبر قناة النّقل الدّاخليّة - فأمسكت بالّتصور الّذي صنعه مصنع الّتخيّل لكلمة «عفريت» ونزعت عن الصورة الُمتَخيّلة - قرونها وعين النّار فيها - ووضعت بديلاً

عن ذلك ما تشاء، ما اعترضك معترض، فالحارس - المعجم - غافل عنك وعن التصوّر وعن قناة النقل ذاتها.

نعود - إذن - إلى (الفكرة الكهنوتيّة) لنراها - بكاملها - موصولة (بغيب) كالآلهة والملائكة والجنّة والنّار إلخ، ومن ثم فهي موصولة بما لا يمكن إدراكه إلّا (بالتخيّل!)، وهو الأمر الذي يستحيل معه المطابقة - داخل المعجم العقليّ - على معنى أثبته المعجم أنّه حقيقيّ.

تُرى!، ما الّذي يحدث إذا تسلّلت فكرة (غيبيّة) إلى «المُعجم» فأزاحته وكفّته عن العمل تحت ستار أنها (فكرة الإله) - أيّ إله!، ثمّ اتّجهت إلى مفردات الرّموز المطالب بوضع معناها صارخة: المعنى في داخلي أنا، وقد جرى تصنيفه في (ملأ أعلى!) هو أعلم بالتّصنيف منك بما يمتنع معه (عقلنة) التّصور، وبما يفرض التّسليم بصدقه دون البحث عن أسس هذا الصّدق.

الذي يحدث آنئذ هو أن يُشلّ معجمك العقليّ فيكفّ عن العمل، تاركاً للفكرة المتسلّطة (الدّخيلة) مهمّة الإنتاج - معنى، وتصوّراً - وفهماً، ليصير المرء الموبوء بالفكرة المتسلّطة مجرّد لسان يتحدّث من خلاله صاحب تلك الفكرة، الّذي هو في كلّ الأحوال (كاهن!).

وسيلة الكاهن في السّيطرة تبدأ باختراق العقل، ولأنّ اختراق العقل بما لا يستقيم للعقل قبوله هو أمر فوق طاقة «الكاهن»، وربّما هو عديم الجدوى، فقد وضع الكهنة نصب أعينهم أن تكون البداية عبر العقول التي لاحظّ لها من «علم» أو «معرفة»، فاتّجهوا إلى (العامة من النّاس) فأخضوعهم، وكانت الكارثة في أنّ العامّة كانوا هم (العامّة!) الّذين انطلقوا طوفاناً يدمّرون عقل البشرية «الواعي» بما فرضه «السيف» على من آثر النجاة بحياته، وفرضه «القتل» على من تصدّى بالمقاومة، وفي الّتاريخ من المذابح ما يدمغ الصّورة بالمأساة (*) **.**

(*) معامل تفريخ الكهانة العصريّة تطرح على السّاحة «أشباه عوام» بعضهم يحمل لقباً «علميّاً» أساسه أطروحة (غيْب) مصادرها كافة كهانية!.

الفصل الرابع

خرافة الفكرة

إذا كنت لم تفهم الحياة، فكيف تفهم الموت!

(كونفوشيوس)

مدخل

من المؤكّد أنّك رأيت بخار الماء وهو يتصاعد من آنية الطّبخ، أو من كوب الشّاي!.. وربّما تعود بك الذّاكرة إلى أيّام الطّفولة فتتذكّر أيّام الشّتاء وأنت في طريقك إلى المدرسة في يوم شديد البرودة، كنت «تتنفّس» فترى أنفاسك أمامك وقد تشكّلت في

مخروط من البخار!.

فإن كنت مثلي على قدر بسيط من المعرفة في علوم «الفيزياء» وسألك سائل عن هذا «الضّباب» لقلت له، بأنّه قطرات ماء تبخّرت داخل الجسم، وصادفها حين مغادرتها إياه - من الأنف أو الفمّ - طقس شديد البرودة، فتكثّفت على الهيئة الّتي رأيتها.

ولو سألت - أنت - شخصاً آخر - ممّن لا علم لهم بالفيزياء هذا السّؤال - لما استوعب سؤالك، وربما نظر إليك شزراً، ثمّ أعرض عنك.

فإذا كان الذي سألته - السؤال نفسه - متخصّصاً في علم الفيزياء لتوقّف أمامك، فأطرق لحظة، ثم قال لك، هذا يا سيّدي خليط من «ذرّات» غاز الأكسوجين والهيدروجين وبعض غازات أخرى ممّا يتشكّل منها الماء، كانت بداخل الجسد على درجة حرارة التحوّل الغازية، فصادفها حين الانتقال إلى الخارج درجة حرارة «باردة» نقلتها من الحالة الغازيّة إلى حالة

«التبخّر» ثم إلى حالة «التكثيف» على ما رأيت!.

والإجابات الثلاث صحيحة. أما الّذي اختلف فهو «الطّريقة» التي شكّلت «الرّؤية» لكلّ صاحب إجابة، فصاحبا الإجابتين الأوليين كانا يريان (بخار الماء) في المخروط «الزّفيريّ» بمنظور (خبرة) عاديّة، مجرّد بخار ماء، بينما كانت إجابة «المتخصّص» موصولة بإدراكه للتّفاصيل، فهو حين رأى (الظّاهرة) المسؤول عنها لم يرها على هيئة «مخروط من البخار» وإنّما رآها على هيئة «ذرّات» من الغازات التي فصّلها في إجابته!.

تُرى، لماذا جئنا بهذه المحاورة، فقدّمنا بها لموضوع لا علاقة له لا ببخار الماء، ولا بمن جرى سؤالهم عنه؟.

لقد جئنا بهذا المثال لنَخلُص منه إلى نتيجة هي، أنّ رؤيتا للأشياء موصولة (بخبرة) اكتسبناها من (تداخل) التّعاملات مع تلك الأشياء على خلفيّة

(نماذج) إرشاديّة([1]) كانت مهمّتها تصحيح مسار التّفكير، على نهج لافِتَات الإرشاد الموضوعة في مفارق الطرق.

فحين طرحنا السّؤال على «المتخصّص في الفيزياء»، عاد بذاكرته إلى [المعمل!] الّذي كان يطبّق النّظريّات من خلال أدواته، فتذكّر عمليّة «تحليل الماء» بفصل الأكسوجين عن الهيدروجين بغرس قطبين كهربيّين أحدهما موجب والآخر سالب في إناء ماء، وتذكّر فقاّعات غاز الأكسوجين عبر الأنبوب المجاور لعمليّة «التّشطير».. فهو لم يقل لك ما قاله في إجابته إلّا على خلفيّة شكّلتها (النّظرية) وأكّدها التّطبيق، فتكوّن لديه من النّظرية ومن مفردات التّطبيق (خبرة) قائمة على دلائل / نماذج - إرشاديّة قادته إلى طريق الإجابة الصحيح.

فإن استبدلنا بالسّؤال سؤالاً آخر، فلم نسأل عن «مخروط البخار» وإنّما سألنا عن «السّماء» فقلنا

للشّخص الأوّل، ما هي السّماء؟، لأجاب بأنّها هذه الّتي تراها من فوقك، «قبّة» زرقاء يتلألأ منها بريق النجوم وتطويها الّشمس نهاراً والقمر ليلاً..

على أنّك لو وضعت مكان هذا الشّخص الّذي سألته رجل «دين» - أيّ دين، وسألته السّؤال نفسه لأجابك بما قال به الأوّل، ثمّ أضاف.. بأنّها الفاصل بين عالم الّدنيا وعالم الدّين، فإن استشعر أنّك تبتغي الإنصات شرع يشرح لك «القدرة» الّتي أقامتها وتُمسكها: بلا «عمد» فلا تسقط إلخ.

لكنّك لو جئت بالشّخص الّثالث « المتخصّص في علوم الفيزياء » وسألته، ما السّماء؟ لردّ عليك على الفور متسائلاً، أيّ سماء تقصد؟ فإن قلت له، تلك القبّة الزّرقاء الّتي تسطع منها الّشمس نهاراً.. فلن يدعك تكمل، وإنّما سيقاطعك بأنّ ما تراه على هيئة « قبّة زرقاء » ليس إلّا (خداع بصر) شكّله انعكاس الضّوء على مياه المحيطات فصادف هذا الانعكاس

الغلاف الجوّي بما به من أبخرة وذرّات هائمة شكّلت الّطبق المقلوب الذي تراه:

الأرض والقمر يسبحان في فضاء كونيّ
صورة من سفينة الفضاء الأمريكية فوجير / 2

فإذا ما استعرضنا الحصيلة من إيراد تلك الأمثلة، وصلاً بما نحن بصدد الحديث عنه، لكان بين أيدينا ما يوضح الكيفيّة الّتي نرى بها الأشياء، فالعين (البيولوجيّة) - الحدقة والعدسة والشبكيّة الخلفيّة.. الخ - مجرّد (مَعْبر) يقف من ورائه (مترجم) مهمّته تقليب الصّورة العابرة ووضعها في الإطار الذي صنعته الخبرة، فإن عدنا بذلك إلى ما سبق أن قلناه

عن (الفكرة المتسلّطة) فيما أسميناه تجاوزاً بالجرثومة، لوجدنا (المترجم) القابع خلف (حبّة العين!) ما هو إلّا تابع يعمل لحساب الفكرة ويقوم بالتّرجمة إلى لغتها.

فإن سألت عن الوسيلة الّتي يمكن بها إزاحة هذا (المترجم) العميل! ليسلم الطريق أمام (الرّؤية) فيسلم العقل من التّضليل، قلت لك «جرّد المرئيّ من تصوّرك له» كأنّك تراه لأوّل وهلة، ثم ابحث عن الّطريق الذي يصلك به هدياً «بنماذج الإرشاد» الخاصّة به، فإن كان « طباً » فبنماذج الإرشاد في علم الطبّ، وإن كان «فلكًا» ونظام كون، فبالنّماذج التي أرساها (علم الفلك)، فما هو شاخص للعيان ليس في حاجة لكاهن يفسّره!.

المنظور السّكونيّ !

الكهانة موصولة ـ وصل ثبات ـ بنظرة الإنسان إلى

الكون، وفكرته عنه.

فجميع تطلّعاتها قائمة على تصوّر (عالم آخر) على (هيئة أخرى) في (مكان آخر) ينتقل إليه الإنسان بعد موته.

فكلّ طروحات «الكهانة» مرتبطة بهذا العالم (الآخر) الّذي لم يُفصح عن نفسه، فتكفّلت الكهانة بالإفصاح عنه، والتعريف به، فأصبح هذا العالم هو (دستور) الكهانة، وأساس وجودها. والمُعطي الكهاني عن [الكون] أنّه يتكوّن من «عالمين » - دنيا وآخرة، يجمعهما إطار«ساكن» تشكّل الأرض - المسطّحة! - قاعدة له يغّطيها (الطّبق) السّماوي المقلوب على حَوَافها، فاصلاً بينها وبين عالم «الغيب» الآخر بما فيه من ملائكة وأرواح موتى وآلهة تعدّدت صورهم وأسماؤهم على مرّ العصور.

وحالة «السّكونيّة» الّتي سبقت الإشارة إليها، فحواها أنّ الأرض مستقرّة وثابتة، تعصمها الجبال

الرّواسي من الميل، ويحملها على قرنية «ثَوْرٌ!» يسبح على سطح الماء الأزليّ.. الذي يدور، هي الأقمار والشّموس، أمّا النّجوم فهي قناديل معلّقة في السّماء «زينة لها».

الإله «شو» يفصل إلهة السماء «نوت» وإله الأرض « جب».

فعند «كهنة الفراعين» في مصر القديمة، كان أصل الوجود (محيطاً أزليّاً) من الماء يسمّى (نُون) ([1]) فانبثقت منه ربوة من الغرين وارتفعت عن الماء عند مدينة هيراكليوبوليس [إهناس المدينة]، فكانت

العرش الّذي ظهر عليه الإله «رع» ([2]) إله الشمس.

ثم وضَعَتْ (!) نُون ابنيها الإلهين [جب] و[نوت] إلهَيْ الأرض والسّماء «توأمًا» في جسد واحد قام بفتقه الإله [شو] إله الرّيح، لترتفع [نوت/ السماء] عن [جب/ الأرض] بفضل [شو] الذي تخيّله المصريّون على هيئة بقرة ترفع السماء بظهرها وتتلالأ نجوم الليّل من صدرها المواجهة للأرض.

وهناك أساطير تفسّر لنا كيف اتّحدت السماء مع إله الشمس.. تقول الأسطورة الّتي وجدت في «متون الأهرام» ولدت الشّمس من بطن [نوت] - السماء- فخرج الإله (رع) - إله الشمس ماشياً، وفي كلّ يوم تلد [نوت] (رع) الّذي يرتفع إلى السماء في جلال وعظمة ([3]) .

وكان المصريون يعتقدون بحياة بعد الموت، وبوجود عالم آخر يحياه الميّت، إما في ملكوت الإله

(رع) متمتعاً بكلّ النّعم الّتي يتمتّع بها الإله، وإمّا في عالم الموتى تحت الأرض برفقة الإله (أوزير) إله الموتى ليُلاقي أهوال الجحيم من أفاع وأودية نار. وقد صاغ (الكهنة) تفاصيل رحلة الانتقال، سواء إلى السّماء أو إلى باطن الأرض، وتكفّلوا باختراع تراتيل تقي الميّت من شرور الرّحلتين، وكانت تلك التراتيل باهظة الثّمن.

والباحث في معظم ديانات الشرق يرى قبساً من ديانة مصر القديمة قد امتدّ إلى تلك الدّيانات فأنعشها، بل إنّ نصوصاً كاملة من نصوص تلك الدّيانة وجدت في ديانات أخرى عديدة.

ففي التصوّر الهندوسي (للثالوث الإلهي) يقوم (براهما) بخلق العالم، بينما يقوم (شيفا) بتدميره، وبينهما يقف (فشنو) للحفاظ على العالم(1).

وعلى الوتيرة نفسها نرى الدّين عند «البابليّين» والأشوريين، ولعلّ في لوح حجر الدّيوريت الّذي

نقش عليه «حامورابي» قانونه الشّهير ما يفي بالغرض، إذ تعلو قمّة هذا اللّوح صورة لحامورابي وهو يجلس أمام (إله) الشّمس «شماس» وهو يتلقّى منه «الوَحْي» الإلهي ([2]) .

فإن طالعت الدّيانة «الزّرادشتيّة» في بلاد فارس، لرأيت في تعاليم «كاهنها الأكبر» زرادشت التصوّر نفسه، فمن معتقدات الديانة الزرداشتيّة «أنّ العالم ينتهي بيوم يسمّى يوم القيامة الّذي يقوم فيه الأموات في يوم يسمّى «يوم الدين»، فيُنصب «الميزان» للحساب، فأما جزاء الصّالحين فهو دخول «الجنّة» لينعم فيها الإنسان بكل ما كان ينعم به في الدنيا، وأمّا جزاء «الأشرار» فهو الاطراح في هاوية الظّلام الأبديّ المستعر فيما يسمّى «بجهنم» ([3]) .

في كلّ بقاع الأرض - وأنّي وجدت (كاهناً) ترى [الكَوْن] في الفكرة الكهانية مُشكّلاً من عالمين، عالم الدّنيا، ويحياه الإنسان على الأرض، وعالم (السّماء)

أو (باطن الأرض) ويحياه الإنسان يوم الدين، فأصبحت السماء لدى الإنسان «همّاً» يؤرّق فكره، ما هي طبيعة تلك القبة الزرقاء؟. ومم تكون، وكيف بقيت على حالها لم تتصدّع، ولم تسقط؟.. إلخ.

ولما لم يكن بوسع الإنسان ـ قديماً ـ أن يصعد إلى تلك السماء ليتحسسها بحثاً عما إذا كانت هي بالفعل التجويف الدّاخلي لجسد الإله [نوت] كما في الأسطورة المصرية القديمة، أم أنها (سقف!) ذو كيان (مادي) يمكن أن يتشقق وأن يقع ([1]) ، استدار الإنسان حاملاً حيرته إلى من بيده تفسير الغيب وكشف الحُجُب عن المستور بعالم «الدين» فوقع في براثن (الكاهن).

الكون بمنظور الرّؤية الدّينيّة [المنظور السّكوني]

استبداد الجهل!

المنظور السّكوني هو فكرة قديمة تقول بأن الأرض ثابتة تدور الأفلاك من حولها. وهي فكرة سادت التفكير البشريّ سنين طويلة إلى أن عارضها وأثبت عدم صحّتها «كوبر نيكوس» [1473- 1543] مؤكّداً أن الأرض هي الّتي تدور حول الشّمس وليس العكس.

وقد نتج عن الفكرة «السكونيّة» أن صارت الأرض بثباتها ودوران الأفلاك - من شمس وقمر وغيرهما - حولهما «مركزاً للكون» الّذي أصبح بمركزية الأرض له ساحة ضيقة ضئيلة، مداها هو ما يسمح للأفلاك بدورة حول الأرض، وزمنها هو الزّمن الّذي تستغرقه تلك الدورة، وهو «يوم أرضيّ» يضمّ اللّيل والنّهار

ويستغرق أربعاً وعشرين ساعة.

وقد شيّدت الأديان عوالمها على تلك الفكرة، وتكفّلت «الكتب المقدّسة» بترسيخها، لدرجة أن ظلّت «الكنيسة» لما بعد «غاليلو» [1564 - 1642] على إنكارها لما قاله: «كوبر نيكوس» وما أكّده «غاليلو» من أنّ الأرض تدور حول نفسها في الوقت الّذي تدور فيه حول الشّمس، على زعم بأنّهما (يبتدعان) هرطقة تتنافى مع ما جاء به «الكتاب المقدّس» فقُدّم «غاليلو» لمحكمة التفتيش في 22 يوليو / تموز سنة 1633، وأرغم على أن يجثو أمام الجماهير مردّداً القسم الّذي تمّ تلقينه له والّذي يقرّ فيه بأنّه «هرطق» وأخطأ (!)، ليأتي العلم بعد ذلك فيثبت أنّ «تلك الهرطقة» هي الحقيقة، وأنّ من وراء الزّعم بمخالفتها «للسّماء» هم المستبدّون الجهلة ([1]) .

وعلى صدى الإذلال الذي تجرّعه «غاليلو» وهو

جاث على ركبتيه وسط الحشّود الّتي تدافعت لتشهد عمليّة إحراقه، أو تسمع اعترافه بإنكار أنّ (الأرض تدور!)، وبأنّه هرطق بما خالف الثّابت في «الكتاب المقدّس»..، وقبل أن نعرج إلى الآفاق السّحيقة الّتي أفصح الكون بها عن نفسه، نذكّر بأنّ أيّ «تلميذ» من تلاميذ المدارس في المرحلة الأولى بات يعرف الآن أنّ حجم الشّمس يساوي «مليون وربع المليون مرّة» من حجم الأرض، وأنّ المسافة بينهما هي (93.000.000 [ثلاثة وتسعون مليون ميل]، وأنّه من المستحيل.. نكرّر، من المستحيل أن يدور «جُرم» بحجم الشّمس حول جرم آخر أقل منه حجماً بمليون وربع المليون مرة! في زمن قدره [24 ساعة]، إذا لو أردت أن تعرف طول محيط الدّائرة الّتي نصف قطرها ثلاثة وتسعون مليون ميل وهي الدائرة التي يقطعها الجسم الذي يدور، وهو في مثالنا الشمس «ولدورة» (واحدة)، فارجع إلى حاسوبك لترى أبعاد تلك الدائرة، وسترى على الفور أمام

ناظريك خرافة المنظور «السّكوني» الّذي تشكّلت عليه الرّؤية «الكهانية» للكون.

وما دمنا قد تطرّقنا إلى تلميذ «المرحلة الأولى» فلا ضير إن تماشينا مع القدر الذي أتاحته له الدّراسة بتلك المرحلة لنقول، بأنّ الأرض «كوكب» ضمن مجموعة كواكب تسمّى «المجموعة الشمسيّة» وتحتلّ الأرض المركز الثالث في بعدها عن الشّمس بعد عطارد والزّهرة، ويليها في البعد ، المرّيخ والمشترى وزحل وأورانوس وبلوتو.

وقد أثبت العلم أن وزن الشّمس يفوق وزن كل كواكب المجموعة مجتمعة، وأنّها تُمسك بجاذبيتها مجموعة الكواكب حولهما كيلا تنقلت [بالدوران] إلى الفضاء السحيق (1) .

فإذا عرفت أن المسافة بين الأرض - التي كانت مركز الكون في المنظور السّكوني، والّتي ظلّت حتى الآن هي هذا المركز في المنظور الدّيني - وبين

الكوكب «الأبعد» من كواكب المجموعة وهو كوكب «أورانوس» - الّذي لا خلاف على تصنيفه ضمن الكواكب عكس بلوتو - هي [192 وحدة فلكيّة] على علم بان الوحدة الفلكيّة هي المسافة بين الأرض والشمس وهي [93.000.000] بما يساوي:

[192 وحدة × 93.000.000 المسافة بين الأرض والشمس = 17856.000.000] ميل.

قرابة ثمانية عشر «مليار» ميل، إذا عرفت مدى هذه المسافة فتخيل قدر الدائرة التي تشغلها مجموعتك الشمسية من الفضاء السحيق.

لكنّك لو عرفت بعد ذلك أن المجموعة الشّمسية تلك ما هي في عرف الفلكيين سوى (حبة رمل) في صحراء كونية بها «تلال» من الرّمال تسمى «المجرّات»، وأنّها - المجموعة الشمسّية - (هاموشة) تقع على إحدى شُعيرات «الحلزون» في مجرّة (درب التبّانة) الّتي نسميها مجرّتنا، لو عرفت

ذلك أدركت القدر الذي عليه (الأرض) فأدركت بأنّها لا تعني النظام الكوني، حتى بأن يشعر بها.

صورة لمجرة درب التبّانة وتظهر بها «الشمس» التي تضم مجموعتنا ـ وسط المربع أعلى اليمين وهي لا تشكل ما يعدو (حبّة رمل) وسط تلال من النجوم داخل مجرتنا، والصورة ملتقطة بعدسات سفينة الفضاء الأمريكية (فوجير / 2) .

فإن أمسكنا بمجرّتنا ـ درب التبّانة ـ نتفحّصها، وقد قام العلم بذلك، لوجدنا بها [بلاين] المجموعات

المماثلة للمجموعة الّتي تضم الأرض.. [على فكرة!] ، إذا أردت عبور هذه المجرة من حافتها إلى حافتها الأخرى، فالأمر غاية في السّهولة!، اركب «شُعاع ضوء» يسير بسرعة (297,000) مئتين وسبعة وتسعين ألف كيلو متر في [الّثانية]، وستصل إلى الحافة الأخرى بعد [100 ألف] سنة، فإن وصلت «بسلامة الله» ونظرت من تلك الحافة فرأيت إحدى الابنتين لمجرّتنا وهي تقف قبالتها على مسافة [150 ألف سنة ضوئية]، فلا تغامر بركوب الضوء للانتقال إلى تلك «الابنة»، إذ يقف في طريقك «ثقب أسود» مهمته قطع الطريق بابتلاع النّجوم والمجرّات، بل وحتى «الضوء» الّذي تتخذه وسيلة لانتقالك..

ما لنا «بقطّاع الطّرق» فلنعد إلى «مجرّتنا» - وما زلنا نتفحّص، لنراها هي الأخرى تحتضن ابنتيها (ماجلّان الكبيرة والصّغيرة) وتُمسك بيدها أختيهما [المرأة المسلسلة، م 33) ليدور الجميع حول الأب الكبير [فيرجو] الّذي ينطلق هو الآخر [ضاماً في

رحابه] بناته الثلاث - درب التبّانة، المرأة المسلسلة، م 33، والحفيدتين ماجلّان الكبيرة والصّغيرة، بسرعة تقارب سرعة الضّوء إلى أغوار الفضاء السّحيق (1).

فإن أخذتك الدّهشة، فلا تدع الملل يتسلّل اليك، إذ ما زالت الرّحلة طويلة، كلّ ما قطعناه منها هو خطوة (واحدة!)، بينما نحن نتهيّأ لرحلة مداها [المنظور علميّاً حتى الآن] هو (14) أربعة عشر (مليار) سنة لنطالع مجرّات تسبح مبتعدة عنّا - مقتربة من حافة الكون [الذي تسنى لنا معرفته] .. إلى أين؟، لا أحد يستطيع الإجابة عن هذا السؤال.

فإن عدنا بما سبق - وجميعه حقائق علميّة يكفي في اثبات يقينها أنّها منظورة «رأي العين» بمرقاب الفضاء «هابل» الّذي يدور حول الأرض، فإن كان المرقاب بعيداً، لأنّه ليس على الأرض، فمن على الأرض أطلقت سفينة الفضاء الأمريكية (فوجير) سنة

٬ فزارت لنا - تجاوزاً - والحقيقة لمن أطلقوها!،كوكب المشتري سنة (1979)، وزحل سنة (1980)وأورانوس (1986)، ومن كل كوكب زارته بعثت بصور السطح والمناخ وتحليل التّربة، ثم واصلت رحلتها إلى خارج نطاق المجموعة الشمسيّة سابحة في فراغ المجرة!. نقول، إن عدنا بما حصّلناه من تلك الرّحلة إلى (كهنة) المنظور السّكونيّ وبين يديهم السّماء (السّقف!) بما عليها من ملائكة وأرواح موتى وسدنة يُعدوّن الجنّات وينفخون في الجحيم، فأيّهما نصدّق، خرافة الكاهن وإن كان من دونها محرقة (غاليلو)، أم الثوابت (اليقينيّة) انفلاتاً بها من ظلمات الجهل والتخلف؟.

مداخلة فرضت نفسها!

أثناء إعداد هذا الكتاب، وفي يوم 9/15 /2008، وبينما كنت أتابع إذاعة الـ B.B.C كان الحديث المذاع يتناول التّجربة العلمّية الأوروبيّة الّتي جرت بدايتها في يوم 9/10/ 2008 على الحدود الفرنسيّة السّويسرية، وهي التّجربة الّتي ابتغى العلماء من ورائها التّعرف على أحداث «اللّحظة الأولى» للانفجار الكبير الّذي نشأ عنه الكون من 1 مليار سنة (1) ، وكان مقدّم البرنامج قد استضاف عدداً من أستاذة الفيزياء بالجامعات المصرية للتّعريف بتلك التجربة، وبالأثر الّذي سيتحقق نتاجاً لها.

وحين قام مقدّم البرنامج ـ حديث الساعة ـ بنقل الحديث إلى متحدّث أشار إلى نفسه بأنّه أستاذ الفيزياء بجامعة حلوان، وبعد أن سأله مقدّم البرنامج عن الرّأي «العلمّي» في ماله قاله أساتذة

الفيزياء الذين سبقوه، ردّ قائلاً، بأنّه لا يتّفق معهم لا نظراً ولا عملاً، وأنّ التجربة الّتي يتناولها الحديث في البرنامج لا تشكّل أيّ قيمة لأنّ ما تقوم عليه «باطل»، إذ لا أساس لما يدّعيه (البعض!) تحت مسمّى الانفجار الكبير..، وقبل أن يسترسل «الأستاذ»، قاطعه مقدّم البرنامج متسائلاً، وهل توجد نظريّة علمية أخرى تفسّر نشأة الكون غير نظريّة الانفجار الكبير؟، فأجاب «أستاذ الفيزياء!» بأنّ هناك نظريّة «الّرتق والفتق» التي جاء بها (القرآن) في الآية الّتي تقول: أو لم يروا أنّ السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما، وعمليّة الفتق تكون بين نسيج ونسيج، كما أنّ هناك آية أخرى تقول: ثم استوى إلى السماء وهي دخان، فهي كانت موجودة من الأصل... الخ.

ورغم أن باقي المتحدثين من أساتذة علم الفيزياء قد تكفّلوا بالرد عليه، مقرّرين له بأن مواضيع (العلم) لا تبحث من خلال (الميتا فيزيقا) أو

النّصوص الدينية وإنّما من خلال معامل البحث والتّجارب، كما أنّهم دحضوا أدلّته علميّاً، ألّا أنّ هناك بعداً آخر ينبغي تناوله في الردّ على هذا الاستاذ بما فرض هذه المداخلة.

فنظريّة (فتق الرتق) الّتي تحدّث عنها (العالم الفيزيائيّ) وساندها بآيات من القرآن، وهي بذاتها نظريّة الخلق في التفكير المصريّ القديم، حيث وجدت بتفاصيلها ضمن ما دُوّن في (متون الأهرام) الّتي ما زالت إلى اليوم شاخصة بالمتحف المصري لمن يريد قراءتها، ونظريّة المُتون تلك تقول: بأنّه قبل خلق العالم كان [الماء الهيولي الأزليّ] المسمى [نُون]، وأنّ هذا «النّون» وَلَد أبناءه «الثّلاثة» [جب]، [جت] و [شو]، فوُلِد [جب] هو الأرض ملتصقاً بـ [جت] وهي السماء حيث كان يضمّهما جسد واحد، فقام [شو] وهو إله الرّيح بفصلهما حاملاً السّماء على ظهره وقد سبقت الاشارة إلى ذلك.

والذي فرض هذه المداخلة، هو أنّ حديث أستاذ الفيزياء «المتخصّص!» قد حاد عن الطريق الصّحيح الّذي تفرضه عليه «الّنماذج الإرشادية» للعلم الّذي يعمل في مجاله، فانحرف عن طريقة الّتفكير هدياً بنماذج العلم، إلى الّتفكير هدياً بنماذج «ميتافيزيقّية» للمعتقد الدّيني الّذي يعتقده، فإن أردت معرفة أساس هذا الانحراف في تفكير الأستاذ (!) فارجع فيما سلف إلى الفصل الذي تحدّثنا فيه عن آليّات التسلّط! (1) [انتهت المداخلة].

(1) النموذج الارشادي هو الاطار الفكري التخصصي للجماعة، راجع (توماس كون، بنية الّثورات العلمية، عالم المعرفة 168ص / 13-).

(1) (ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) (القلم:1)

(2) (وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ) [هود:7]، حدثني موسى عن هارون الهمداني، عن أبي مالك، عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: إن الله تعالى كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء، فلمّا أراد أن يخلق الخلق أخرج الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسمّاه سماء، ثم أيبس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين في يومين في الأحد والاثنين، فخلق الأرض على حوت،

والحوت هو النّون الذي ذكر الله عز وجل في القرآن (نون والقلم وما يسطرون)، والحوت في الماء، والماء على ظهر صفاة، والصّفاة على ظهر ملك، والملك على صخرة، والصّخرة على الريح. [انظر: تاريخ الطبري، ج (1) ص 52)

[(3)] انظر: سليم حسن، موسوعة مصر القديمة ج/2 ص 230.

[(1)] انظر: جون كولن، الفكر في الشرق القديم، ترجمة كامل حسين، عالم المعرفة (199) ص 152، وقارن فكرة الثالوث الإلهي في التصوّر الهندوسي بالثالوث الإلهي في التصوّر المصري القديم - أوزير الربّ الأكبر، وبجانبه (إيزيس) زوجه بيدها ابنهما (حور) ثم قارن بفكرة الثالوث في الديانة المسيحية [الآب والأبن والرّوح].

[(2)] انظر: ايفار ليسنر،ّ الماضي الحي، سبقت الإشارة إليه ص 37.

[(3)] المرجع السابق ص 128.

[(1)] (وَيُمْسِكُ السَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ) [الحج: 65].

[(1)] انظر: مقالة الدكتور محمد رضا محرم، الهيمنة الدينية على الثقافة والعلم، الاهالي 22 /6 /1994ص/10.

[(1)] انظر: فرانك كلوز، النهاية، عالم المعرفة (191) ص 37.

[(1)] انظر: فرانك كلوز، النهاية، سبقت الإشارة إليه ص 325، الصورة رقم (10).

[(1)] في يوم الاربعاء الموافق (10/9/2008) وعلى الحدود بين سويسرا وفرنسا ومن خلال أنبوب ضخم أقيم تحت الأرض على عمق يتراوح ما بين 50، 170 متراً تمّ تشغيل ما سُمّي بـ «مُعجّل الهيدرونات التصادمي الكبير» الّذي استغرق إعداده عشرين عاماً وكلّف ما يقرب من تسعة مليارات دولار،وشارك في ابحاثه أكثر من أربعة آلاف عالم من مختلف دول العالم في بداية لتجربة (علمية)

لتخليق «جسيم أوّلي» في مجال وظروف مشابهة لما كان عليه الحال حين (بدأ الكون) بما يعرف بالانفجار الكبير، إذ يعتقد العلماء أنّ الكون الذي يحتوينا ما هو الّا (تصدّع/ انكسار) في مجال (لا نهائي) متناسق ثابت الكثافة فتولّد عن عملّية (الّتصدع) جسيم أوّلي واحد متناهي الكثافة والجاذبيّة والحرارة - (مطلق) - كان هو «النواة» الّتي أحدث انفجارها الكون المائل وتتمثّل التّجربة العلميّة في انبوب ضخم دائريّ يصنع مجالاً «لا نهائياً» لما يدور فيه، ثم تطلق فيه (حزمة) من «البروتونات» في اتجاهين متضادّين بسرعة تقارب سرعة الضوء في مسار دائري لا نهائي تصطدم فيه البروتونات في حالة تشابه الحالة الّتي أحدثها «التصدّع الكوني» قبل (14 مليار سنة) وتولّد عنها الجسيم الأوّلي، وذلك لتخليق جُسيم مماثل يكشف بظهوره عن «ميني كون» يولد أمام الأعين!.. فإن امتدّ عمرك عقدين من الزمن، فستجلس أمام «التلفاز» تحتسي مشروبك الّدافئ وأنت تشاهد ما كان قبل أن يكون (الكون) وحين (ولد) وما أعقب هذه الولادة. [الكاتب]

(1) راجع ما سبق في الفصل الثالث.

الفصل الخامس

قطوف.. مسمومة!

كيف لم تعرف – وهي تتلوّى بين يديك – أنّها أفعى!.

مانو...

السّاحر الماهر يستطيع إقناعك بأنّ «المنديل» الّذي بيده ليس منديلاً وإنّما هو «حمامة حيّة، ترفرف بجناحيها وتطير. فإن كان مِزَاجها سلسبيلاً حطّت على كتفك وترنّمت لك بمقطوعة شعر أو أغنية، وبينما أنت مشغول بحديث السّاحر عن المنديل الحمامة، يطوي ذراعه إلى صدره - وهو

يُغافلك بالحديث، ثم يعيده فإذا المنديل في يده قد صار حمامة تحاول الانفلات من بين أصابعه، فيطلقها تحوم فوق رؤوس المشاهدين ليلتقطها مساعده فيعود بها ليضعها في الجراب بجانبه!.

وكهنة الّدين في مصر القديمة كانوا يمارسون السّحر على هذا النّهج، فغرفة «السّر الأعظم» المسمّاة بقدس الأقداس بالمعبد الرئيسيّ لـ له هي المكان الّذي يهبط إليه الإله ليسمع الّتعاويذ ويُعطِي الّنصائح، وهي غرفة لا يدخلها سوى «الكاهن الأكبر» فهو وحده الّذي يناجي الإله بداخل الغرفة، وهو وحده الذي يتلقى منه النّصائح ويعرف رأيه في القرابين التي تُقدّم، فكان هذا الكاهن يدخل تلك الغرفة وسط الّترانيم وعبَق البخور فما أن يدخل حتّى يغلق باب الغرفة عليه ويعمّ الصّمت، وبينما الآذان مرهفة، تدوّي دمدمة تنفرج عن صوتٍ تردّد جدران الغرفة صداه معلناً أنّه الإله، فترى الكلّ ساجدين وقد أخذتهم الرّجفة من وقع الحدث.

ونحن نعرف الآن أنّ تلك العمليّة برمّتها كانت خدعة كاهن، إذ كان هو الّذي يتحدّث من وراء الباب بصوت درّبه على الانتقال من طبقة إلى طبقة، ومن مقام إلى مقام، فكأنّما هناك من يحاوره، ليوهم الجَمْع المتراصّ بالخارج أنّ الإله قد حلّ بالغرفة.

وعلى الرّغم من أنّ العصر الّذي يحتوينا هو عصر انطلاقة علميّة كبرى، يحول بيننا وبين المشاركة فيما تمكّن «الخرافة» من عقولنا، فقد باتت تلك الخرافة أسلوب حياة نجابه به من منطلقات العلم الّتي لا حصر لها بعشرات الصحف ومئات الفضائيّات والكتب المتراصّة على كلّ قارعة طريق، ناهيك عن ألوف المنابر والعمائم، وكلّها تصبّ في الرؤوس الأحاديث عن (الجنّ» و«العفاريت» بما شطر الوعي إلى عالمين متلازمين نعيشهما، عالم «البشر» وعالم «الشّياطين».

وعلى الرّغم من أنّ جميع «الشّياطين» الّتي تشاركنا في الصّحو والنّوم هي شياطين (مُهاجرة!)

وفدت إلينا من الّتراث الفكريّ العربّي الّذي انتقل وبين يديه (عالم الجنّ) القادم من «الربع الخراب» يحمل لواء «وادي عبقر»، وهي شياطين «مستأنسة» مهمّتها إلهام الّشعراء ببديع الشّعر، وإلهام «العرّافين» بأحداث المستقبل، إلّا أنّ شياطيننا استأسدت علينا فأصبحت تشاركنا في الأجساد فيما يعُرف «بالمسّ الشّيطاني» فباتت الحاجة ماسّة إلى «كاهن» عصريّ ليخلّص الجسد من شيطانه، ومن ثمّ ظهرت خرافة «العلاج بالقرآن».

وما أدراك ما العلاج بالقرآن، فهي جرائم تصل إلى حدّ القتل يقترفها «دجّالون» في حقّ مرضى نفسيّين شاء حظّهم أن يوجدوا على أرض مجتمع يقتلك في سبيل أن ينعم بخرافته.

وطريقة العلاج بالقرآن - إن لم تكن تعرفها، هي أن يجلس الشّيخ «الدجّال» بجوار رأس «الضحيّة» فيقرأ بعض آيات من القرآن، ثم يميل على أذنها

وهو يسأل: اسمك إيه؟ ، ومن خلال صمت الترقّب يسمع الجميع صوتاً «خشناً» يردّ: «أنا عزراؤوف!»، فيسأل الشّيخ: أنت من الإنس أم من الجن؟، فيردّ الصوت الخشن: أنا من الجنّ، فيسأله الشّيخ: ولماذا دخلت جسد هذه الفتاة؟، يردّ الصوت، لأنّي أحبّها ولن أتركها لغيري، يعتدل الشّيخ «الدجّال» ويدور بعينيه يتفحّص الأثر الّذي أحدثته محاورته مع الجنّي ثم يميل فيمسك برأس «الضحيّة» صارخاً: مطلوب منك مغادرة جسد الفتاة فوراً وإلّا قرأت عليك (سورة كذا..) لأحرقك، يرتعد الصّوت «الخشن» متوسّلاً: لا.. لا .. سأخرج، وهنا يمسك الشّيخ الدجّال بإبهام يد الضحيّة - ضاغطاً عليه، وهو يسألها عمّا تشعر به، وبالطبع ستقول: إصبعي تؤلمني، فيتهلل الشّيخ فرحاً.. لقد خرج الجنّي!.

الكارثة تحدث حين تكون الضحيّة على درجة من الوعي تمكّنها من اكتشاف خدعة الدجّال فلا تجاريه

في فصول المأساة، فيعلن أنّ الجنّي متمرّد يستحقّ التّأديب، ثم ينهال على جسد الفتاة ضرباً وركلاً يشاركه فيه أهلها إلى أن ترضخ تحت وطأة التّعذيب لما يطلب، فإن لم ترضخ.. ماتت!.

والأمر برمّته خدعة «دجّال» كخدعة المنديل والحمامة، فالشّيخ الدجّال روّض نفسه على إتقان الحديث من حنجرته على مثيل ما يفعل «الأراجوز»، فهو حين يسأل، يسأل بصوته العادي، وحين يُجيب - على لسان الجنّي، يجيب بصوت من حنجرته دون تحريك فمه ليوهم بأنّ الصوت آت من مصدر آخر..

كلام رسم ص 32 – 33

أمم تستأنس الطبيعة... وأمة تستأنس العفاريت

وتدمن الخرافة..!!

حتى أساتذة الجامعة ... أصابهم المس...!!

والخدعة، سواء بالمنديل أو الحمامة أو من وراء

باب غرفة السّرّ الأعظم، أم من خلال دجل الشّيخ بالقرآن، ليست غايتنا، وإنّما غايتنا هي الكشف عن «الجذور» الّتي تسلّقتها فكرة احتلال الجنّ لجسد الإنسان واستقرارها به إذ تتّصل تلك الجذور بفكرة «هنديّة قديمة» طريق التعرّف عليها يقتضى اختراق متاهة «كابوسيّة» هيّأتها لك.. فأغمض عينيك، وتخيّل أنّك في سبات عميق!.

أنت - الآن - تستيقظ من النّوم!، ما زلتَ في بداية الإفاقة، تُحاول «فهم» الإحساس الفَزِع الّذي تسبح فيه، ربّما كنت تتململ استعداداً للتّمطّي الّذي اعتدت أن تعقبه بالاستدارة على ظهرك، فلمّا لم تجد ظهرك، عدلْت عن طرح يديك جانباً، لأنّهما لم يكونا بجوارك، فلمّا انتفضت، انتابتك رجفة الإحساس بالشّعر الكثيف حولك!.. في الجزء من الّذاكرة - الّذي يغوص في العمق، فراش طريّ، وسقف غرفة، وبقايا شكل نافذة.. لكنّ وعيك سابح في لزوجة الّظلام المتماوج مع امتداد النّفق، والخرير المنبعث

من فتحة يعبث تحتها مخلوقات غريبة!.. وربّما - قبل أن تسقط السّقطة الّتي كوّمتك وسط الأجساد الّتي هبّت مذعورة، كنت قد قفزت!، فاقترب منك (الفأر) الكبير.. «يبتسم!»، ويدسّ شواربه في وجهك!.

على خلفيّة «مرآة» تتماوج تراجعاً في (الصّدىّ) تذكّرت (الكوابيس) الّتي كانت «هناك»، فأطلّت عليك لمحة (ماض!) يتوارى..

فإن لم تصدّق أنّك قد صرت (فأراً)، فأنت على خطأ، لكنّك لست المسؤول، فمنذ فاضت روحك - ربّما من مئات السّنين - وهي تحاول جاهدة أن تتخلّص من الأوزار الّتي حمّلتها بها.. كم مرّة كذبت، وكم خطيئة اقترفت، وربّما تكون قد دنّست شرف جارك، أو قتلت!.. «الّتي» تُعاني الآن هي روحك وحولها جثث خطاياك عالقة بها، تمنعها من سياحة «الومضة!» في الفضاء اللّانهائيّ، بل وتشدّها - بإصرار، إلى الهاوية الّتي يهتزّ سقفها

بالصّريج والألم!.

أفهل كان من العدل أن تُترك تلك الروح - الّتي ليس من طبيعتها اقتراف الأذى! حاملة لأوزارك، وللأبد! - أم أنت المسؤول عن تلك الأوزار فيكون من العدل أن تُعذّب بها!. صرت «فأراً».. ذاك هو المقابل لخطاياك في قانون (كارما) في الدّيانة الهندوسيّة!.

تقوم فكرة التّناسخ في العقيدة الهنديّة على تصوّر أنّ «الحياة» لا يمكن فهمها إلّا على افتراض أن كلّ مرحلة من مراحل وجود «النّفس» تعاني العذاب، أو تتمتّع بالثواب جزاءً وفاقاً لما وقع منها في «حياة ماضية» من رذيلة، أو من فضيلة، إذ يستحيل على «فعل» صغير، أو كبير أن (يمضي) بغير أثره، الّذي لا بد أن يظهر ذات يوم.. ذاك هو قانون (كارما).. وتلك هي عمليّة «التناسخ»! [(1)].

فالوجود في تلك العقيدة هو وجود متعدّد الحَيَوات،

حياة يعقبها موت، ثم بعث جديد (في هيئة أخرى) ثم موت.. وهكذا، فإن سألنا: إلى الأبد ذلك؟ أجابتنا (الكارما) بالنّفي، فعند بلوغ الرّوح منتهى «النّقاء» تسبح إلى (الجنّة) لتنعم فيها على القدر الّذي عليه نقاؤها، فإن لم تفلح عمليّة التّناسخ في «التّطهير» وظلّت «النّفس» رغم الزجّ بها في فأر أو صرصور أو إنسان (شقيّ!) على تمرّدها، فإنّها تهوي بأوزاها إلى الجحيم ([2]) لتلقى عذابها..غير أنّ النّعيم والجحيم في فكر تلك العقيدة غير دائمين، إذ لابدّ للروح بعد فترة تقضيها - في النّعيم أو الجحيم - أن تعود إلى «ساحة الاختبار» على الأرض.

يقول ول. ديورانت في موسوعة «قصة الحضارة»:

كان هذا المذهب صادقًا من الوجهة البيولوجيّة إلى حدّ كبير، فلا

ريب في أنّنا حقّا تجسيد جديد لأسلافنا، وسنعود بدورنا لنتجسد من جديد في أبنائنا.. وعيوب الآباء تهبط على الأبناء، حتّى ولو بعد أجيال كثيرة، وقد كان (كارما) أسطورة بارعة في صرف الحيوان البشريّ - الإنسان - عن القتل و السرقة والتقتير في العطايا، فضلًا عن أنّها وسّعت من نطاق الوحدة الخُلقية والشّعور بالواجب، حتى شمل ذلك النطاق مراحل الحياة كلّها: فالهنود الأخيار لا يقتلون حتّى الحشرات - إذا وسعهم ذلك.

وقد فسّرت «كارما» للهنود من النّاحية الفلسفيّة كثيراًمن الحقائق

الّتي كانت غامضة المعنى، فالفوارق الأزليّة التي تخيّب آمال النّاس منذ الأزل في المساواة والعدل.. وهذه الآلام الّتي تدخل حياة الإنسان مع ولادته، ثم تصاحبه حتى وفاته، كلّ هذه وتلك بدت معقولة للهنديّ، فكلّ ما يحدث يحدث نتيجة لحياة ماضية [1] **.**

والمتأمّل في هذا الفكر يراه على قدر كبير من النُّضج الأخلاقيّ، فقانون (كارما) لا يفصل بين الفعل والجزاء، وإنّما هما لصيقان معاً، فلا فرار بالتّوبة، ولا نجاة بالواسطة!، ولا بأفعال غيرك تُؤاخذ!.

غاية ما يؤخذ على هذا الفكر [الإنسانيّ البحث] أنّه أضاف القانون إلى (كارما)، الّذي لا يتجاوز أنّه (أسطورة)، فصنع بتلك الإضافة (إلهاً).. كم هدهد النّفوس بالأماني، وكم أحاطها بالمُوجعات.

وكانت نتيجة الإيمان بفكرة التّناسخ أن أصبحت ظواهر الأشياء مجرّد ألبسة تتخفّى وراءها الحقائق، وهي ألبسة خادعة غير طيّعة للكشف عما وراءها إلّا لمن أعطاهم (الله) ملكة هذا الكشف من (العارفين) الّذين بإمكانهم اختراق «القشرة» وصولاً إلى «اللّب» بمجرّد النّظرة إلى الكيان الشّاخص.

وبهذا المفهوم فالوجود من حولك «مُخادع»، إذ القطّة السوداء في الموروث التّراثيّ تُهشّ ولا تضرب، فهي - في هذا التّراث - تجسيد لروح، أو روح لشيطان إن أذيته أضرّك، وكم في التراث من شياطين شخصت للأبصار عياناً جهاراً فحادثتهم، وشاركتهم في الطّعام وربمّا شاركتهم في مضاجع النساء. وفي التّراث الإسلامي اتصالاً بهذا السياق واقعتان تستحقّان التوقّف، هما، قصّة «الغرانيق» وواقعة التّآمر على قتل النبيّ محمد قبل هجرته ليثرب.

يقول ابن سعد في الطبقات:

أخبرنا محمد بن عمر قال: حدّثني يونس بن محمد بن فضالة الظفريّ عن أبيه قال، وحدّثني كثير بن زيد عن المطلب بن عبد الله بن حنطب قال: رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه كفُ عنه فجلس خاليًا فتمنّى فقال: ليته لا ينزل على شيء ينفّرهم عنّي، وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه، فجلس يوماً مجلساً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة فقرأ عليهم:

(وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) *(النجم: 1)* **حتى إذا بلغ قوله:** (أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى (20)) *(النجم: 19-20)* **ألقى الشّيطان كلمتين على لسانه فقال: تلك الغرانيق العُلا، وإن شفاعتهنّ لترتجى، فتكلم رسول اللّه بهما، ثم مضى فقرأ السورة كلّها وسجد وسجد القوم جميعاً.. فلما أمسى أتاه جبريل عليه السلام** فعرض عليه السورة فقال رسول الله: قلتُ على الله ما لم يقل(1) .

ولغرابة هذه الواقعة فقد حاول المفسّرون تبريرها، فقال ابن عطية في تفسيره، ولو فُرض أن هذه الألفاظ قيلت فإنها لم ترد على لسان المصطفى صلى الله عليه وسلم، بل وردت على لسان [الشّيطان] فظنّ من ظنّ من المشركين أنّها سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم، وبذلك التبس عليه -

أي النبي - فسجد مع من سجد من المسلمين في نهاية تلاوة السورة ([2]) .

أما الواقعة الثانية فحدثت قُبيل خروج النّبي من مكّة للمدينة مهاجراً، وأوردها التّراث الإسلاميّ فيما لم يشكّك فيه أحدٌ من مراجعه.

يقول ابن سعد في الطبقات:

لمّا رأى المشركون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد حملوا الذراري والأطفال إلى الأوس والخزرج عرفوا أنّها دار منعة وقوم أهل وبأس، فخافوا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا في دار النّدوة ولم يتخلّف أحد من أهل الرأي والحجا منهم ليتشاوروا

في أمره، وحضر «إبليس» في صورة شيخ كبير من أهل نجد مشتمل الصماء في بت، فتذكروا أمر رسول الله فأشار كلّ رجل منهم برأي، كلّ ذلك يردّه إبليس عليهم ولا يرضاه لهم، إلى أن قال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاماً نهداً جليداً، ثم نعطيه سيفاً صارماً فيضربونه ضربة رجل واحد، فيتفرّق دمه في القبائل فلا يدري بنو عبد مناف بعد ذلك ما تصنع

قال النّجديّ - الشّيطان - لله درّ الفتى، هذا والله الرأي وإلّا فلا [1] .

وفي الواقعتين ـ الراسختين رسوخ يقين في عقلنا الجمعيّ ـ يظهر (الشّيطان) ناطقاً في الأولى بآيات

الغرانيق، وشاخصاً بين الجميع في الثانية على هيئة شيخ من نجد، فإذا كان هذا هو الأساس ما تشكّلت عليه الرّؤية لإنسان الحاضر، فكيف لا يصدّق النّاس أن جسد المريض يحمل بداخله «جنيّاً» ينبغي الخلاص منه وحتّى ولو بقتل المريض؟.

على أنّ فكرة «الشّاخص» و «المستور» الوافدة من فكرة التّناسخ الهنديّة، لم تقف عند تشخيص (الجن) واقترانهم بالنّاس، وإنّما تعدّت ذلك إلى أساس العقيدة في النصّ القرآنيّ الذي حُمِّل بفكرة الظّاهر والباطن بما فرّق بين سنّة وشيعة، بل بما أحدث الانقسام بين الشّيعة إلى طوائف نظرت كل منها إلى (باطن) النّص بعين تُغاير عين الأخرى، فانتشرت مدارس «تأويل النّص» بحثاً عن المستور في باطنه بما حمّل النّص ما لا يطيقه.

ولمّا كانت عمليّة «التّأويل» - أيّاً كانت أرضها - في عمليّة ذهنيّة، فقد كانت حين كان التّأويل تفسيراً مجرد عملية «استدلاليّة» جميع مفرداتها موصولة

بالواقع، غير أنها حين تحوّلت إلى عمليّة كشف عن الباطن أصبحت «تصوّرية»، يلعب «الخيال» الدّور الأساسي في إنتاج دلالتها.

ولأن عمليّة «التخيّل» القائمة عليها عملية «الكشف» موصولة «بموجّهات» ذهنية سابقة، و«ذاتيّة» فقد اتّجهت العمليّة «التأويليّة» في الفكر الإسلاميّ إلى ثلاثة اتّجاهات. فمَنْ كانت اتجاهاته الذهنيّة السابقة على وصل بفكرة «الإمامة» وأحقيّة «آل البيت» في الخلافة، أجرى عمليّة التأويل – وبين يديه موجّهاته الفكرية – فأوّل آية «مرج البحرين يلتقيان» على أنّ البحرين هما، عليّ وفاطمة، وأول آية «يخرج منهما اللّؤلؤ والمرجان» على أنّهما الحسن والحسين، وهو التّأويل الذي عارضه «الأشاعرة» - والسنّة - واعتبروه تأويلاً يهدف لغرض «ومن كانت اتّجاهاته الذهنيّة السّابقة على وصل بفكرة «التّصوّف» أجرى عمليّة «التّأويل» وبين يديه «مفاهيمه» عن صفات

«الّذات الإلهية» معتمداً على (إيحاءات) النّصّ له حين التّلاوة، ناظراً إلى تلك الإيحاءات على أنّها «معراجه» إلى «الّذات» الفاعلة في عمليّة التخيّل.

أما عند «الأشاعرة» فقد عانق «الفكر الأشعريّ» التّوجّه الصوفيّ، وامتزج به امتزاجاً تاماً، فالنصّ «القرآنّي» في هذا الفكر له «ظاهر» كلاميّ «وله باطن» غُنوصيّ - صوفيّ - فأصبح على مستويين هما: مستواه «الظّاهر» الّذي يخاطب به «العامّة» من النّاس، ومستواه «الباطن» الّذي اختصّ به «أولو العلم»، فتحوّل النصّ عن الغاية منه باعتباره وسيلة كشف وتعريف، إلى مجرّد كونه أداة للكشف عن المستور وراءه!.

ولأنّنا - من الأصل، لا نعدّ لدراسة في العقائد، أو في علوم اللّغة من نصّ وغير نصّ، فلن نبحر بما يتجاوز ما سبق. وما دعانا إليه سوى «حاجة المضطرّ» الّتي ولّدتها «فكرة التّناسخ»، وألحّ بها ارتباط تلك الفكرة بعمليّات «التّأويل» الّتي دارت

رحاها - فكراً واقتتالاً - بين أهل السنّة والشّيعة والمعتزلة، بل الّتي كانت أساساً في اجتثاث مئات الألوف من رؤوس البشر على مدار ثلاثة قرون المطلع للفكر الإسلاميّ.. وربّما، لا تزال!.

كذلك فلن نتجاوز ما سبق، لأن الّذي يعنينا من عمليّة «التأويل» تلك، لا يتصل بمدارسها، ولا بتناحراتها، بل ولا حتّى بما أسفرت عنه!، إذ نُعنى - فقط - من تلك العمليّة «بالسّبب» الّذي دعا لظهورها، واستفحال امرها، وهو الاستفحال الذي جيّش الجيوش، وقتل النّفوس، وخرّب القرى والمدائن.

ورغم أن التّعرض (للسّبب) الّذي تحوّلت به عملية «التأويل» إلى كارثة هو أمر يقتضي بحثاً مستقلاً، بل وشاقّاً، إلّا أنّه في الوقت نفسه «طيّع» لمن أراد الإشارة إليه دون دخول في تفاصيله.

فالنصّ - أيّ نصّ - بشريّاً كان أو «إلهيّاً» هو:

خطاب تمّ تثبيته بواسطة الكتابة ([1]) فإن كان هذا الخطاب «حُرّاً» قبل إفراغه في النصّ، فهو بمجرّد احتواء النصّ له حبيس النصّ الّذي احتواه.

وبما أنّ «النصّ» خطاب، فهو وليد «واقع» أنتجه، فإذا كانت طبيعة الواقع أنّه «متغيّر» وكانت طبيعة الخطاب أن النص قد حبسه وثبّته على واقع انتاجه، فإنّ «انفصاماً» يحدث بين معطيات الخطاب - الّتي أصبح واقع انتاجها من الماضي وبين الواقع الّذي «تحرّك» فأصبح «حاضراً» بمعطياته المستجدّة، الّتي تنظر إلى معطيات النصّ - الخطاب - المتوقّفة على نقطة ثبات، بأنّها «تاريخ»، وكانت مشكلة «عدم التّوافق» - الانفصام - بين النصّ «الثّابت بخطابه» وبين «الواقع» المتحرّك بمستجدّاته، غير ذي أثر في حياة «النبيّ» وحال استمرار «الوحي»، إذ تكفّل «الوحي» عن طريق «النّسخ» - بتطويع النصّ ليلائم الواقع، كما تكفّلت «السنّة» بهذا التّطويع فيما لم يتم نسخه.

فلمّا انقطع «الوحي» بوفاة (النّبي) فبات لا «نسخ» ولا أحاديث، بات النصّ باحتباسه على نقطة التّنزيل - وقد أصبحت من الماضي!.. على تعارض مع ما عليه نقطة ارتكاز الطّرح على السّاحة المستجدّة بما دعا (لتأويل) النصّ بإنتاج دلالة جديدة له، وقد بدأ هذا التّأويل حوادث فرادى دعت إليها أسبابها، كتأويل عمر بن الخطاب للآية الّتي تنصّ على أنّ للمؤلّفة قلوبهم حقاً - مفروضاً - في الصّدقات، إذ حجب عنهم هذا الحقّ وقال: كان ذلك حين كان الإسلام على ضعف، فلما تعدّدت أسباب التّعارض، وباتت خطراً يواجه «النّص» دار الفكر بعجلة «التأويل» ليصنع منها (فكرة) مهمّتها تخليق مفاهيم جديدة للنصّ، فإن كان النصّ قد «ثبت» على نقطة نزوله، فالمفاهيم متغيّرة، كما أنّ أحداً لن يلحظ أن تلك «المفاهيم» ليست هي النصّ وليست وليدة دلالته.

وما يجري الآن - على ساحة الحاضر، هو إنتاج

«لمعامل» التّأويل الّتي تعدّدت طروحاتها، فظهر «التفسير العصريّ» و«التفسير العلميّ» و«الإعجاز العدديّ» وكلّها مستجدّات تأويل أقيم بناؤها على معطيات الحاضر من فكر، وعلم، وتقنية بل ونفس إنتاج المعرفة على ساحة المعاصرة.

نماذج كهانيّة

تنتقل (موضة) الأزياء - عبر الحدود - إلى الدّاخل فيتلقّاها البعض من القادرين، لتنتقل منهم إلى فئات أخرى - أقلّ درجة، فتقوم تلك الفئات بنقلها إلى الفئات الأخرى، ويوماً بعد يوم، تعمّ تلك (المُوضة) فيصبح انتشارها (ظاهرة).

ومثل (موضة الازياء) تأتي إطالة اللّحى، وتقصير الجلباب وخمار المرأة! ممّا أتى به القادمون من بلاد «النّفط»، فلمّا انتشر ذلك، أصبحت (ظاهرة).

وقد ترُوج تجارة «سلعة ما» فيتلفّ النّاس حول بائعها، فلا تكاد تمضي أيّام إلّا وقد جاور هذا البائع بائع آخر، ثم آخر، فتنتشر محلّات بيع تلك السلعة وتعمّ. فيصبح هذا الانتشار (ظاهرة).

لكنّي لا أعتقد أنّك قد سمعت عن (ظاهرة) تُسمّى (ظاهرة انتشار النبوّة!) أو (إرسال الرّسل!)، أو (تدفّق الوَحْي الإلهي) الّتي سادت الجزيرة العربيّة على خلفيّة الانتصارات الّتي حقّقها الجيش الإسلامي في حياة النّبي (محمد)، وهي الظّاهرة الّتي بدأت في أخريات حياته، واستمرّت بعد وفاته إلى أن قضت عليها سُيوف المسلمين واجتثّت جذورها.

فعلى أرض اليمن ظهر (عبْهلة ذُو الخمار) وشهرته الأسود، فادّعى النبوّة وتلقّى الوحي من السّماء فأجابته قبيلة «مُذحج» وآمنت برسالته، فلمّا بايعته على المنعة والنّصرة! انطلق بها وبأتباعه الآخرين إلى «نجران» فأخرجوا منها عاملها من قِبَل المسلمين واسمه عمرو بن حزم، كذلك أخرجوا

سعيد بن العاص فلحقا بالمدينة.

ثم توجّه «الأسود» في «سبعمائة» من أنصاره إلى «صنعاء» ففتحها وقتل حاكمها (شهر بن ماذن) واستبى امرأته وتزوّجها. وقد واصل مسيرته إلى «حضر موت» فاستولى عليها، لينعطف بعدها إلى الطّائف - قريباً من «مكّة» ثمّ إلى البحرين، وفي كلّ منها ينشر رسالته، فلا يغادر إلّا وقد ترك النّاس على دينه، بما اهتزّت به أرض «المدينة» تحت أقدام المسلمين!.

فلمّا بلغ خبر ذلك إلى «النبي»، أرسل إلى أبي موسى ومعاذ والظاهر - وهم من عيون المسلمين في قبيلة الأسود، وعلى أرضه - أن يقوموا بقتال الأسود وقتله - إما مصادمة، وإما غيله - فتدبّر هؤلاء الأمر مع زوجة الأسود الّتي تزوّجها بعد أن قتل زوجها «شهر بن ماذن» فهيأت لهم الطّريق إلى مرقدة «ليلاً» فقتلوه (1) .

فإن انحنينا إلى «سُميراء» من بلاد بني أسد - شرقيّ نجد، وسألنا: أهَاهُنا كان (طُليحة بن خويلد الأسديّ!) كانت الإجابة: نعم، فإن استزدنا: فماذا كان من شأنه؟، أُجيب:

كان طُليحة بن خويلد الأسديّ كاهناً، عاصرت حياته حياة النبيّ محمد، فخرج على النّاس بأنّه (نبيّ!) أرسله الله إليهم، مقدّماً بين يديه ما يقول بأنّه «وحي» من الله إليه!، فالتفّ حوله النّاس وتبعوه - فلمّا بلغ خبره «رسول الله» بعث إليه ابن الأزور الأسديّ على رأس جماعة لقتله!، فلمّا همّ ابن الأزور ومن معه بمناجزة «خويْلد»، جاءت الأخبار بوفاة «النبيّ» فاستطار أمر طليحه واجتمعت إليه غطفان وهوازن وطيّ بما أحبط ابن الأزور في مهمّته ودعاه للعودة إلى «المدينة» ليخبر بما صار عليه «طليحة» من بأس ومنعة، فسيّر «أبو بكر» خالد بن الوليد على رأس جيش لقتاله، وكان من هذا الجيش «عدي بن حاتم

الطّائيّ»، فاستأذن خالد في أن لا يتعجّل حتّى يدعو قومه «بنيّ طيّ» إلى الرّجوع عن [دين] طُليحة، فلما دعاهم (أجابوه!) وانفضّوا عن طُليحة منضميّن إلى جيش خالد بن الوليد، وقد التقى الجمعان ـ خالد بجيشه وطليحة بأتباعه في معركة تساقطت فيها الرؤوس وكلّ يدّعي أنّه على حقّ وأنّ الآخر باطل! فلمّا رأى طُليحة أنّ دائرة المعركة تدور عليه، هرب هو وزوجته على فرسين كان «قد أعدّهما» لذلك ولحق بالشّام فأقام بها إلى أن سمع بإسلام «بني سعد» و «غطفان» وكان قد استشعر اختراق المسلمين لحدود الشّام. فأعلن إسلامه (1) .

وعلى الجانب الآخر من الجزيرة كانت (اليمامة)، وكانت وفود القبائل تتدفّق على المدينة «تبايع» وتطلب السّلامة!، وكان من بين تلك الوفود وفد «بني حنيفة».

وكان وفد بني حنيفة تحت إمرة «مُسيْلمة بن

ثمامة بن عدي»، وكان قد أعلن في قومه أنّ (الله!) اصطفاه نبياً، وأنّه (يُنزّل) عليه قرآناً موحى به إليه، وأنّه - ومن ورائه قومه - لن يتبع محمّداً إلّا إذا أشركه معه في الأمر، أو جعله له من بعده!. فلمّا أقبل على النبي ومعه ثابت بن قيس، طلب منه مسيلمة أن يقتسم الأرض معه قائلاً: لقريش نصف الأرض ولنا نصفها ([1]) وكانت بيد «النبيّ» قطعة جريد أمدّها في وجه مسيلمة وقال له: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتك، ولن أتعدّى أمر الله فيك، وإن أدبرت ليعقرنّك الله، وإنّي لأراك الّذي أُريت فيك ما أُريت.. وهذا ثابت يجيبك عنّي، ثم انصرف.

فلما رجع مسيلمة ومن معه إلى «اليمامة» أعلن بأنّه أُشرك مع محمّد في (الأمر!) فآمن به قومه وبايعوه وصلّوا بقرآنه.

وقد أشتدّ عود مُسيلمة فأغراه التفاف النّاس حوله أن يحيل المواجهة بالقول إلى اقتتال وحرب، فكتب

كتاباً أرسله إلى «النبيّ» في المدينة قال له فيه: من مُسيْلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك.. فإنّي قد أُشركت في الأمر معك، وإنّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكنّ قريش قوم لا يعدلون (2) .

يقول ابن هشام:

حدّثنا ابن حميد، قال حدّثنا سلمة، عن ابن اسحاق.. إلى أن انتهى إلى سلمة بن نعيم بن مسعود عن أبيه نعيم قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول للّرسولين اللذين قدما بكتاب مسيلمة: فما تقولان أنتما؟. قالا: نقول كما قال!، فقال: أما والله لولا أنّ الّرسل لا

تقتل لضربت أعناقكما، ثم كتب إلى مسيلمة: بسم الله الرّحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذّاب.. سلام على من اتّبع الهُدى، أما بعد، فإنّ الأرض لله يُورثها من يشاء والعاقبة للمتّقين ([1]) **.**

وقد ظلّ مُسيلمة يدعو النّاس لدينه، ويقرأ عليهم «قرآنه» إلى أن توفّي النبيّ وخلَفَه أبو بكر، فعقد لواءً لعكرمة ابن أبي جهل وسيّره لقتال مسيلمة وقتله فلم يفلح وانهزم بجيشه فعاد إلى المدينة، فبعث أبو بكر لخالد بن الوليد ان أقتل مسيلمة، وأمدّه بجيش كبير من المهاجرين والأنصار لملاقاة (أربعين ألفاً) يحملون سيوف مسيلمة ويقرأون قرآنه.. وقد كاد جيش خالد أن يلقى الهزيمة الّتي لقيها عكرمة لولا أن دُبّرت حيلة تمّ بها النفاذ إلى مسيلمة في حصنه، وقتله.

لقد تجاوزنا عن التّفاصيل فيما سبق لأنّنا لا نُعْنى بالتّاريخ - مقصوداً به الأحداث ، وإنّما بما وراء أيّ من الأحداث موصول بما نسعى إليه، ومن ثمّ، فقد قُتل مُسيلمة وأُحْرِق «قُرآنه».. فلِمَن تعنيه التّفاصيل أن يرجع إلى كتب التّاريخ وهي كثيرة!.

غير أنّنا في حلّ من ترك مُسيلمة آمناً في قبره، إذ ما زالت لنا معه إطلالة نطلّ بها عليه في رحاب (رسولة الله!) الرابعة!.

اسمها (سجاح) بنت الحارث بن سويد بن عقفان - من بني تغلب.. ادّعت (النبوّة) في عهد أبي بكر فتبعها بنو تغلب، واستجاب لها الهذيل، ووادعها مالك بن نويرة، فلمّا اجتمع لها ذلك أرسلت إلى بني مالك تطلب الموادعة فأجابها (وكيع)، ليصبح تحت إمرتها، بنو مالك بوكيع، وبنو تميم بمالك بن نويرة، وبنو تغلب قومها وكان (النبيّ) قد مات وخلفه أبو بكر، وكانت أنباء ارتداد قبائل العرب عن الاسلام ترد المدينة تباعاً، وأبو بكر يُعدّ الجيش لقتال

المرتدّين، فلمّا غادر هذا الجيش المدينة باتت عارية عمّن يحميها.

وفي الوقت نفسه، كانت دعوة مُسيلمة في «اليمامة» قد اشتدّ عودها، فبدت معالم القوة الّتي كانت عليها «المدينة» تنزاح عنها، بما أغرى بها أصحاب (الوَحْي!) الآخرين ومنهم «سجاح».

استشارت «سجاح» حُلفاءها من تغلب وتميم ويربوع في تزعّمها لكلّ العرب بدينها الجديد، وهي تسألهم: بم نبتدئ، بخضَمّ.. أمْ بالرّباب؟ فلمّا انعقدت المشورة بدأ الزحف.

ولأنا لا نسعى لكتاب في التّاريخ، ولا نعمل من أجله، فلن نتابع «سجاح» في اندفاعاتها - حاملة لواء الدّين (المُنزّل) عليها، إذ لا يعنينا من تلك الاندفاعات سوى اندفاعتها تجاه (اليَمامة) لِمَا أسفرت عنه تلك الاندفاعة من مفارقات وطرائف!.

فمما سبق نعلم أنّ (اليمامة) هي معقل

«مُسيْلمة»، وبها بَنُو حنيفة أتباع دينه الجديد، وفي المقابل فسجاح ليست خالية الوفاض، فلديها «مَلِكُها» الّذي يتنزّل بالوحي عليها، وبين يديها «قرآنها» الّذي تتلوه على النّاس. فلمّا استشارت قومها عن (اليمامة)، أشاروها بأنّ شوكة اليمامة شديدة، وأنّ مُسيْلمة غَلظ أمره، فأطرقت، ثم غَفَت وهي تتفصّد.. ثم انتبهت تردّد: عليكم باليمامة، ودفّوا دفيف الحمامة، فإنّها غزوة صرامة، لا يلحقتّكم بعدها ملامة!.. هذا بالطبع ليس سجعاً من عندنا، وإنّما هو من «قرآن» سجاح الّذي علم بأمرها مُسيلمة فهابها، وأرسل إليها يستأمنها على نفسه حتى يأتيها فأذنت له، وآمنته، فجاءها وافداً في أربعين من بني حنيفة!.

مَثُل «مسيلمة» في رحاب «سجاح» فبادر بتقديم قُربان المقابلة قائلاً لها: لنا نصف الأرض وكان لقريش نصفها لوْ عدلَت، وقد ردّ الله عليك النّصف الّذي ردّت قريش، فحباك به. فقالت: لا يَردّ النّصف

إلّا من حتف، فاحمل النّصف تراها كالسّهف. فقال «مسيلمة»: سمع الله لمن سمع، وأطعمه الخير إذا طمع، رآكم ربكم فحيّاكم، ومن وحشة خلّاكم، ويوم دينه أنجاكم.

يقول الطبري ([1]) :

فلما نزلت سجاح بمسيلمة، أغلق الحصن دونها، فقالت له سجاح انزل، قال: فنحّي عنك أصحابك ففعلت قال مُسيلمة: اضربوا لها قبّة، وجمّروها لعلها تذكر (الباه!) ففعلوا، فلما دخلت القبة نزل مُسيلمة فقال: ليقف هَاهُنا عشرة، وهَاهُنا عشرة ثم دارسها فقال: ما أوحِيَ إليك؟، قالت: هل تكون النّساء يبتدئن!،

ولكن قل أنت ما أوحى إليك، قال ألمْ تَرَ إلى ربّك كيف فعل بالحُبلَى، أخرج منها نِسمةً تسعى، من بين صِفاقٍ وحَشَى. قالت: وماذا أيضاً، قال: أوحِىَ إليّ أنّ الله خلق النّساء أفراجاً!، وجعل الرّجال لهنّ أزواجاً، فينتجن لنا سِجالاً إنتاجاً. فقالت: أشهد أنّك نبيّ. قال: هل لك أنّ أتزوّجك فآكل بقومي قومك العرب؟، فقالت نعم، قال:

ألا قومي إلى [......] فقد هُيّى لك المضْجع

وإن شِئت ففـي البيت وإن شِئت ففي المخدع

وإن شـئت سَلقناك وإن شئت على أربع

وإن شئـت بثُلْثَيْه وإن شِئت به أَجْمع!

فقالت: بل أجمع!، قال: بذلك أوحىَ إليّ. فأقامت

عنده ثلاثاً ثم انصرفت إلى قومها. فقالوا: ما عندك؟، قال: كان علي الحقّ فاتّبعته وقد تزوّجني. قالوا فهل أصْدقكِ؟ قالت: لا، قالوا ارجعي إليه، فقبيح بمَلكِ أن يرجع بغير صداق، قالت فاسألوه، فلمّا سألوه عن صداقها قال: وضَعتُ عنكم صلاة العصر!. فبنو تميم الآن بالرّمل لا يصلّونها.

ترى.. ألا يُساورك السّؤال نفسه الّذي يُساورني فتسأل: وماذا لو أنّ مُسيلمة لم يُقتل!؟.

(1) قانون «كارما» في الفكر الهندوسي، مثل قانون «القدر» عند اليونان، فوق الآلهة والبشر معاً، لأن الآلهة لا تستطيع تغييره. [انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود. مج 2 ص 215].

(2) يعتقد «الهندوسي» بوجود سبع سماوات، إحداها على الأرض، وبقيتها ترتفع على درجات، وفي عقيدتهم (سبعة) أقسام من الجحيم [المرجع السابق ص 216].

(1) يعتقد «الهندوسي» بوجود سبع سماوات، إحداها على الأرض، وبقيتها ترتفع على درجات، وفي عقيدتهم (سبعة) أقسام من الجحيم [المرجع السابق ص 217].

(1) محمد بن سعد، الطّبقات الكبرى، تحقيق د/ حمزة النشرتي ص 286، 287. وانظر: التاريخ للطبريّ، ج/2 ص 338.

(2) راجع في ذلك: القرطبي، ج 12 ص 81 سورة النجم.
(1) طبقات ابن سعد - سبقت الاشارة اليه ص 318.
(1) انظر: صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة (164) ص 237.
(1) انظر: محمد الحضري، إتما الوفاء في سيرة الخلفاء، دار الوفاء للنّشر ص 37.
(1) انظر: محمد الحضري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، دار الوفاء للنّشر ص 28.
(1) انظر: محمد الحضري، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء، دار الوفاء للنّشر، ص 34.
(2) المرجع السابق.. ص 31.
(1) سيرة بن هشام، ج/2 ص 350.
(1) انظر.. تاريخ الطبري، ج /3 ص 373.

الفصل السادس

جذور الفكرة

مدخل

الحياة هي الجحيم!، وجسدك هو «الغُلّ»، الّذي يقيّدك به، ولكي لا تدرك «مأساتك»، فتفكّر في الفرار من جحيمك - بالانتحار مثلاً - فقد زُيّن - بضمّ الّزين وتشديد الياء - لك حُب الشّهوات، من النّساء والبنين والقناطير المقنطرة من الجُنيهات والرّيالات والدّولارات، وتعدّدت وسائل (مُتعك!) سراً، وعلانية.. ليظلّ الجحيم قابضًا على عنقك، إلى أن تسقط، وتعتريك السّكرات، فتبدأ في إدراك الحقيقة، ولحظتها فقط، تُدرك أنّ ما كنت فيه هو الغرور!.

وحتّى لا تُرهق نفسك ـ زيادة عما أنت فيه! ـ في البحث عن وسيلة خلاص من «دُنياك» الشّريرة، وجسدك «الشّيطان»، الّذي قيدك في جحيمك بحبه للشّهوات، فقد هيّأ لك «الفكر الكهنوتيّ» ـ بعد تحديثه وعَصْرنتِه ما يتكفّل «بإراحة الدّنيا منك»، والّذي عليك فقط هو اختيار (خنجر) الخلاص، الّذي به تُبصر، بعد أن تموت!.

فإن أصابك الرّعب، أو ، كانت أحاسيسك على شاكلتي، قد انصرفَت عنها المشاعر من فرح وألم وحزن واستطعام حياة، فلك أن تنعم بالبشري! ـ فما الرّعب وتبلّد الأحاسيس وتسطّح المذاقات، سوى مقدّمات للخلاص!.. أفهل يسُؤوك أن تتذوق الخلاص ولو.. على حدّ السكّين، تحت مقصلة!.

في أيّام الطّفولة كنتُ أسأل نفسي، لماذا لا تُوجد «العفاريت!» إلّا في بيوتنا؟ ألا يستطيع العفريت.. وهو «عفريت!»، أن يمسك بجناح طائرة، فيعبر إلى أولئك «الأمريكان» الّذين يبعثون إلينا الهدايا،

صواريخ عابرة، وقنابل باحثة عن الأهداف!.

لكنّي الآن تجاوزت هذا السّؤال «الغبيّ» فبت أسأل سُؤالاً «ذكيّاً»، فكّرتُ في إضافته إلى قائمة الألغاز العالميّة! فخذ السّؤال (الذكيّ) ولا تضحك، بل، ردّد معي: ما الّذي جعلنا نُحبّ (الموت!).. ونكره «الحياة»؟. أنكون قد سبقنا البشريّة فاكتشفنا أنّ «الموت» مُمتع! فتكالبنا عليه؟، فإن لم يكن قد حان موعده، فإلى أن يحين، تُشحذ الهمم في الاستعداد له، تصوّفاً، وزهداً، وانسلاخاً من الحياة!، سكارى.. وما نحن بسكارى!.

أحد (علماء) الطبّ النّفسي- في البلاد الّتي ليست بها عفاريت! - فكّر ذات يوم في الأسباب الّتي تجعل الطّفل يخاف من الظّلام، ثم تطرّق به التّفكير إلى الأسباب الّتي تجعل الإنسان ينتفض إذا وقع بصره على (حَبل) في شكل ثعبان، إذْ تَحدث «الفزعة» قبل عمليّة الإدراك!.

فلمّا أفصح «مُخّ» الإنسان عن أسراره، اكتشف هذا الطبيب أنّ (المخّ) الإنسانيّ ما زال ينطوي على (المخّ القديم) - البدائي، الّذي عشنا به سنين الوجود في «الغابة»، حين كانت الحاجة ماسّة إلى «جهاز استشعار عن بُعد» يستطيع «استشعار الخطر» قبل مرحلة إدراكه، كأن يحسّ (النّائم) بوجود أفعى- قريبة منه -فيهبّ من نومه!.. وأنّ هذا «المخّ» لا يزال إلى وقتنا الحاضر (يعبر بأحاسيسنا) فهو الّذي يُطلق (الخوف الغريزيّ)، والرّغبة في العدوان، وفى دفع العدوان.. وربّما كان هو الأساس في (تسريب) الرّغبة في الخلاص من الحياة، تخلّصاً - (قديماً) - من ألم الاحتضار بين فكّي حيوان مفترس!.

فإذا كان هذا النّظر صحيحاً - وهو صحيح!- فإن حبّ الموت لدينا هو (مكنونٌ غريزيّ!) ورثناه عبر ألوف السّنين من أجدادنا القدامى، حتّى قبل عصر (الكتابة)، وبداية تسجيل التّاريخ.

وربما كانت بذُور هذا «الحبّ!» هي ما وراء

التّفكير المصريّ القديم، الّذي أسفر عن (حضارة الموت!) لدى الفراعنة.

لكنّ الغريب في الأمر، هو أنّ تلك (الغريزة) - حُبّ الموت، كانت سائدة في بقاع كثيرة من الأرض آنذاك، إذ كانت هي الأساس في الفكر «البُوذيّ» و «الزرادشتّي»، و «المسيحيّ»، بل وحتى «الإسلاميّ» الّذي نظر إلى الحياة على أنّها (غَفلة!)،: النّاس نيام... فإذا ما مَاتوا استيقظوا!، ولأنّ «الكهانة» هي فكرة، فكان من اللّازم لتلك الفكرة أن تُعايش «العصر» الّتي تعمل على أرضه، بحيث لا تتعارض مع التّفكير السائد على تلك الأرض، فإن اقتضى هذا التّعايش تحويراً في الفكرة، أو تطويراً لها، أو حتّى «تأويلاً» جديداً لإنتاج دلالات جديدة، كان على فكرة «الكهانة» أن ترتضيه، وأن تتأقلم معه.

ولما كانت «فكرة الكهانة» قائمة - من أساسها - على «فكرة الموت» - تعريفاً به وبما بعده من عالم

«الغيْب»، وكانت «فكرة الموت» تلك قد تناولتها الفلسفات العديدة - شرقاً وغرباً - وكان التّناول الفلسفيّ لتلك الفكرة قد نحا منحنى جديداً أحدث تغايراً مع التناول الكهنوتيّ للفكرة ذاتها فقد بدأ الفكرة الكهنوتي في التّأقلم مع الطّرح الفلسفيّ، فأنتج هذا التأقلم طرحاً «كهنوتيّاً» جديداً توارت وراءه (أصُول) فكرة الكهانة نفسها، بل وانزاحت به (النّصوص) المعبّرة عن تلك الأصول عن مكانها «الدّلالي»، لتستقر على مكان دلاليّ جديد، تَدثّرت فيه الكهانة برداء «الفلسفة».

وكانت البدايات على أرض (الهند) حين ظهرت فكرة الحياة المتعدّدة فيما يعرف «بالتّناسخ»، تلك الفكرة التي عاصرتها فكرة «التوحّد» مع (الرّوح الأسمى)، وظهور فكرة «النّرفانا» الّتي عارضت الفكرتين معاً، وكانت الأساس في تعاليم المدرسة «البوذية».

الديانة الهندية القديمة هي الأمّ لديانات الشّرق

أيّهما أعمق فكراً، أو إن شئت قُلت: أيّهما أشدّ ضلالاً، إنسان نظر إلى حياته فرآها حدثاً عابراً في الوجود، لا شأن لها، ولا غاية منها، ففكّر أن يربطها بغاية تعُطيها الجدوى!، فتصوّر (إلهاً) صنعه بخياله، فلمّا استقام له، أعطاه الاسم والكيان، ثم خرّ له ساجداً يعبده، مثلما فعل الإنسان المصريّ القديم مع آلهته المتعدّدة.. «رع» و «آمون» و «نوت» و «إيزيس» وغيرها!.

أم إنسان نظر النّظرة نفسها إلى الحياة فرأى الجدوى منها محصورة في «أن يحياها»، إذ لا شيء وراءها يمكن التّطلّع إليه، أو التّعلق به، فانطلق يأكل ويشرب ويتناسل، فإن قيل له: كُفّ.. هناك من يرقبك من «وراء ما ترى»، سخر من القول قبل أن يسخر من القائل، مثلما كان الناس في سفر «ساندوجيتا» الهندي:

ليس للجنّة وجود... وليس هناك خلاص أخير

فلا روح ولا آخرة، ولا طقوس للطبقات...

إنّ «فيدا» ذات الوجوه الثلاثة

وهذه التّربة بكلّ ما فيها من تراب ورماد

كلّ هذه وسائل عيش لقوم

خَلوا من الذّكاء، والرّجولة...

كيف يمكن لهذا الجسد إذا ما أصبح تُراباً...

أن يعود إلى الظّهور إلى الأرض

إنّ هذه الطّقوس الغالية.. الّتي تقام لمن يموتون

ليست الّا وسائل عيش دبّرها

دهاء «الكهنة» لا أكثر من ذلك

فما دمت حيّاً، أنفق حياتك مطمئنّ البال.

كانت أقدم آلهة ذكرتها أسفار الفيدا هي قوى الطّبيعة وعناصرها: السّماء والشّمس والأرض والنّار، والرّيح، والماء، والجنس، فكان «ديُوس» - وهو زيُوس عند اليونان، وجوبتر عند الرّومان - هو السّماء نفسها، ثم جعلوا السّماء (أباً) وأسموها «فارونا» وجعلوا الأرض (أمّاً) ([1]) وأطلقوا عليها اسم «بريثيفي»، ثم جعلوا النّار «إلهاً»، والرّيح «إلهاً» ([2]) وإلى جانب ذلك كان يوجد الزّنادقة الّذين زعزعوا سلطة «البراهمة» على العقل الهنديّ بما دوّنوه من أسفار (الإلحاد!) الّتي منها شطر القصيدة الّذي سلف.

ولمّا كانت عقيدة «التّناسخ» أو تعدّد الحيوات

شائعة، وعميقة الجذور، فقد كان المؤمن بها في شوق إلى الخلاص من تلك الدّورات التناسخيّة الفادحة، وفي الوقت نفسه لم تكن بيده الوسيلة إلى ذلك، فلجأ إلى «المستنيرين» يسألهم عن طريقة «الخلاص» الّتي لخصها «باجنا فالكيا» لملك «الفيديها» في عبارات شديدة الإيجاز، بالغة الدّلالة:

إذا اقتلع الإنسان بالتَزهّد كلّ شهوات نفسه، لم يعد هذا الإنسان فرداً جزئيّاً قائماً بذاته، وأمكنه أن يتّحد في نعيم أسمى مع روح العالم، وبهذا الاتّحاد يخلص من العودة إلى الولادة من جديد (1) .

فإن تأمّلت (نصّ) تلك الفقرة ـ ربّما من الأفضل إعادة قراءته ـ وجدته قد أوجز التّعريف بوسيلة الخلاص في عبارة «اقتلاع الشّهوات بالتزّهد» ثم أفاض في تعديد النتائج [لم يعد هذا الإنسان فرداً جزئيّاً قائماً بذاته + وأمكنه أن يتّحد في نعيم أسمى مع (روح العالم) + وبهذا الاتّحاد يخلص من العودة

إلى الولادة من جديد.

هناك «هاجس» لدى فيلسوف «الفيدا» (2) كشفت عنه عبارات النّصيحة، فوراء عبارة: لم يعد الإنسان فرداً جزئيّاً قائماً بذاته، تقف رؤيته عن (اتّحاد) جزء بغيره. ووراء عبارة: وأمكنه أن يتّحد في نعيم أسمى مع روح العالم، تقف رؤيته لروح مستقلّة و[كلية] هي روح العالم. والعبارة الأخيرة وراءها إمكانية (اتّحاد) روح الإنسان بتلك الرّوح [الكلّ] لاكتساب طبيعة تُغاير الطّبيعة الّتي كانت السّبب في الولادة الجديدة بأهوالها.

ولأنّنا «ننقبّ» عن الجسور الّتي عبرتها الدّيانة الهندية القديمة إلى ديانات الشرق في بابل وسومر وفلسطين وجزيرة العرب، فإن أُولى خطوات التّنقيب ينبغي أن تنصبّ على تحديد ما تمّ انتقاله من فكر هذه الدّيانة إلى الدّيانات الأخرى.

أولاً: فكرة (الإله - الوا حد المطلق) هي فكرة هنديّة قديمة

تصور فلاسفة «الفيدانتا» «الواقع المطلق» وأطلقوا عليه اسم (بَراهمان) وجعلوه في صورة مجرّدة اختلفوا حول ما إذا كانت ثُنائيّة أم لا ثنائيّة، لكنّهم جميعاً كانوا على اتّفاق بأنّ (البراهْمان) ليس بالإمكان تعريفه، كذلك فلا سبيل إلى إدراكه بلغة تصوريّة مجرّدة (1) .

وقد تعدّدت مدارس تلك الفلسفة وتعدّدت تفسيراتها للعلاقة بين الأشخاص والأشياء والواقع المطلق - البراهمان - فأسفر هذا التعدّد عن ظهور ثلاث صور لهذا (البَراهمان).

ولأنّه من المتعذر التّعريف بأيّ من تلك الصّور دون التّعريف مُسبقاً بفكرة بناء الصّورة ذاتها، فإنّنا مرغمون على التفاتة إلى الوراء لـ مساك بمفردات

بناء (التّصور) - لهذا المُطلق - لدى الفلسفة الهنديّة القديمة. فمن البداية، يعيش الإنسان في «عالم» يتكوّن من مفردات [شمس وقمر وإنسان وماء وسحاب.. إلخ] فإذا ما أدرك الإنسان تلك المفردات أمكنه بتجميعها تكوين صورة كليّة لما يطلق عليه اسم «الكون» الماديّ.

لكنّ أيّاً منّا لا يعرف إذا ما كان إدراكه لتلك الأشياء - المفردات - هو إدراك (حقيقي)، أم أنّه إدراك (مزيّف).. ولتقريب الصّورة، نضع الأمثلة التّالية:-

هب أنّك رأيت (حَبْلاً) في ظُلمة اللّيل فظننته ثُعباناً وفررت منه.. وفي الصّباح عندما عدت إلى مكان (الحَبْل) اكتشفت أنّه «حبْل» ولم يكن «ثعباناً» كما ظننت، ثم سألت نفسك، أكان تصوّري لِما ظننت أنّه ثعبان تصوّراً حقيقياً؟، والإجابة بالقطع ستكون لا، لقد كان إدراكاً (مزيّفاً)، شارك في تزييفه عدم وضوح الصّورة ليلاً، وعدم الانتباه وإمعان النّظر

الّذي تخلّف عن حالة الذّعر لحظة المشاهدة!.

فإن عُدت إلى أيام «المدرسة» وتذكّرت تجربة «انكسار الضّوء» في درس الفيزياء، عندما تُوضع (عَصًا) في إناء زجاجيّ به ماء، وتنظر إليها فتراها (مكسورة) عند سطح الماء، أفلا كنت تظنّ - قبل شرح التّجربة - أنّها مكسورة حقاً، فإن جئت بإنسان آخر مكانك، لا يعرف نظريّة انكسار الضّوء، ولن تُعرّفه بها، وجعلته يَرى العصَا في الإناء ثمّ سألته عنها فستكون إجابته، أنّها مكسورة، ولو أن هذا الإنسان انصرف بعد أن أريته «العصا في الإناء» ، وبعد أن قال لك «إنّها مكسورة» ثم غاب عنك زمناً ورأيته مرّة ثانية فذكّرته بتلك العصا، ثم سألته عنها فستكون إجابته، لقد كانت (مكسورة)، وهي الإجابة الأولى نفسها لم تتغيّر رغم أنها (مزيّفة).

فإن كنت قد (نِمتَ) فرأيت نفسك في «الحُلم» تسبح في بَحْر، ثم استيقظت فتذكّرت «الحُلم»، فما الّذي ستتذكّره؟، من المؤكّد أنّك ستتذكّر «الحلُم» في

صورة [بحر، وماء، وشاطئ] وكلّها مفردات (واقع)، فإن سألت نفسك عن تلك المفردات، أهي (حقيقيّة؟)، كانت الإجابة بالقطع (لا).

لأنها مفردات واقع مصنوع بآليّات (التخيّل) حال النوم، فهي مفردات واقع (مزيّف).

فإن عدنا بتلك الأمثلة لنمسك منها بالواقع المزيّف في كلّ منها لنفصل بين حالة إدراكه (كحقيقة) وبين حالة إدراكه (كَوهْم)، اتّضح لنا أنّ حالة الإدراك (الوهميّة / المزيّفة) هي حالة سابقة على حالة الإدراك (الحقيقيّة)، كذلك، فحالة الإدراك الحقيقيّة لا يعطيها مجرّد«الرّؤية» - إذ إنّ الرّؤية حال الإدراك الوهميّ [الحبل / الثعبان] هي الرّؤية حال الإدراك الحقيقيّ [الحبل/ ليس ثعباناً]، وبذلك فحالة الإدراك (الحقيقيّ) وراءها (شيء!) خارج عن نطاق الرّؤية، وخارج عن نطاق «المرئيّ» وخارج عن نطاق الرائي نفسه.

ففي مثال (الحبل/ الثّعبان)، فالّذي أوصل الرّائي إلى أنّ «المنظور إليه» هو حَبْل وَليس ثعباناً، أنّ الحبل لم يكن يتحرّك، كذلك فلم تكن له (سِمَة) الثّعبان، وإنما له(سِمَة) الحبل!.

فكون «الحبل لا يتحرّك» غير كاف للتقرير بأنه غير ثعبان، إذ قفد يكون الثّعبان ميتاً ولا يتحرك، لكن لو اضيف إلى «عدم الحركة» تغاير (السِّمَة) تولّد الإدراك الحقيقيّ.

فما الّذي أوصل إلى إدراك أنّ الحبل لا يتحرّك، وما الّذي أوصل إلى أنّ (سِمَة) الحَبْل مُغايرة «لسِمَة» الثّعبان؟ والحَبْل هو الحَبْل في النّظرتين، والنّاظر هو النّاظر في النّظرتين؟، الّذي أوصْل إلى ذلك هو [إضافة ضَوء النهار] إلى عملّية الرّؤية، فالإدراك أصبح حقيقياً لأنّه استند إلى شيء آخر لم يكن له وجود حال الإدراك المزيّف.

فإن تخطينا مثال (العَصَا) المكسورة، إذ هي

بديهية معروفة، وأمسكنا بمثال (الحُلْم)، وكنّا من قبل نعرف أنّ مفردات الحُلم [البحر والماء والشاطئ] هي مفردات غير حقيقية، ثم سألنا، متى استبان أنّ تلك المفردات غير حقيقيّة؟ لكانت الإجابة، استبان ذلك [بعد أن صحا] النّائم وعرف أنّه كان في حالة حُلم!، فإن عدنا نسأل، أفهل كان بإمكان هذا النّائم أن يعرف «وهو نائم» أنّ مفردات حلمه «غير حقيقيّة؟» كانت الإجابة، (لا)، لأنّه كان نائماً.

الّذي قلب الإدراك هُنا من إدراك (مزيّف) إلى إدراك (حقيقيّ) هي حالة (الصّحْو من النّوم) وهي حالة خارجة وعن عمليّة الإدراك وليست منها.

فإن عدنا بتلك الأمثلة إلى [الكون / العالم] لنتعرّف على الكيفيّة الّتي ندركه بها، وسألنا، هل ما ندركه عن هذا [الكون / العالم] حقيقيّ، أم أن وراءه خدعه كخدعة «الحَبْل / الثّعبان» أو «العصا المكسورة» أو «البحر الحُلميّ) ثم انتبهنا إلى أنّنا نسأل هذا

السؤال دون أن نتبيّن إن ما كنّا في حالة (صحو!) أو في حالة (نوم!) أصبح السؤال بلا إجابة.

لكن الفلسفة الهندية كانت قد توصّلت إلى الإجابة عن هذا السّؤال من قديم، فالكون «الماديّ» مُدرك بالنّظر إليه، وبالتّعرف عليه، فبالنّظر إليه صار الإدراك الّذي لا يُعَرف ما إذا كان «حقيقياً» أم «وهمياً»، فلما أضيفت [المعرفة] إلى الرّؤية أصبح الإدراك (حقيقياً) وليس مزيّفاً، وبما أن «الكون» في حالة عجز عن التّعريف بنفسه - هل عرّفَك الحُلم بأنّه حُلم؟ - فإن وراءه من عَرّف به، وهو (البراهمان) المطلق الّذي ليس بالإمكان إدراكه، ولا تعريفه، فهو الّذي وراء كل الأشياء، وفوق كل الأشياء، بل وهو (الوراء) الّذي تتشخص الحقيقة من خلاله.

ظهرت فكرة (الإله المُطلق) فاختلفت حولها الفلسفة الهندية، ففريق يرى أنّ (البراهمان / المطلق) في حالة وجود «ثُنائيّ» مع «الكون» فكلّ

مفردات «الكون» تحتويه، وهو يحتويها، وفريق يرى أنّ «طبيعة» البَراهمان متجاوزة لطبيعة «الكون» وخارجة عنها، فهو الّذي أتاح «للكون» الوجود، لكنّه خارج عن هذا الوجود لاستحالة أن يحتوي «الموجود» من «أوجده»!.

وبعيداً عن الجدل الذي استمر سنين حول الفكرتين، فقد ترسخ في الأذهان مفهوم (الإله المطلق) الّذي لا يمكن إدراكه، والّذي وراء كلّ شيء، وفوق كلّ شيء، وهو مفهومٌ يتجاوز مفهوم الدّيانة المصرية القديمة الّتي «جسّدت الإله» بل وشخّصته!.

فإن أمسكنا بفكرة (الإله) المطلق لننسبها إلى من كان الأصل فيها، كان الأصل فيها هو (الدّيانة) الهنديّة القديمة» ، وإن أمسكنا بتلك الفكرة لنطوف بها على ديانات الشرق «التوحيديّة» - الّتي تَعبُد إلهاً واحداً لا شريك له - وجدناها أساساً لفكرة التوحيد في تلك الأديان.

ثانياً: فكرة الثالوث الإلهي هي فكرة هندومصريّة قديمة

إذا كان (البراهمان) في مفهوم الدّيانة الهنديّة القديمة هو (الواقع المطلق) في صورة مجرّدة سبقت وجود (العالم)، وكان هو الّذي وراء عمليّة إدراكنا للوجود للتّقرير بأنّ هذا الوجود هو وجود (حقيقي) وليس «مُزَيّفاً» فإنّ هذا «البراهمان» [موجود] و[يَعْرف]، وقد أعطى للوجود «حقيقته» فأصبح بهذا الإعطاء [مقدّساً] فتلك هي صفاته الثلاث: الوجود والمعرفة والقداسة، فهل تلك الصّفات موصولة بوجود (البراهمان / المطلق) فتكون هي الأخرى (مطلقة)، أم أن منها ما هو- إلى جانب صلته بالمطلق - موصول بالوجود المادّي المتمثل به «الكون» على اعتبار أنها وسيلة التّعريف بأنّه حقيقي، فتصبح تلك الصّفات من مظاهر «الشّخوص الماديّ» للكون، وبذلك تصير

«مشخصة»؟.

أجابت الدّيانة الهندية القديمة عن هذا السّؤال بقولها، إنّ كلّ ما يتّصل من صفات (البراهمان) بالوجود (الماديّ) هو شاخص شخوص الوجود المادّي في العلاقة الّتي تربطه بهذا الوجود، غير أنّه في الوقت نفسه مطلق فيما يصله بالبراهمان، ومن ثمّ فإنّه بالإمكان (تشخيص) علاقة (البراهمان) بالواقع في صورة (آلهة) لها وجودها على أرض «الواقع» المادّي، ولها في الوقت نفسه وجودها (المطلق) إذ هي (البراهمان) بذاته ، فظهر في التّفكير الهنديّ إلى جانب البراهمان و (منه) و (هو) ثلاثة آلهة هم (براهما) و (فشنو) و (شيفا) حيث اختصّ كلّ منهم بمهمّة يقوم بها على أرض «الوجود المادّي» المتمثل في الكون بغية الحفاظ على استمراريّته.

فالوجود بطبيعته (نقيض) للعدم الّذي هو دائم التربّص به، بما يستلزم وجود (حارس) مهمّته

تغذية الحياة والحفاظ عليها، فإن كان العدم (فناء) وطبيعة الفناء هي «الشرّ» فإنّ على الإله (الحارس) أن يكون مُحبّاً للحياة مُدركاً لجمالها.. وكان هذا الحارس هو الإله (فشنو)، إله الحبّ والحياة والوجود، لكن المعادلة لا تستقيم دون وجود إله حارس (للعدم) تكون مهمّته الوقوف في وجه (فشنو) لإحباط مساعيه، فهو موجود على الدّوام وراءه ، يهدم ما يبنيه، ويقتلع جذور ما يغرسه من حبّ ورغبة في الحياة، فكان (شيفا) الإله المدمّر الّذي يحمل (الموت) و (الدّمار) و (الكراهية).

وبين الإلهين (فشنو) و (شيفا) يقف [حكماً] «البراهمان» في صورة «مُجسّدة» أُطلق عليها اسم «براهما» الّذي لا يقتصر دوره على رقابة الإلهين، وإنّما يتعدّى إلى الظهور [بنفسه] كلّما دعت الضّرورة إلى ذلك متّخذاً لنفسه اسم [كريشنا] ([1]) .

فكرة الثالوث الإلهي «براهما ـ فشنو ـ شيفا» هي

الأساس الذي قامت عليه الدّيانة الهندية القديمة في أقصى شرق العالم القديم، غير أنّ العجيب - والمُحيّر في الوقت نفسه - أنّ تلك الفكرة كانت سائدة في الدّيانة المصريّة القديمة على تفصيل أوضح ممّا هي عليه في ديانة الهند.

فالّذي يزور معبد «خنسو» بالكرنك - بمصر - ويطالع اللّوحات المرسومة على جدرانه يرى من بين تلك اللّوحات - على الجدار الشرقي للمعبد - لوحة تشير الكتابات المنقوشة بأسفلها أنها للآلهة الثلاثة [آمون رع - خنسو - موت] إذ تراهم واقفين في الجهة اليسرى خلف مائدة القربان مشاراً في اللوحة إلى الإله «آمون رع» بأنّه (الأب) وإلى الإله «خنسو» بأنّه (الابن) وإلى الإلهة «موت» بأنها الرّوح (الأم) الّتي أعطت الحياة لابنها خنسو، فلمّا قُرئت العبارات المكتوبة أمام ساق كلّ إله انتابت الدهشة الباحثين في أصل الدّيانات وكان أساس الدّهشة ما يقوله الإله «آمون رع» لـ له

«خنسو».. نصاً:

«يقول آمون رع سيّد عروش الأرضين لابنه الّذي يحبّه»

«سيّد الأرضين، إنّي أقدّم لك الأبديّة بوصفك ملك الأرضين»

«السرمديّ، وبوصفك ملك السعادة»

وكُتب أمام ساق الإله «خنسو»:

«إنّي أجعل عمرك عمر «رع» في السّماء»

وكُتب أمام الإلهة «موت»:

«ما قالته الإلهة موت العظيمة: يا سيّد التّيجان رعمسيس ماعت»

«مرى آمون إنّي (أمّك) الّتي وضعتك، وإنّي أمدّك بالحياة»

«والبقاء والسّعادة» ([1]) .

وأساس حيرة الباحثين أنّ سؤالاً تطرّق إليهم بعد مشاهدتهم لتلك اللّوحة، وقراءتهم لما دُوّن قرين الآلهة الثلاثة، ففكرة «الثّالوث الإلهي» الواضحة باللّوحة على صلة واضحة بفكرة الثّالوث الهندي «براهما - فشنو - شيفا» رغم انقطاع الصّلة بين مصر القديمة وشبه الجزيرة الهندية، بما دعا للتّساؤل عمّا إذا كان المصريّون القدماء قد أبحروا شرقاً إلى الهند عبر بلاد (بُونت) الّتي كان المصريّون يؤمّونها، أم أنّ الهُنود هم الّذين تسلّلوا إلى مصر عبوراً بأرض «فارس القديمة»؟. فمن خلال احتمال من الاثنين انتقلت فكرة الثالوث إمّا إلى الشرق، وإمّا إلى الغرب!.

وإلى أن يحين موعد الإجابة عن هذا السّؤال، فإنّ الّذي لم يعد مثار شكّ هو أنّ فكرة الثّالوث الإلهي [براهما - فشنو - شيفا] الهندية، أو [آمون رع - خنسو - موت] المصريّة هي ذاتها فكرة (الثّالوث) في الدّيانة المسيحيّة [الآب - الابن - الرّوح القدس].

ثالثاً: فكرة الحلول الإلهيّ في البشر- التّجسّد - هي فكرة هنديّة قديمة

«أرْجونا» اسم للقرية الّتي يحتضنها التّل، وهو اسم للتّل نفسه.. فهو «تلّ أرجونا!» أمّا الّذي أعطى اسمه للقرية ثمّ للتّل، فهو ذاك «الكهل» الّذي تراه هُناك.. متوسّداً جذع البلّوطة الكبيرة، بجوار «الكوخ» المتسرّب من شُبّاكه دخان الطّهو!.

فإن انتظرت قليلاً، رأيت باب الكوخ ينفتح، فيطلّ منه «الصبيّ» الّذي جعل نساء القرية يحلُمن بالتّطلع إلى وجهه، وجعل رجالها يتساءلون عمّن يكون!، فإن اقتربت، وقد أمسك بيد «الكهل»، وأحاط خاصرته بذراعه، عرفت أنه يتحسّس له الطّريق إلى الكوخ حتى لا يتعثّر!، لكنّك ستندهش حال دخولك الكوخ وراءهما، وكيف لا تندهش! وقد رأيت «الصبيّ» أعدّ مائدة الطّعام، وأراح بجانب منها «العجوز» ثم بدأ يُلقمه الطّعام بيده.. بينما هو

لا يأكل!.

كان «أرجونا» سائق عربة صغيرة، يتكسّب من حمل النّاس والأمتعة، وكان كلّ ما له من الدّنيا، عربته - الّتي أصبحت الآن قديمة جداً - وحصان، مات، فاستعاض عنه بحمار، ثمّ هذا الكوخ الّذي تراه هُناك!، لكنّه كان قنوعاً، لم يتبرّم يوماً من سوء حاله، بل كان كريماً، ما فارقت الابتسامة وجهه!.

يقول الّذين عاصروه!، لم يُنجب، لأنّ أحداً لم يُجازف بابنته لتحيا في كوخ، ترعى الحصان، وتدقّ المسامير في خشب العربة، وهم يقولون ذلك ويُخفون في أنفسهم، أنّ أيّة امرأة كانت تتحاشى النّظر إلى وجهه الّذي يشبه نُتُوء الصّخرة، الّتي هُناك، خلف البلّوطة، يستند برجليه إليها، فإن لم يكن نُتوء وجهه، وغؤور عينيه، وفمه «المقلوب»، هي السبب في انصراف النّساء عنه، فإن سبباً آخر كان هو الأهمّ، إذ كان «أرجونا» عازفاً عن النّساء، ما اقترب منهنّ أبداً.

ولأنّه أصبح «الآن» عجوزاً، بل «كهلاً» فقد بات اللّيالي مشغولاً بالّطريق الذي بدا «ضبابيّاً» ثُمّ صار يُعتم يوماً بعد يوم، فلمّا أصبح غير قادر على معرفة الاتّجاهات! وكثر تذمّر الحمار، فأصبح في المفارق ينعطف يميناً، فتأتيه جَذْبة «اللّجام» فينعطف شمالاً.. وتداخل (الجذب!)، فلم يعد هناك شمال ولا يمين، لم يعد باستطاعة الحمار أن يتحرّك!، فتوقّف غير عابئ بصرخات العجوز،وتوسّلاته.

ومع توقّفات الحمار، توقّفت كلّ الأشياء، حتى بصيص النّور، الّذي كان يمسك به ليعرف الطّريق إلى باب الكوخ، توقّف، ثم انقطع، فبات يجلس جائعاً بجوار البلّوطة.

الّذين رأوْه وهو يبكي!، هم الّذين بين حين وحين يصعدون إليه ببقايا الطّعام، وحتّى هؤلاء تناقص عددهم، فأصبح الجُوع قريناً بموت الحمار، وبينهما «الظّلام» الّذي حلّ، فصار مستديماً، هم نُدماء اللّيل، ورُفقاء النّهار!.

وبما أنّه قد بات لا يتذكّر شيئاً، فمن الطبيعي أن يكون قد كفّ عن التسلّي بالتّجوال داخل القصص، الّتي كانت تردّدها القرية، فلم يعد في حاجة إلى التّطلع في السّماء يبثّها نحيبه، الّذي كان صراخاً يدعو فيه (كِرشْنا) ويطلب نجدته.

هو الآن لا يعرف أنّه ظل أمداً طويلاً، بدأ منذ موت الحمار، يتذكّر آخر القصص، الّتي نسيها الآن، فيتصوّر قطيع الغزلان وهو يتقافز طلباً للنّجاة من أنياب جماعة «السّباع» المندفعة وراءه.. فلمّا فوجئت الغزلان بالنّهر يقطع عليها طريق النّجاة، لم يعد أمامها سوى الاستسلام للموت.. فانكمشت في تجمّع!، يستطلع الوراء في أسى!. غير أنّ النّهر انشقّ فبرز «فتى» ظلّ يستطيل على سطح الماء إلى أن صنع بجسده جِسراً عبرته الغزلان فلمّا بلغت السّباع النهر، أرخى الفتى رجليه في الماء ثم استقام.. فشهدت القرية هالة النّور يتوسّطها «كرشنا».، لكنّ «كرشنا» لم يسمع توسّلاته،

فطواه في سُبات الصّمت.. ونسيه!.

في اليوم الّذي لم يعد بالإمكان نسيانه، أحسّ بيد تربت كتفه، انتبه، ارتفعت اليد إلى الوجه الغارق في الدّموع تمسحها، فأحس بانسياب شيء في خلاياه، لقد أقسم بكرشنا!، أنّه كان يرى الدماء وهي تندفع في عروقه، حارّة، ناعمة، لا، بل وشبقة!، فلمّا انتفض كاد يصعق، فقد تسلّل النّور إلى عينيه، فأبصر الجالس إلى جواره!.

هو ذاته الفتى الّذي يفتح باب الكوخ الآن، ليأخذ بيده ليتناول طعامه.

فلمّا ابتسم «العجوز» في وجهه، وتردّدت بين شفتيه كلمات الثّناء، ولم يعد هناك ما يقوله، استدار للفتى وسأله في همس: من أنت يا بهي الطّلعة.. يا صاحب القلب الكبير؟.

فلمّا نطق «الصبيّ»، تزلزلت البلّوطة، فتساقط من أغصانها النّور!.

- أنا كِرشنا!.

خرّ العجوز ساجداً بين قدميه، يتمتم، إلهي، كِرشنا!.

- بل سائق عربتك من الآن، حتى لا تشقى!، فلم يكن في ماضيك شرور!.

فإن كانت (الرّوعة!) قد صرفتك عن سماع ما يتردّد وراء الكوخ من تراتيل سماوية، فانظر إلى البلّوطة ترى التراتيل هناك:

كلّ الكائنات تنشأ منها طبيعتي

ألا فلتعرف ذلك عنها جميعاً...

وعن العالم بأسره،

فأنا الأصل والفناء...

ما من شيء أسْمى منّي على قيد الوجود

يا أرجونا

حولِيَ نُظم هذا الكون بأسره...

مثلما تنتظم الّلآلئ في العقد([1]) .

تقول «البها جفد جيتا»: كان بإمكان الإله (كرشنا) أن يتجسّد في صوَر عديدة!، وفي وقت واحد، فما دامت مهمّته هي (إبلاغ البشر برسالته)، وتعليمهم طرق عبادة الرب، فالتجسدات متعددة، ومستمرة!.

وهذه الفكرة - [تجسّد الإله في صورة بشرية]، هي ذاتها - وبالتّطابق - فكرة [الحلول] - التجسد - في الديانة المسيحيّة، الّتي ترى أنّ الله قد (حلّ) في جسد المسيح، لا فرق بين أن يكون هذا (الحلول) اتّحاداً بين «ناسوت» و (لاهوت» أو أنّه «لاهوت»

أفصح عن نفسه بالهيئة البشريّة، ففي الأمرين معا، هو «حلول» الإله في جسد بشري!.

رابعًا: فكرة (المعراج) هي فكرة هندية قديمة

لم نبتعد كثيراً عن النّصيحة التي وجّهها «باجنا فالكيا» لملك الفيديها «جاناكا» حين جاء يسأله عن وسيلة يتّقي بها شرّ الولادة من جديد في عمليّة تناسخ، وربّما لم يكن قد توارى بعد ما أسفر عنه تحليل (نص) تلك النصيحة ([1]) الّتي ربطت اقتلاع الشّهوات بالاتحاد مع الرّوح الأسمَى، روح العالم، الّتي تصوّرها الفكر الهنديّ في (البراهمان) المطلق، الّذي وراء كل شيء، وفوق كل شيء.

فكيف تُرى، كان تصوّر الفكر الهندي لعمليّة الاتحاد تلك؟ إن الاجابة عن هذا السؤال بطريق الاستنتاج أو التخيّل تظلّ قاصرة، فما يتم به الاتحاد وهو «الرّوح» غير مُدرك، كذلك فالرّوح (المطلق)

الّتي يتم الاتّحاد بها، هي الأخرى غير مدركة، ومن ثم فإدراك كُنه هذا الاتّحاد هو أمرٌ عسير.

لكن إذا عُرف أن عمليّة الاتّحاد تلك، هي عمليّة تجري بين (جزء) يتمثّل في الانسان، وبين (كلّ) يتمثّل في الإله، بات يقيناً أن تكون العملية هي حالة صعود - تسامٍ - من الجزء إلى «الكلّ» الساكن بمُطْلَقِيَّتِهِ، وعملّيّة التسامي هي عملية صُعودية.

ويتأيد ذلك بأن عملية التناسخ هي عمليّة (عكسيّة الحركة) لعملية (الاتّحاد) ففي التناسخ - الولادة الجديدة - تُدفع الرّوح لولادة جديدة تتمّ على الأرض، ومن ثمّ فحركتها (لأسفل)، مثلها مثل تجسّد «الإله» في عملية (الحُلول).

وبما أن الحركة في عمليّة (الاتّحاد مع الكلّ) هي التّسامي الّذي يكون عليه الجزء (ليصعد)، فإن هذا التّسامي هو (المعراج) الّذي أبصره الفكر الإسلامي بعد مولد فكرته على أرض الهند بقرون، فأمسك به،

وأعاد صياغة طروحاته وفق منظور فكرة (الإله) لديْه.

شكل ص 55

(1) قارن بين هذا التصور والتصوّر المصري القديم لعلمية خلق العالم، الفصل الرابع - المنظور السكوني.
(2) انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود. مج 2 ف 1 ص 33، 55.
(1) انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي نجيب محمود. مج 2 ف 1 ص 55.
(2) فيدا بمعنى يعرف، ويقصد بها الكتب الهندوسية الأقدم. انظر، جون كولر، الفكر الشرقي القديم، عالم المعرفة (199) ص 35.
(1) فيدا بمعنى يعرف، ويقصد بها الكتب الهندوسية الأقدم. انظر، جون كولر، الفكر الشرقي القديم، عالم المعرفة (199) ص 150.
(1) فيدا بمعنى يعرف، ويقصد بها الكتب الهندوسية الأقدم. انظر،

جون كولر، الفكر الشرقي القديم، عالم المعرفة (199) ص 155.
[(1)](#) سليم حسن، موسوعة مصر القديمة مج 8 ص (50-51).
[(1)](#) فكرة القصة من((أنشودة الرب» في أسفار الفيدا، انظر: المرجع السابق ص 104 أما الصياغة فهي للكاتب.
[(1)](#) انظر: تحديث الكهانة، ما بعد مدخل.

الفصل السابع

فرعان: تشابك الجذور - استقلال الفروع

الفرع الأول

تشابك الجذور

مدخل

إذا قلنا بوجود اتّصال بين الدّيانات القديمة «الهنديّة والزرادشتيّة والمصريّة» وبين الدّيانات

الإبراهيميّة «اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام»، تعيّن علينا قبل أن نخوض في موضوع الاتصال بين تلك الدّيانات تحديد القنوات الّتي جرى الاتصال من خلالها، بل والوقوف على «المعابر» الّتي عبرتها الفكرة المنقولة للتّعرف على الاتّجاه الّذي اتّخذته تلك الفكرة حين انتقالها.

وتحديد تلك القنوات، أو المعابر، هو أمر بالغ الصعوبة إذ اقتصر التقصّي فيه على عمليّة بحث عمّا بتلك الأديان من أوجه تشابه، إذ قطعت الدّراسات «الأنثروبولوجيّة» عن وجود تشابه بين عادات شعوب لا تربطهم ايّة رابطة، بل لم يسبق لأيّ منهم اتّصال بالآخر وأهرامات المكسيك تشهد بذلك. فهي مثيلة لأهرامات الفراعنة بمصر رغم انقطاع حضارات «أمريكا الوسطى» عن الحضارة المصريّة القديمة بالمحيط الأطلسي، الّذي لم يثبت أنّ أيّاً من أبناء الحضارتين قد عبره إلى الحضارة الأخرى [(1)].

يستلزم الأمر إذن إيجاد وسيلة أخرى - غير تشابه العادات، لـ مساك بمعابر انتقال تلك الأديان، ويتأتّى ذلك بالبحث عن عامل «مشترك» غير قابل للتّأثر بعمليّة الانتقال، ولا يقتصر في وجوده بأيّ من تلك الدّيانات على وجوده في الفكرة الدّينية وحدها. وإنّما بشمول وجوده في الحضارة الّتي أنتجت الدّين ذاته وخير مثال لذلك تكون «اللّغة».

فإذا وجد عامل اللّغة كأساس تشترك فيه الجماعات على أرض تلك الأديان، ثمّ أضيف إلى عامل اللّغة تشابه الأسس الفكريّة للأديان ذاتها، أمكن القول بوجود (رابطة) أساس، جمعت في القديم جذور تلك الأديان، وعلى مرّ الزمن تشعّبت الفروع مختلفة الأشكال، ومتعدّدة الاتّجاهات.

ولأنّنا أوردنا فيما سبق أنّ الدّيانة «الهنديّة القديمة» كانت هي (الأمّ) لما انبثق حولها من الدّيانات، وكنّا قد أوردنا أنّ الدّيانة المصريّة القديمة لا تزال شاخصة بالكثير من تصوّراتها في الدّيانة

الإسلامية، فإنّ ما يطرح نفسه للتّساؤل هو الكيفيّة الّتي تمّ بها الاتّصال بين تلك الدّيانات، كذلك تحديد المصادر لتحديد اتّجاه الفكرة المنقولة.

فمن البداية، يتعين تحديد «الموقع الجغرافي» لكلّ من تلك الدّيانات، كذلك تحديد «الزّمان» و «اللّغة» وبيان أوجه التّشابه بين الفكرة - المنقولة - وهي على ساحة النّشأة، مقارنة بها على ساحة الاستقرار الجديدة.

وقبل الدّخول في التفاصيل - الّتي ستلي في فصل لاحق - فلتكن البداية هي الدّيانة «الهندية القديمة»، فموقع تلك الدّيانة «جغرافياً» هو شبه القارّة الهندية بكاملها، شاملة «جُمهورية الهند» ودَوْلة «باكستان بشطريها قبل التّقسيم»، وهي بذلك تحتلّ موقعاً يتجاوز (بالالتصاق) مع أرض الموقع للدّيانة «الزّرادشتّية»، إذ ظهرت تلك الدّيانة على أرض (فارس) الّتي كانت تجمع «إيران» مع «أفغانستان» الّتي تجاور حُدودها الشماليّة الشّرقية أرض الهند

وبهذا التّجاور فإن عمليّة الانتقال من موطن الدّيانة الهندية القديمة إلى موطن الدّيانة الزّرادشتيّة، أو عكسياً ليست محلّ شك.

فإذا أضيف إلى ذلك أن أمبراطورية الفُرس - في عهد داريوس الأوّل [521 - 485 ق. م] - امتدّت من مصر إلى غرب السّند فضمّت أمماً يتجاوز عدد أفرادها خمسين مليون نسمة، في وقت لم يكن قد تجاوز فيه عدد سكّان البلاد من الفرس خمسمائة ألف نسمة، وكان هذا الخليط «البشريّ» يتحدّث لغات عديدة كان أهمّها اللّغة «الفارسية» القديمة الّتي أصلها «السنسكريتيّة الهندية»، وهي اللّغة الّتي استطاعت التسلّل إلى قلب اللّغة اللّاتينيّة بما بها من ألفاظ لا تزال حيّة حتّى اليوم، على مثال كلمة [Bhrator] في اللّغة الهندية الّتي هي نفسها كلمة [Brother] في الإنجليزية. وفي الفارسية [Brater] وفي اليونانية [Bhrater] وفي اللّاتينية [Frater] والأمثلة كثيرة، وكانت تلك

اللّغة هي لغة الدّيانة الهندية القديمة، أمكن القول باطمئنان بأنّ فكر الدّيانة الهندية القديمة كان على اتصال دائم بالمهد الّذي أنتج الدّيانة الزّرادشتية على أرض فارس.

وقد غزا الفُرس مصر وطُردوا منها، ثم عادوا في عهد (قمبيز) - 525ق. م - فاستقرّوا بها طويلاً. وبالتاريخ ما يثبت أنّ «قمبيز» كان كارهاً للدّيانة المصرّية القديمة، لدرجة أنّه نبش قبور الفراعنة، وأخرج منها «المومياءات» وألقى بها في الرّغام (1) ساعياً بذلك إلى بثّ بذور الدّيانة الفارسية - الخليط من الزّرادشتية القديمة التي كان قد اعتنقها «داريوس الأوّل» جد «قمبيز» والزّرادشتية بطقوس الإلهين «ميتراس» و «أنا هيتا» - في قلب مصر.

فإن تركنا اللّغة والجوار كعاملي ربط بين جماعتين، وأمسكنا بأسفار «الفيدا» الهنديّة لنقارنها

بآيات «الأفيستا الزّرادشتية» لوجدنا أساساً مشتركاً للرّؤية في الفكرتين، فكلتاهما جرّدت (الإله) عن الطّبيعة وأخفته، وكلتاهما تصوّره «مُطلقاً» لا يخضع لزمان ولا لمكان، وكلتاهما تصوّر جزاءً مقرّراً لكلّ عمل طيّب أو خبيث.

وعلى جانب آخر، فلمّا كان «البابليّون» هم (المعبْر) الّذي عبرته حضارة الشّرق في الهند، ثمّ في فارس إلى حضارات ما غرب بلاد النّهرين في فلسطين وجزيرة العرب ومصر، إذ كان البابليّون بطبيعتهم شعباً تجاريّاً توغّلت قوافله إلى آسيا الصّغرى - تركيا حاليّاً، فقد نقل هؤلاء البابليّون إلى شعوب امتدادهم التّجاري فكرة دينهم الذي تخالط بفكرة الدّين الوافدة من الشرق في بلاد فارس المجاورة.

وفي اتّجاه عكسيّ كانت الدّيانة المصريّة القديمة تأخذ الطّريق إلى الشّرق عبر فلسطين الّتي اقتحمتها الجيوش المصرية قبل سنة [2500 ق. م] وانطلقت

منها إلى نهر الفرات لتبقى فلسطين تحت السّيادة المصريّة لأكثر من أربعة قرون ([1]) فتلاقت الجذور الممتدّة من «الهند» شرقاً، مع الجذور الممتدّة من «مصر» غرباً على أرض السّاحة الزّرادشتيّة فيما بين النّهرين وبلاد فارس.

وكانت «شبه جزيرة العرب» على غير انقطاع عمّا يدور حولها، فغالبيّة السّكان «بدو» لا يربطهم بالأرض إلّا وجود «الماء» و «الكلأ» فهم على ترحال دائم، كذلك كانت التّجارة هي مَعين الحياة للمدن المستقرة.

فانطلقت القوافل من جنوب الجزيرة - في اليمن - إلى شمالها تبيع وتشتري وترى «أديرة» الرّهبان ومعابد الآلهة، والبدو إذ يتعاملون يتساءلون، فتأتيهم الإجابة متشابكة الجذور - فيما لا طاقة لهم على التّفكير فيه فانصرفوا عنه إلى آلهتهم الوثنيّة.

وعلى الرّغم من أنّ بعض الجماعات «اليهوديّة»

كانت قد انتقلت واستقرّت بأرض العرب، فقد ظلّ هؤلاء اليهود منعزلين بدينهم، كذلك لم تلق «المسيحيّة» على أرض الجزيرة ساحة للانتشار إلّا في أقصى الجنوب على أرض «سبأ» - اليمن - فتهيّأت السّاحة - «الخالية» لأفكار مشوّشة تمُوج بشياطين الشّعر، وعرافة الكُهّان وبعض أساطير عن الأمم المجاورة.

انتقلت الديانة الهندية القديمة إلى (فارس) ثم إلى (بابل).
ومنها إلى فلسطين ومصر برافد وإلى الجزيرة العربية برافد آخر.

انتقلت الديانة المصرية القديمة من [مصر] إلى [فلسطين] وتفرّعت فرعين أحدهما أخذ طريقه إلى [آشور] والثاني اتجه إلى [مكة] في الجزيرة العربية.

موسى

كلمة «مُسّ» بضمّ الميم وسكون السّين ومعناها «طفل»، هي كلمة مصرية قديمة مختصرة من اسم مركّب كامل على نسق (أمن مُسّ) ومعناها «آمون الطّفل» وهذا التّركيب في اللّغة المصرية القديمة هو اختصار لتركيب أوسع هو، (آمون ـ أعطى ـ طفلاً) وهي الطّريقة الّتي كانت تنطق بها اللّغة المصرية القديمة.

ولا خلاف بين الباحثين على أنّ الاسم «مُوسى» هو اسم مصريّ وجد منتشراً في كثير من الآثار

المصرية ([1]) ، فقد عثرت البعثة الفرنسيّة الّتي عملت في «دير المدينة» سنة 1938 على وثيقة تضمّ أسماء أعضاء لجنة محلية كانت تنظر موضوعاً لمواطنة مصرية اسمها «نُونَحْن» وكان من بين أسماء أعضاء اللّجنة من يدعى «رع موسى» ضابط المركز ([1]) ، على أنّ اسم «موسى» وإن كان اسماً مصريًّا قديماً، فإنّ موسى المشار إليه في التّاريخ بأنّه قاد «العبرانيين» أثناء عمليّة الخروج كان عبرانيّ السّلالة، مصريّ المولد، فاكتسب الاسم المصريّ بمولده على أرض مصر.

والعبرانيّون - الّذين قادهم موسى في رحلة الخروج من مصر - ليسوا هم «الهكسوس» الّذي غَزَوا مصر في عهد الاضمحلال الّذي سبق قيام الدّولة الحديثة، فهؤلاء «الهكسوس» أُرغموا على مغادرة مصر في نهاية القرن السادس عشر قبل الميلاد، [1570 ق.م تقريباً] بينما الثابت تاريخيّاً أنّ الخروج العبرانيّ قد حدث خلال القرن الثالث

عشر قبل الميلاد [1300 ق.م] ، (2) فهؤلاء العبرانيّون - اليهود - هم عشيرة «يعقوب» الّتي هاجرت إلى مصر بسبب القحط، واستقرّت بأرض «جاشان» بالشرقية (3) إلى أن خرج بهم موسى هرباً من فرعون مصر «رمسيس الثاني» الّذي استعبدهم انتقاماً منهم لخيانتهم وتعاونهم مع «الهكسوس» في فترة وجودهم معهم (4).

ويرى عالم الآثار «بيتري» أنّ خروج العبرانيّين من مصر كان في عهد «مِرِنْبِتَاح» - ابن «رمسيس الثاني» في سنة (1213 ق. م)، ويعتمد بيتري في تقويمه على لُوح محفوظ بالمتحف المصري عُثر عليه سنة (1896م) في خرائب معبد مرنبتاح الجنائزيّ في طيبة الغربيّة وهو اللّوح المسمّى بلوح «إسرائيل» لما ورد به من أنّ: (وإسرائيل قد خرّبت وأزيلت بذرتها، وأصبحت «خارو» أرملة مصر) [عبد الهادي عبد الرحمن - نهاءات تصويريّة لقصة الخروج - العصور الجديدة، العدد (2) ص 82].

غير ان تلك الرؤية محلّ نظر، فالأحداث الّتي ذكرها لُوح مرنبتاح - اسرائيل - ومنها: بلاد خانتي هادئة، وكنعان استلبت بقوّة، وأُخذت عسقلان، وقبض على جارز، وصارت بنو عام كأنّ لم يكن لها وجود وإسرائيل قد خرّبت وأزيلت بذرتها، وأصبحت «خَارُو» أرملة مصر. هي أحداث تمّت في عهد الفرعون «رمسيس الثّاني» - أبو «مرنبتاح» -، فإذا كان هذا اللّوح قد كتب في عهد «مرنبتاح» بعد تولّيه الحكم خلفاً لأبيه «رمسيس الثاني» فالأحداث المكتوبة على اللوح ترجّح أنّ مرنبتاح كتبها ترديداً لمجد أبيه وتخليداً لإنجازاته، وربّما - على عادة ما كان عليه بعض الفراعنة، أراد «مرنبتاح» أن ينسُب هذا المجد إلى نفسه.

والعبرانيّون هؤلاء هم فَصِيل من الجماعة الكبرى الّتي عبرت من بلاد ما بين النّهرين، فكان اتصالهم بالحضارة البابليّة اتّصال مُعايشة واستقرار بما شكّل «الدين» لديهم على الأسس الّتي كانت سائدة في

تلك الحضارة، فالاسم «يهودي» مشتقّ من «يهوذا» الابن الرّابع ليعقوب، الّذي ينسبه التّاريخ اليهودي إلى «إبراهيم» وتصفه التوراة بأنه جد اليهود [سفر التكوين 13/14] وبأنّه وفد من بلاد ما بين النّهرين فاستقرّ بأرض كنعان.

ولأنّنا لا نكتب في التّاريخ، فلن نتقصّى من تاريخ موسى إلّا ما يتّصل بالأثر الّذي أحدثه في الدّيانة اليهوديّة، غير أنّ الإمساك بهذا الأثر يقتضي البحث عن جذوره من خلال الخلفية «الثّقافيّة / الدّينيّة» الّتي تشكّل على أرضها الفكر «المُوسَوِي».

فإبان استقرار اليهود على أرض مصر [1650 - 1300 ق. م] قام «إخناتون» بثورته الدينيّة الكبرى [1370 ق. م] فأعلن فكرة (التّوحيد) الّتي قضت على تعدّد الآلهة من جانب، ومن جانب آخر قضت على نفوذ «الكهنة» فإذا كان عُمْر «موسى» عند الخروج [1300 ق. م] أربعين عاماً، فإنّ موسى يكون قد وُلِد وعاش ما عاشه من الأربعين عاماً

على أرض مصر وهي في صراع بين أتباع «إخناتون» الّذين اعتنقوا فكرة «التوحيد» وبين كهنة (آمون) الّذين ساحوا في البلاد - طولاً وعرضاً - يؤلّبون النّاس على الفكرة الإخناتونية إلى أن تمّ تقويضها.

أربعون عاماً - تقريباً، عاشها موسى على أرض مصر وهي في صراع «دَموي» بين أنصار فكرة (التّوحيد) وبين كهنة وأنصار فكرة (التعدّد) فاكتظّت ذاكرته بما وراء الفكرتين من «رُؤَى» الفريقين وبات ما عَلِق بالذاكرة هو المرجع الّذي يرجع إليه حين تصوّره لـ له الّذي يعبده.

والتّاريخ اليهوديّ به ما يثبت أنّ موسى قَتَل مصرياً وهرب إلى «مدْيَن» في (سينا) فمكث بها عشر سنين، وتزوّج بها من ابنة شيخها، فقد أورد سفر الخروج أنّ «موسى» كان ينتظر اخوته لينظر في أثقالهم، فرأى مصريّاً يضرب عبرانياً من أخوته، فالتفت إلى هنا وهناك ورأى أنْ ليس أحد فقتل

المصري وطمره في الرّمل، فسمع فرعون هذا الأمر وطلب أن يقتل موسى، فهرب موسى من وجه فرعون وسكن في أرض [مديان] وجلس عند البئر [خروج 2/ 11- 15]. فلما أنقضت المدّة قال الربّ لموسى في «مديان» ارجع إلى مصر لأنّه قد مات جميع القوم الّذين كانوا يطلبون نفسك، فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع مصر [خروج 4/ 19- 20].

ووراء القصّة التوارتيّة أنّ موسى مكث «بمدين» على أرض «سينا» عشر سنين تزوّج خلالها وأنجب في وقت كانت فيه قبائل «سينا» تعبد «إلهاً محليّاً» تدعوه (يَهُوه) الّذي لفظه اليهود بالعبرانيّة بما يدلّ على كلمة (ربّ) فأفقد النّطق القديم لكلمة (يهوه) وصارت حروفها الأربعة السّاكنة (ى هـ ف هـ) تلفظ بإضافة الحركات الّتي تستعمل مع كلمة (ربّ) في العبرية، فأصبحت كلمة (يهوه) تلفظ عبرياً (جَهوقة) - يهوفاة- ([1]) .

فإذا أضيف إلى ذلك ما هو ثابت «علمياً» من أنّ إقليم شمال «سينا» القائم على طول الأخدود العظيم الّذي كون «البحر الميت» و «وادي نهر الأردن» كان أرضاً غير مستقرة، تتنابها بين الحين والآخر توابع «الصّدع» الكبير الّذي تولّد عنه الأخدود بما اقترن بتلك التّوابع من ثوران بركانيّ صاحبته زلازل عنيفة خرّبت مناطق كثيرة، وكان سفر التكوين [19 / 23 - 28] قد أورد الرّواية العبرانيّة الّتي تحدّثت عن تخريب «سَدوم» و (عمورة) - وهما مدينتان كانتا في تلك البقعة - بالنّار والكبريت المتساقط من السّماء، بات يقيناً أنّ الرّواية العبرانية عن هذا التّخريب قد نُقلت عن مشاهدات القبائل المحلية الّتي عاصرت «الانفجار البركاني» وشاهدته من مسافات بعيدة، فلم تعرف إن كان مصدره السّماء أم الأرض.

كذلك ما جاء في سفر الخروج [13/ 20 - 22] عن الخوارق الّتي صحبت خروج العبرانيّين من مصر من أنّ (يهُوه) إله اليهود ظهر في مظهر

غريب على هيئة (عمود نار) يلتفّ من حوله (عمود دخان)، ثم تجلّى فوق طور سينا (نهاراً) محدثاً رعداً وبرقاً وسحاباً كثيفاً [خروج 19/ 16 - 19] فقد غاب عن الذّهن - حين تدوين تلك الأسطورة - أنّ (يهوه) كان إلهاً محلياً للبراكين، وكان مقرّه «طور سينا»، وأنّ الوصف الّذي قيل عن ظاهرة «التجلّي» تلك هو وصف لثوران بركان [(1)]. فمن «سينا» - الّتي ثبت أن موسى عاش على أرضها عشر سنين، خالط القبائل فيها، وتزوّج فأنجب من بنات إحداها، عرف موسى الإله المحلّي (يَهُوه)، وطال الحديث حوله عن تخريب (سدوم وعمورة) بالنّار والكبريت فيما ظننته القبائل من «السّماء» وما هو إلّا من الأرض، وربّما يكون قد رأى «عمود النّار» يتلفّ من حوله «عمود دخان» فظنّه - كما ظنّته العشيرة الّتي كانت تعايشه - «يهوه إله البراكين» قد تجلّى نهاراً.

ومن مصر (إخناتون / التوحيد) كانت قد صيغت

فكرة «أزلية الإله» وتجلّيه في مُفردات العالم الحسّي، تقول البرديّة المصريّة: «مُستنقعات السّوسن» بأزهارها النّشوانة الّتي تَيْنع بإشعاع «آتون» الأخّاذ، وطيورها الّتي تنشر أجنحتها تعبّداً» لآتون «الحيّ، والسّمك الّذي يثب في النّهر مُرحّباً بالنّور العالميّ الّذي تنفذ أشعّته حتّى وسط البحر الأخضر العظيم، كاشفة عن عظمة «آتون». ووراء تلك العبارة التي صاغها المصريّ القديم وسجّلها على أوراقه ـ قبل كتابة التوراة بما يقرب من ألف سنة ـ ما تصوّره هذا المصري عن آلهة «آتون» الذي رآه قد حلّ في كلّ مظاهر الطّبيعة، فإذا ما جاءت المزامير اليهوديّة بعد كتابة تلك العبارة بما يقرب من ألف سنة وأوردتها مشاراً بها إلى «يهوه» إله البراكين في سينا ـ الّذي تحول إلى إله اليهود (2) أثبت ذلك ما أحدثته الدّيانة المصرية القديمة في فكر العقيدة اليهوديّة.

وقصّة «الخروج العبراني» في التّوراة تتفوّق

على كونها «أسطورة» بنسيجها الّذي تشخصت فيه «الخرافة» على أرض واقع «ضبابي» باهت الملامح، بأنها أسطورة ممسوخة مشوهة المعالم.

فبعد أن «وَسَم» بنو إسرائيل بيوتهم - في مصر-، بالدّم عملاً بنصيحة الرّب لهم، طاف الرّب - في نصف الليل، على البيوت ينتقي منها بيوت المصريّين - الّتي لم توسم أبوابها بالدم - ليقتحمها، ويقتل كلّ «بِكْر» بها، فأصبح المصريّون وصراخهم يملأ الأرجاء لأنّه لم يكن بيت إلّا وفيه ميّت [خروج 12/ 21 - 30].

والسّؤال هنا، ما طبيعة هذا «الرّب» الّذي لا يعرف مَنْ بداخل البيت إلّا بوضع «علامة» من الدّم على بابه؟. تقول التوراة: ودعا الربّ موسى وهارون ليلاً وقال قوموا اخرجوا من بين شعبي أنتم وبني إسرائيل جميعاً [خروج 33/12] فحمل الشّعب عجينهم قبل أن يخمُر ومعاجنهم مصرورة في ثيابهم على أكتافهم.. وارتحلوا من «رعمسيس»

إلى «سكّوت» [خروج 12/ 37] فلمّا أَخبر ملك مصر أن الشّعب قد هرب تغيّر قلب فرعون وعبيده على الشّعب، وشدّد الله قلب فرعون ملك مصر حتّى سعى وراء بني إسرائيل. وأدركوهم عند البحر عند فم (الحيروث) أمام (بعل صفوان) فقال الرب لموسى مالك تصرخ إليّ؟ قل لبني إسرائيل أن يرحلوا وارفع أنت عصاك ومُدّ يدك على البحر وشقّه فيدخل بنو اسرائيل في وسط البحر على اليابسة، وها أنا أشدّد قلوب المصريين حتّى يدخلوا وراءهم فأتمجّد بفرعون وكل جيشه بمركباته وفرسانه فيعرف المصريّون أنّي أنا الرب حين أتحد بفرعون ومركباته وفرسانه [خروج 14/ 15 - 19].

والقصة تحدّد خطّ المسار العبرانيّ في رحلة الخروج عبْر طريق غير مألوف في «البرية» إذ كان الرب يسير أمامهم نهاراً في عمود سحاب ليهديهم في الطّريق، وليلاً في عمود نار ليضيء لهم [خروج 13/ 10]، ذلك لأنّ الله لم يهدهم في طريق

أرض الفلسطينيين مع أنها قريبة لأنّ الله قال لئلّا يندم الشّعب إذا رأَوْا حرباً ويرجعون إلى مصر [خروج 13/ 17]، فأدار الله الشعب في طريق برّية بحر (سُوف) [خروج 13/ 19] وارتحلوا من «سكّوت» ونزلوا في «إيثام» في طريق البرية [خروج 13/ 23].

وكيلا يُظنّ بنا التحيّز ضدّ العبرانيّين - لأنّهم اليهود - فسنتغاضى عن أنّ أسماء الأماكن الواردة في تلك القصة بالتّوراة - وهي أماكن على أرض مصرية - لم يثبت لها وجود في التاريخ المصري، وبحسن نية، فلنفترض أنّ تلك الأسماء «عبْريّة»، فالّذي يهمّنا هو معرفة الطّريق الّذي سلكه هؤلاء من موطن إقامتهم في شرق الدّلتا - بمحافظة الشرقية في مصر حالياً - بما كان يعرف بأرض (جاشان) - وادي الطميلات [1]» إلى «سينا»، وأيّ بحار تلك الّتي عبروها.

كذلك سنتغاضى عن تقرير «عالم الحفريات» الأمريكي «رئيف هرتسوج» الإسرائيلي الأصل - وهو التّقرير المُعنْون ب. (التوراة لا إثباتات على الأرض) والّذي جاء به، أنّ سبعين عاماً من الحفريّات المكثّفة في أرض إسرائيل لم تُعطِ أيّ دليل على صحّة «أيّ شيء» جاءت به التّوراة، نصاً:

بعد سبعين عاماً من الحفريات المكثّفة في أرض إسرائيل توصّل علماء الآثار إلى نتيجة مُخيفة: لم يكن هناك أيّ شيء على الإطلاق، حكايات الآباء مجرّد أساطير، لم نهبط إلى مصر ولم نصعد من هناك، الباحثون والمهتمّون يعرفون هذه الحقائق منذ زمن، أمّا المجتمع فلا.

إنّ معظم العاملين في الأبحاث العلميّة في مجالات التّوراة والآثار وتاريخ شعب إسرائيل الّذين كانوا يبحثون عن أدلّة ميدانيّة لإثبات صحّة حكايات التّوراة، يوافقون الآن على أنّ مراحل تشكّل شعب إسرائيل كانت مختلفة تماماً عمّا ورد في التّوراة.

من الصّعب قبول هذا الأمر، ولكنّه من الواضح للباحثين اليوم أنّ شعب إسرائيل لم يمكث في مصر، ولم يته في الصّحراء، ولم يحتلّ البلاد بحملة عسكرية [(2)](#) .

كذلك سنتغاضى عن عمود السّحاب الّذي كان يقود «مسيرة الخروج» نهاراً، وعمود النّار الّذي كان

يُنير الطّريق ليلاً، لا لأنّنا على يقين بأن هذا العمود كان نتاج ثوران بركان يبعث أدخنته في شكل عمود سحاب نهاراً، وفي شكل شعلة ممتدة من اللّهب - عمود نار - ليلاً، وإنّما لأنّ قصة الخروج من مصر صادفت الزّمن الذي كانت «المعجزات» فيه تمشي يبين الناس على الأرض!.

ولكي تكتمل الصّورة في الذّهن، فعدد العبرانيّين الّذين ضمّتهم رحلة الخروج - حسب ما جاء بالتّوراة - ستّ مئة ألف رجل عدا الأولاد والماشية الّتي أورد النّص التوراتيّ أنّها كانت «وافرة جداً».

فارتحل بنو إسرائيل من «رعمسيس» (2) إلى سكّوت نحو ست مئة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد، وصعد معهم لفيف كثير أَيضاً مع غنم وبقر ومواشٍ وافرة جدّاً، وخبزوا العجين الّذي أخرجوه من مصر خبز ملّة فطيراً إذ كان لم يختمر، لأنّهم طُردوا من مصر ولم يقدروا أن يتأخّروا فلم يصنعوا

لأنفسهم زاداً [خروج 12/ 37 - 40].

وتحليل الأقصوصة تلك يثير تساؤلاً يمكن اتّخاذه «مفتاحاً» للدخول في لُبّ «الحكاية» للكشف عن أساسها الأسطوريّ، فمن الأقصوصة! أن العبرانيّين (خبزُوا العجين الّذي أخرجوه من مصر ملّة فطير لأنّه كان لم يختمر)، وأنّهم (لم يقدروا أن يتأخّروا فلم يصنعوا لأنفسهم زاداً) والّذي يأخذ العجين «دون اختمار»، كذلك الّذي لا يجد (فرصة / وقتاً) ليصنع لنفسه زاداً، هو إنسان على عجلة من الأمر، ليس لديه وقت حتى لإعداد الزّاد.

فإن أضفنا تلك «العجلة» - وهي في الحقيقة هَرْولة - إلى ما كان ليلة «الخروج» الّتي طالعتنا التوراة بأنّها قد بدأت «ليلاً» - في الليلة نفسها قد عاد موسى وهارون ليلاً وقال قوموا أخرجوا من بين شعبي أنتما وبني إسرائيل جميعاً، خذوا غنمكم وبقركم كما تكلّمتم واذهبوا [خروج 12/ 33] - تراءى سؤال يلحّ في الطّرح، والسّؤال المطروح -

وراء تلك القصة، هو عن الطّريقة الّتي تمّ بها (تجميع) ستّمائة ألف رجل، عدا الأولاد والبقر والغنم والمواشي الوافرة جداً [خروج 12/ 38] في ليلة واحدة ومن تجمّعات تقطن مساحات شاسعة من الأرض شرقي الشمال من مصر، في زمن كان السّير على الأقدام هو وسيلة الانتقال الوحيدة، كذلك لم يكن هناك ثمّة وسيلة للاتّصال بين «قرية وأخرى» سوى بمبعوث على قدمين؟ فإن قيل بأنّ رؤساء العشائر الّذين كان يجتمع بهم موسى هم الّذين قاموا بعملية «التّجميع» تلك، تساءلنا عن المكان الذي «تجمع» فيه هؤلاء (المليون) بمتاعهم وبقرهم وأغنامهم ليبدأوا من مكان التّجميع رحلتهم؟ بل كيف تمّ «إحصاء» الجمع ومعرفة عدده وكم استغرق ذلك من الوقت و (العجين لم يختمر!)؟.

فإن كانت القصّة التوراتيّة ـ عن الخروج العبرانيّ من مصر ـ أسطورة، فليس وراء كوْنها كذلك إنكار لرحلة الخروج العبرية من مصر، فالخروج العبراني

من مصر حقيقة، لكنّه ليس الخروج الّذي أحالته التوراة إلى اسطورة، فالعبرانيّون وفدوا إلى مصر «شتاتاً» وفي تجمّعات صغيرة. فهم أصلاً من البَدْو الرحّل الّذين ما أن تضيق بهم الأرض حتى يغادروها. وقد ثبت أنّ موسى - الّذي قيل بأنّه قاد رحلة الخروج - وُلد على أرض مصر بعد أن كانت الجماعات العبرانية قد استقرت عليها بما يزيد على الثلاثمائة سنة. ويرجّح بعض الباحثين أن عدد العبرانيين الّذين ضمّتهم رحلة الخروج كان لا يتجاوز عدّة آلاف تجمعهم قبيلة واحدة كانت تعيش في تجمّع منعزل عن المصريين. فلمّا كان الخروج تسلّلوا في جماعات صغيرة تتبع بعضها بعضاً، آخذين الطّريق غربي البُحيرتين - المُرّة الصّغرى والمّرة الكبرى - إلى الامتداد الأرضيّ بين مصر وسينا شماليّ (كليسما) - السويس حاليّاً - فعبروا - أرضاً - إلى سينا ثم اتّجهو إلى الجنوب بمحاذاة الشّاطىء الشرقيّ للخليج وصولاً إلى (جبل نَخْل)

الّذي انحرفوا منه شرقاً - في نصف دائرة إلى بئْر (الرّقبة) فمُوثاد، ومنها انحرفوا شمالاً في اتّجاه النّقب.

الطريق الذي سلكه العبرانيّون في رحلة خروجهم من مصر

والبحر الّذي تُسميّه التّوراة «بحر سُوف» وتجعل من شاطئه مكان حصار جيش فرعون للعبرانيّين حين كلّم الله موسى بأن يَمُسّ البحر بعصاه فانفتح طريقاً عبر منه «شعب الله» ثمّ انطبق فأغرق فرعون وجنوده [خروج 14/ 28] هو ذاته البحر الّذي أغرق الجراد الّذي كان الربّ قد سلّطه على

أرض مصر فأباد زروعها.

وموقع هذا البحر في التّوراة - حين إبادة الجراد والعبرانيّون مستقرون في بيوتهم على أرض مصر - شرقيّ الأرض الّتي كانوا عليها: فردّ الله ريحاً - [غربيّة] - شديدة جدّاً فحملت الجراد وطرحته إلى بحر سُوف [خروج 10/ 9]، وبالمنظور الجغرافي فهذا البحر هو ما تشغل مكانه الآن» البحيرة المُرّة الكبرى «وهي البحيرة الّتي لم تكن قاطعاً للطريق الّذي قالت التّوراة بأنّ الربّ قد حدّده لرحلة الخروج - بعيداً عن الطّريق لأرض الفلسطينيين القريب [خروج 13/ 8]. فاتّجاه الرّحلة حسب الطّريق الذي حدّده الرّب، وكان يقود الرّحلة فيه بنفسه - عمود سحاب نهاراً، وعمود نار ليلاً، كان إلى «جنوب سينا» وليس إلى «شرقها»، ومن ثمّ فلم يكن هناك داع لعبور البحيرة، الّتي كانت آنذاك أحراشاً يمكن اجتيازها خوضاً بالأقدام.

فإن كان إله اليهود (يَهُوه) قد انفصل بالتباعد

الزّمني، والانسلاخ الجغرافي، عن جذوره المَحليّة كإله للبراكين في سينا، فأصبح بهذا الانفصال محجوباً وغير منظور، فإنّه على الرّغم من ذلك لا يزال موصولاً بما يعيده للأصل الذي كان عليه، فتابوت العهد تعود فكرته إلى مساكن آلهة النّيل المتنقّلة في مصر القديمة، وآثار السّحر التي اكتظّت بها الأسفار والمزامير جُذورها مصريّة قديمة، وقصّة الطّوفان أسطورة بابليّة، فإذا أضيف إلى ذلك أن اليهوديّة قد أخذت عن الفنيقيّين اسم (بعل) إله الفنيقيّين، كما أخذت عن الآرامية اسم (حوّاء) الّذي كان مقدّساً ويطلق على أمّ الأحياء (Khawa) [1] أظهر ذلك خليط الأديان الّذي شكّل تلك الديانة.

زرادشت

لديّ فكرة مُدهشة ستُريحك قليلاً من عناء تتابع الانتقال من «طيبة» المصريّة غرباً إلى «جان

هارا» الهندية شرقاً.. لن يكلّفك الأمر شيئاً، فقط.. أغمض عينيك، وأطرح جانباً كلّ ما حولك من منجزات حضارة العصر، لا كهرباء، ولا سيّارة، ولا مُدن مخطّطة.. بل - لا قميص ولا بنْطال، مجرّد «إزار» يلتفّ حول الخاصرة ويُسدل بطرفه على أحد الكتفين، وعِوَضاً عن «الحذاء» سنجرّب التقشّف وننتعل «الخفّ» القديم كما كان عليه أجدادنا فإن كانت الدّهشة قد بلغت بك حد التّساؤل عمّا أصاب «رأس» الكاتب فدعاه إلى تلك «الشطّحة»، قلتُ لك: انتظر، أفَلا يسرّك أن تطوي الزّمن - وراء - إلى ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة، وأن تعبر المكان - من ساحة وجودك - إلى أدغال «سارجاريتا» ببلاد فارس القديمة؟، فإن قلت، ومالي بذلك.، قُلت لك، إنّ ما ينقله التّعبير بالكتابة ليس شيئاً يُذكر إن قُورن بما تعطيه الرّؤية المباشرة. وعلى سبيل المثال، فقد قلتُ لك سنعود إلى الوراء ثلاثة آلاف سنة لنرى «سارجاريتا» أفهل يكفي هذا القول للانتقال بك إلى

جماعات ما وراء هذا الزّمن بتلك البقعة من الأرض لمعايشتهم؟، تَنْظُرهم، وتشمّ رائحتهم، وترقبُ التفاتاتهم إليك؟ الذي يعطيك تلك المُعايشة، أن تُغْمض عينيك.. وأن تحرّر نفسك من «نفسك» تاركها تنساب طافية على تموّجات «الوَسَنْ» يحطّ بك قبالة «الكهف».. الّذي هناك قريباً من «هِيتَات» في فارس القديمة، فإن اقتربت، فتمهّل، فتلك «الكوْمة» الّتي ترتجّ تحت خِرَقِها البالية هي «رسُول الله» الموحى إليه بخاتمة الرّسالات السّماوية.. «زرادشت».

لا أحد يعرف من أين جاء، فبعضهم يقول بأنّه جاء من شرقيّ إيران، وبعضهم يحتد على التّعبير بكلمة (جاء) ويقول بأنّه «وجد» - هكذا، هائماً في البريّة، يقتات من ثمار أشجارها، فإن لم تكن الثّمار فَمِن «أوراقها»، شيخ أحناه «الهِرَم» وغطّته الأسمال، فلمّا لم يعرفه النّاس، وأرعدتهم هيئته، ظنّوه طائف «شرّ» يطوف بهم فطاردوه، لكنّهم حين اقتربوا منه

أدهشهم إشراق وجهه بالنوّر فالتفّوا من حوله، فلمّا «كلّمهم» اخترق بكلماته الصّدور فباتوا يأملون «برَكته».. تراهم يتبعُون خُطاه فيقتربون لتدرك الأيدي «إزارَه» للفوز بلمسته، فمن لم تدُرك يداه «الإزار»، ففيما تخلّف على الرمّال من أثر «خُفّه»، البديل الذّي يمكن «التبرّك» به.

يعود تاريخ «زرادشت» إلى الفترة (628 - 551 ق. م) حين كانت بلاد الفرس تدين بديانة غامضة تختلط فيها «الكهانة» مع السّحر، فاستخلص لنفسه من المهمّشين في المجتمع أتباعاً طاف بهم يدعو لنبذ العبادة الوثنية، معلناً أن الله» قد أرسله لهداية النّاس بالدّين الحق وبما (يُوحي) به إليه، فالله، إله واحد لا شريك له هو (أَهُورَا مازْدا) إله «السّموات والأرض»، «نور من نور»، وأنّ قُبَالته يقف الشيّطان (أَهْريمان) إله «الظلام» ومَا البشر إلّا مخلوقات أُلْقِيَ بين القُوّتين لتختار الطّريق إلى أيهما، وفي النهاية تكون (القيامة) فيبُعث الأموات

في يوم هو(يوم الدين) الّذي سيقام فيه (الميزان) لوزن الأعمال من خير وشر، فيدخل الله جميع الصّالحين (الجنّة) يُطالعون «النّور» في وجه «أهُورا مازْدا»، ويُسَاق الأشرار إلى هاوية «الظّلام الأبديّ» في جهنّم ذات الطّبقات السّبع.

كانت السّاحة في بلاد فارس القديمة مليئة بـ (الآلهة)، فكلّ غامض من ظواهر الطّبيعة كان له إله، وكانت الصّدارة بين تلك الآلهة لإلهين هما (ميثراس) و (أناهيتا) ولكل منهما «كهنته» ممّن يدّعون العلم بالأسرار الّتي ينسجونها ليلاً، ويبيعونها للنّاس نهاراً، ولمّا كانت «الزّرادشتية» قد بدأت طريقها بالدّعوة إلى نَبْذ كُلّ الأديان الوثنيّة والإيمان بإله واحد رمزت إليه بأنّه «نُور السّماوات» فقد اهتزّت الأرض تحت أقدام الكهنة الّذين انصرف النّاس عنهم إلى الدين الجديد، فاشتعل غضبهم وطافوا يؤلّبون «العامّة» ويبثّون فيهم الكراهية للدّين الجديد وصاحبه، فطارد النّاس

«زرادشت» ممّا اضطرّه إلى الهرب، وفي موطنه الجديد وجد حاكماً محلياً يُدعى (فشتاسبا) آمن بدعوته وآواه فأصبح بتقاربه من هذا الحاكم «أعز مَنْعة» وأكثر أنصاراً، بما هيّأ للفكرة قوة الدّفع في كلّ الاتّجاهات حتّى عمت بلاد فارس بكاملها.

وقد تزّوج «زرادشت» في مهجره، وأنجب بنتاً وولدين، وتقول الوثائق إنه قُتل في سن السبعين [(1)] والكتاب المقدّس عند الزرادشتية هو (الأبِسْتَاق) وهم يؤمنون بأنّه (وحْي) من الله إلى زرادشت، غير أنّ تفحّصه يقطع بأنّ ما به هي شذرات تمّ تجميعها من كتاب معروف باسم «زَنْدا فيستا» الّذي قال عنه المؤرّخ الروماني (بليني) بأنّه كان يضمّ في الأصل مليونَيْ آية، وأنّ نصه الأصلِيّ قد أُودع مكتبة (برسيوليس) الكبرى مكتوباً بحروف ذهبيّة على اثنتي عشرة رُقعة من جلود البقر [(2)].

والزرادشتية تدعو النّاس إلى إله (واحد)، وجوهر

معرفة الله عندها هو «التّفكير في خَلق السّموات والأرض» إذ إنّ الحياة - بنَسقها ونِظَامها - كفيلة بأن تُلهم الإنسان بأنّ اللّه هو الموجود الأعظم والأفضل والأسمى [ج. ج. مودي - التعاليم الشفهية للديانة الزرادشتية - بومباي 1962 ص / 6 وما بعدها].

وتعتقد الزّرادشتية أنّ تاريخ العالم هو تاريخ الصّراع بين «الله» و «الشّيطان» الّذي تسميه (أَهْريمان)، وينقسم هذا التّاريخ إلى أربع فترات تمتدّ كلّ منها ثلاثة آلاف سنة، وأتباعها يقولون بأنّه في الفترتين الأولى والثانية كان الله والشّيطان وجهاً لِوَجْه يُعدّان العُدة لبدء الصّراع بينهما، وفي الفترة الثالثة نشب الصّراع فاخترق الشّيطان استحكامات السّماء وهاجم الإنسان الأوّل، والحيوان الأوّل بالموت والمرض، وفي الفترة الأخيرة الّتي عليها العالم الآن - آن ظهور الفكرة - يحاول الشّيطان أن يدمّر أعمال الله، غير أنّه في النهاية سيلقى الهزيمة

[(1)](#) .

فإن كنتَ قد عملت بالفكرة - المدهشة- الّتي فاجأتُك بها في بداية الحديث عن زرادشت، وحططت - بخيالك - على أرض الزرادشتية في فارس القديمة، فمن المؤكّد أنّك ترى الآن «الحشد الكبير» الّذي يحتلّ الانبساطة الممتدّه أمام الربوة العالية...، هُناك!، ومن المؤكّد - أيضاً - أنّ دهشتك قد بلغت مداها حين اكتشفتَ أنّ الناس في هذا الحشد يؤدّون (صلاة الظّهر) خلف النبي زرادشت، فظننت أنّ هؤلاء النّاس قد اخترقوا الزّمن إليك من بين سطور ما تقرأ، فاكتظت بهم ساحة صلاة (ظُهرٍ) مُعاصِرة!، لا عليك، فلم يُصِبْك سوء، فقد كان الزرادشتيون يؤدّون في اليوم خمس صلوات هي، صلاة الصّبح (كاه هَاون)، وصلاة الظّهر (كاه رَقون)، وصلاة العصر (كاه أريون)، وصلاة اللّيل - المغرب - (كاه عِيسُوه)، وصلاة الفجر (كاه أشهر)، وكانت لديهم صلوات خاصّة بالمناسبات كالصّلاة على «الميت»

وصلاة «العيد» [(1)]، وهي الصّلوات نفسها التي يُؤديها المسلمون إلى اليوم.

وإضافة إلى ذلك فقد كان الزرادشتيّون يعتقدون في «البعث» بعد الموت، ويوم هذا البعث هو (يوم الدّين) فيأتي الإنسان مُحملاً بفعاله في الدنيا، ويكون (الميزان) قد نُصب، فمَنْ رجحت حسناته على سيّئاته سِيقَ إلى النّعيم في (الجنّة)، ومن رجحت سيّئاته على حسناته سِيقَ إلى الجحيم في جهنّم ذات الطّبقات السّبع [(1)].

مشهد ليوم الحساب لدى المصريّين القدماء... وأعمال الميت هي التي تحدد مصيره،

والمشهد من بردية مصرية .

فإن أمسكنا بالأسس في الدّيانة الزرادشتية وقارنّاها بأُسس الدّيانات الإبراهيّمية الثّلاث - اليهوديّة، المسيحيّة، الإسلام، وجدنا تطابقاً يكاد يكونُ تاماً.

- فمن أسس الدّيانة الزرادشتية أنّ الله إله واحد لا شريك له وأنّه «نور السّموات والأرض» والدّيانات الإبراهيميّة الثلاث تُشارك الزّرادشتية في هذا الطّرح.

- ومن أسس الزّرادشتية أنّها (رسالة السّماء) إلى العالمين في كلّ زمان، ومكان، وهذا الأساس هو ما تقوم عليه فكرة الأديان الإبراهيمية الثلاثة.

- ومن أسس الزّرادشتية أنّ (العالَم) مُكوّن من سبع سموات وسبع أرضين، وهو نفسه ما قالت به الإبراهيميّة.

- ومن أَسس الزّرادشتية فَرضُ (الصّلاة)، وهي مفروضة في الدّيانات الإبراهيمية، بل (هِيَ).. (هِيَ)، خمس صلوات لخمسة أوقات كما في الإسلام تماماً.

- ومن أسُس الزّرادشتية (فكرة الوحْي الإلهيّ) وهي أساسيّة في الدّيانات الإبراهيمية الثّلاث.

- ومن أسس الزّرادشتية، أنّ (الأبستاق) هو كتاب الله الموُحَى به إلى نبيّه زرادشت، وفي الدّيانات الإبراهيمية الثّلاث، كلّ دين له كتابه الموحى به.

وفكرة ظهور النّجم الّذي قاد بعض «المجُوس» إلى أورْشَليم ليدُلّهم على (المولود) الّذي وُلِدَ ملكاً لليهود و«مخلّصاً» للبشرية من أوْزارها، هي الأُسطورة «الآريّة» نفسها عن الإله «مترا» الّذي كان يُعبَدُ في بلاد فارس على هامش الزرادشتية. ففي المسيحية أنّ «نبوءَة» بمولد المسيح كانت تتردّد بين «العرّافين» بأنّ «مُخلّصاً» قد آن وقت

ميلاده، وأنّه حين يُولد يَظهر في السّماء «نجم» يهتدي به النّاس إلى المكان الذي سيكون فيه ميلاده، فإذا بالنّجم قد ظهر ورأَوْهُ في المشرق، وإذا به يتقدّمهم حتّى جاء ووقف فوْق حيث كان «الصّبيّ» فلمّا رأوْا النّجم فرحوا فرحاً عظيماً جداً - إنجيل متى - الإصحاح الثّاني (1-2)، (9-10) - وهي الأسطورة نفسها.

كذلك ففكرة «العَشَاء الرّبانّي» المعروفة في المسيحية بـ «التّناول»، وهو ما يتناول فيه الشخص المسيحيّ مع القسّيس خُبزاً وخمراً ليتّحد مع المسيح وذلك اعتماداً على ما قاله المسيح «منْ يأكُل جسَدي ويشربُ دمي يثبت فيّ وأنا فيه» - إنجيل يوحنّا (4، 56) - هي ذاتها الأسطورة (المتريّة) عن تذوّق البشر للهبة الإلهية، بأن يُشارك البشر «الكاهن» - الّذي يمثل الإله (مِثْرا) - في وجبة يتمّ فيها تناول الخُبز والخمر [انظر: المعتقدات الدينية لدى الشعوب - عالم المعرفة - العدد 173

ص 126، 127].

وإذا كانت «اليهودية» في مهدها قد خلطت بين فكرة التوحيد «الإخناتونية» المصرية، وبين فكرة الإله الذي يتجسّد فيحمّل في «تابوت» فانصرفت بفكرة الإله «المحلي» عن التفكير في البعث ونهاية العالم والحياة الأخرى بما فيها من نعيم وجحيم، فإنّ الأحْبَار يتّفقون على أنّ التّصوّرات اليهودية المتأخّرة عن الشّيطان والجحيم والحياة الأخرى والبعث ونهاية العالم وصورة «المخلّص» قد صبغتها الزرادشتيّة بصبغتها، ومن ثمّ كان لها أثرها في المفاهيم المسيحية [المرجع السابق ص 134].

وقد تسلّلت الزّرادشتية إلى شبه جزيرة العرب عبر أرْهَاط الفُرس الّذين وفدوا للتّجارة أو لـ قامة، ومنهم «سلمان الفارسيّ» الّذي عاصر النبي محمّداً، والّذي قالت عنه الشّيعة، إنّ عُمره كان فوق الأعمار، وإنّه عاش ويمرّ في عصور كثيرة لأنّه ـ في زعمهم ـ أدرك عيسى وعاصر محمداً، بل إنّهم

ينسبون إلى النّبي محمد أنّه حين شرح الآية (وإنْ تَوَلَّوْا يستبدل قوماً غيركم) سُئِل ومَنْ يُستَبْدلُ بنَا؟، فضرب النبي على منكب سَلمَان الفارسي ثم قَال: هذا وقومه، والّذي نفسي بيده لو كان الإيمان منُوطاً بالثريّا لَنا لَه رجلٌ من فارس [1].

كذلك كانت الزّرادشتية عميقة الأثر في فكر المتحنّفين من العرب قبل الإسلام فمَنْ سَمّتْهُم العرب «الفُضَلاء» وهم الذين نأوْا بأنفسهم عن العقيدتين اليهودية والمسيحية [2] وباتوا على دين إبراهيم بما خالطه من فكرة الزرادشتية كانوا هم الأساس في تقبل الطرح الإسلامي عن فكرة (الَوحْي) و (البعث) و (الجنة والنار).

ورقة بن نُوفل

هُو «القسّ» ورقة بن نُوفل بن أسد بن عبد العزّي بن قصيّ، من سادة العرب وقادتها، ومنها

رئاسته على جماعة مكّة، إذ هو رئيس «النّصارى» وقسّهم ومعلّمهم. فكان أصحاب الحاجات من أهل مكّة ومِنَ الوافدين عليها يسعون إليه طلباً للنّصيحة، أو التماساً للشّفاء.

وقد عُرف عن «قُصيّ» - جده - أنّه تولّى أمر الكعبة بعد أن طرد قبيلتي «بني بكر» و «خُزاعة» من مكّة، وأنّه جمع شتات القبائل المبعثرة في الشّعاب تحت لوائه وأطلق على هذا التجمّع اسم «قُريش» [3].

فاجتمع لورقة بانتسابه إلى «قُصيّ» عُلوّ المكانة، وبما لديه من العلم قَداسة القَدر، وتلكما أمران إن اجتمعا في شخص يعيش على أرض «قَفر» من المعرفة والتحضّر، تسيّد بهما، فكان «ورقة» في مُنعَزله بالغار الّذي يتعبّد فيه، وهو «غَار حِراء» مقصداً يتغيّاه سادة قريش ويؤمّون إليه [1] للتحنّث، والتّفكير في ما يقصّه عليهم، وما يتلوه على

أسماعهم من كتاب «النّصارى» الّذي يقوم بترجمته من اللّغة العبرية إلى اللّغة العربية.

ولم يكن ورقة هو الوحيد الّذي لديه كُتب الأوّلين يَقصّ منها، إذْ كان يُشاركه في «تصنيع» العقل العربيّ راهبان آخران هُما «بُحيري» الّذي اختار موقعاً تؤمّه القوافل حين الغُدو والرواح في (بُصرى) على طريق الشام، فكان المرتحلون في رحلتي «الشّتاء والصّيف» يعرُجون إليه يسمعون منه، ويَهبُونه الطّعام والشّراب.

وقد «أم» إليه النّبي محمد حين خرج مع عمه أبو طالب إلى الشام [2] كذلك كان «عدّاس النيْنَويّ» في خلوته وبين أتباعه [3] فشاعت عادة «التحنّث» الّتي اتبعتها قريش في الجاهلية [4] وأصبح هذا التحنّث مدارس للعرب يتلقّون فيها أخبار الأوّلين من أفواه باحثين في الدّيانات، قارئين ما جاء بكُتبها عن السّماوات والأرض ويوم الدين [5] .

ولأنّ «كتاب النّصارى» - بلُغَة العرب - يتكوّن من كتابين، أحدهما هو (العهد القديم) وثانيهما هو (العهد الجديد) أو الإنجيل - وكان العهد القديم قد تضمّن التّصور (اليهودي) لعملية «الخلق» وإرسال الرّسل وديانات السّابقين بما تسلّل إليها من فكر الدّيانات الأخرى في الهند وفارس ومصر، فقد كان مُتاحاً لمن يختلي بالقسّ وَرقة أو بأيّ من الرّاهبيْن بُحيْري وعدّاس، أن يسمع فكراً يعود بجذوره إلى آفاق بعيدة من حيث المكان ومن حيث الزمان.

على أنّ «ورقة بن نوفل» - بمدرسته الفكريّة هو ما يستحقّ العناية، إذ كان إلى جانب كَونِه «قِساً ومعلّماً» صاحب دعوة يسعى بها لنشر «الآريوسيّة» - مذهب مسيحي - بين العرب ليقف بهم في مواجهة «المذهب الملكيّ» الذي كان قد اعتنقه «مرقيانوس» - الملك - وعمل على نشره بالقوّة الّتي بلغت حدّ القتل لمُعارضيه، وقصّة هذين المذهبين أنّه لم يكد يمضي القرن الأول على حادثة

«صلب المسيح» إلّا وقد أختلف أرباب الفكر المسيحي حول طبيعة المسيح، بشريّة هي أم إلهيّة، مَولودٌ من «مريم» حين وُلِد أم مولود من (الأب) قبل كلّ الدّهُور، ذلك لأنّ أساس العقيدة المسيحية قائم على أنّ «يَسُوع المسيح» هو ابن الله الوحيد المولود من (الآب) قبل كلّ الدهور، وأنّه مولودٌ غير «مخلوق» مُساوٍ للأب في الجوْهر، نزل من السّماء وتجسّد من الرّوح القدس، ومن «مريم العذراء» اتخذ شكله الإنسيّ من أجل خلاص البشر [(1)].

غير أنّ قسّاً مصريّاً يدعى «آريُوس» أعلن في النّاس أنّ طبيعة المسيح غير طبيعة الله وأنّهما ليس واحداً، فالإبن - المسيح، هو «الكلمة» والكلمة مخلُوقة، فهو مخلوق فوّض إليه «الأب» خلق العالم، والكلمة تلك تجسّدت من مريم ورُوح القدس «معاً» فصار ذلك «مسيحاً».

ثم أعقب «آريوس» قس آخر يدعى «نسطُورس»

أعلن في النّاس أنّ «مريم» ولَدَت «إنساناً» وليس إلهاً، وأنّ هذا «الإنسان» اتّحد بمشيئة الله، لا بِذات الله. وقد عمل هذا القسّ على نشر فكرته بأن كان يخطب في النّاس يوم الميلاد قائلاً: إنّ مريم وَلدَت إنساناً، وأنا لا أعتقد لابن شهر وشهرين وثلاثة الألُوهية، ولا أسجد له سُجودي لـ له [(1)].

ثم جاء بُطْرُك الإسكندرية «دِيسْقُورس» فقال بأنّ المسيح جوْهرٌ من جوهرين، وقَنُّومٌ من قنُّومين، وطبيعة من طبيعتين.. إلخ. فظهر بذلك المذهب «اليّعْقُوبي» الّذي عمل على مقاومته بقوّة السيف الملك «مِرْقِيَانُوس» غير أنّ هذا المذهب انتشر من مصر إلى القُدس وفلسطين.

وكان من بين أنصار المذهب «الآرْيُوسي» ـ الّذي يقول ببشَرية المسيح ويُنكر أُلُوهيّته ـ مَنْ أضاف إلى الفكرة الأساس في هذا المذهب حَاشية تقول بأنّ المسيح بِكَوْنِه إنساناً فهو «رَسُول»، وأنّ الله قد

حماه حين «عمليّة الصّلْب» فَشبّه به آخر صُلب بديلاً منه.

وكان «ورقة بن نوفل» من سَدنة هذا المذهب، فاعتكف على صياغته ونشره بين العرب الّذين رآهم على انشغال بأحاديث «الكهانة» وما تُوحي به شياطين الجن للشّعراء من «وادي عبقر» فبات يتمنّى وحياً يستعين به على ترسيخ مذهبه، وربّما كان ذلك هو ما دعاه إلى الابتهاج حين قال لابنة «عمّه» خديجة: قدّوس قدّوس. إذ كانت خديجة - زوْجُ النّبي - قد ذهبت إليه تُخبره عما أخبرها به النّبي حين عاد من الغار ينتفض فأخبرها بما رآه حين جاءه الملَك - جبريل - يقول له: إقْرأ.

تقول كتب السّيرة، بل تكاد تُجمع على أنّ «ورقة» حين سمع ما قالته له خديجة، وبعد أن رفع يديه إلى السّماء وقال: قدّوس قدّوس، قال لها: لقد جاءه النّاموس الأكبر الّذي كان يأتي مُوسى، وإنّه لنبي

هذه الأمة فقولي له فَلْيَثبُت [(1)] فلمّا التقى «ورقة» النبي قال له: والّذي نفسي بيده إنّك لنبيّ هذه الأمة، ولقد جاءَك النّاموس الأكبر الّذي جاء على مُوسى، ولَتكذبنّه، ولتُؤذينه، ولئن أنا أدركت ذلك لأنصرن الله نصراً يعلمه [(2)].

وقد أدرك «ورقة» بعثة النبي وجَهْره بالدّعوة، واستمرّ على قيد الحياة أربَع سنينَ بعد ذلك، وكان هو الّذي بشر بالنّبوة ووعد بأن يكون في نُصرتها، غير أنّه مات على «مسيحيّته» بما أثار التّساؤل حول موقفه!.

الفرع الثاني

استقلال الفروع

أُسطورة الطّوفان البَابلي (طُوفان نُوح)

أسْفرت عمليّات التّنقيب الّتي قام بها (سِيرْهِنري أوسْتن لِيَارْد) تحت تَل «كُيُونْجيك» على الضّفة اليُمنى من نهر دِجْلة - في مُواجهة مدينة المُوصِل الحديثة بالعراق - عن اكتشاف المدينة القديمة المعروفة في التّاريخ باسم «نَيْنوى».

ووسط أنقاض قصر الملك الآشُوريّ «بَانيبَال» (668 - 626 ق. م) كُشف عن مكتبة كبيرة من الألَواح الفُخَّارية من بينها معَاجم لكلمات سُومَريّة مقرُونة بمعانيها السّامية الآشورية، وكانت تلك الألواح تضمّ منْسُوخات وتجميعَات لنصُوص يَرجْع تاريخ كتابتها إلى سنة (200 ق. م) تقريباً.

وقد عثر بين هذه الألواح على أُثر لهُ قيمته المميّزة، إذ وُجدت مَلحَمة (جِلْجَاميش) التي تحكي (الأسطورة) البابلية عن «قصة الطّوفان» بكاملها، منقُوشة على اثنتي عشرة لوْحة تسجّل كلّ منها مُغامرة مُغايرة، وتتألّف الملحمة برمّتها من حوالي ثلاثة آلاف سطْر تحكي ما تصوّره إنسان ذاك العصر

عن العلاقة الغامضة بينه وبين الطّبيعة مِنْ حَوله [(1)].

ولأن (جلجاميش) أسطورة قديمة تغيّر مسرح أحداثها بمُرور ما يزيد على أربعة آلاف سنة، فإنّ إعادة بناء الأسطورة من جديد يقتضي إعادة بناء «مسرح الأحداث» وفقاً لما كان عليه الحال حين نَسْج الأسطورة ، لتقع أحداث (القصّة) على أرض تماثل الأرض الّتي أنبتتها، فيتوافق القَصُّ مع واقعه.

كان الفيضان في بلاد ما بيْن النّهرين هو العدوّ الّذي لا يرحم، فالفُرات نهر يتدفّق فوق السّهول - على عكس نهر دِجْلة المُجاور - الّذي خطّ لنفسه مجرى عميقاً، وكان - الفُرات - يفيض فجأة دُون إنذار في أواخر الرّبيع فيكتسح محاصيل الشّتاء الّتي لم تكن قد جُمِعَت، ويطْمُر - تحت الطّين - بُذور محاصيل الصّيف وهي في بداية إنباتها.

ولمّا كانت كارثة فيضان هذا النّهر تدهم بَغْتة، فلا تَرقّب، ولا اسْتعداد، فقد ظنّ الإنسان «السُّومريّ» أنّ (الإلهين) «نين جرشو» و «نيامين» - اللذين كان يعتقد أنّهما إلها الماء - قد أحَلّا به اللّعنة.

وعلى خلاف ما كان يعتقده المصريّون القدماء في إلههم (حَابي) إله الفيضان المصريّ، الّذي تصوّروه سنداً لهم، ومعيناً يُعينهم على الحياة بتوفير خبزهم، اعتقد سكّان بلاد النّهرين أنّ قُوى الطّبيعة مُمثلة في إلهي الماء شرّيرة، وكانوا على حق في ذلك، إذ لم تكن السّهول الّتي يُلقي إليها الفُرات بفيضانه أرضاً تصْلُح لإنشاء القنوات لتصريف المياه، فكانت جهود عملهم الجماعي في شقّ القنوات تضيع هباء، إذْ ينحسِر الفيضان وقد طَمَر كلّ ما صنعته يد الإنسان من قنوات وسُدود (1).

تهيّأت أرض الأسطورة فيما أقيمت عليه المدن السّومرية الأولى الممتدّة من أدنى النّهر إلى (بابل)

عاصمة بلاد ما بين النّهرين في الشّمال، فكانت حضارة السّومريين وليدة (سَهْل) لا يهْنَأ بالجفاف طويلاً، فإن كان، فمستنقعات مياه ضحلة تحُيط بها البِرَك الطِّينية من كلّ جانب.

وقد واكب ذلك ان كانت كُتلة الأرض في تلك المنطقة عديمة الاستقرار بعد (الانفتاق) الّذي تكوّن عنه الأخدود الفاصل بين شبه الجزيرة العربيّة وبلاد «فارس» - إيران الحاليّة - فيما يعرف بالخليج «الفارسيّ»، فكان تتابع الإنزلاقات الأرضية يُحدث زلازل عاتية ترتفع بها مياه «الأُخدود الخليجي» مكوّنة (تسُونَامي) يدفع مياه الخليج إلى داخل السّهل الأرضي، الموبوء أصلاً بالفيضان الفُراتيّ، فيتعاظم ارتفاع المياه، ويمتدّ الغرق إلى الدّاخل ليشمل أرض ما بيْن النّهرين بكاملها.

وعندما اكتشف الحفريون بقايا مدينة «أوْر» عاصمة سُومر، ووجدوا المدينة - القديمة قد أُحِيطَت بسُور يعصم داخلها عن خارجها، تبادر إلى ذهنهم

أنّ إنشاء هذا السّور كان لغرض دفاعيّ، غير أنّهم حين اكتشَفوا أنّ كافّة المُدن المقامة على شاطئ نهر الفُرات محاطة بأسوار مُشابهة - لا أثر لها في المدن المقامة بالدّاخل، تيقّنوا أنّ تلك الأسوار أُقيمت للاحتماء من فيضان النّهر المُباغت [(2)](#).

تلك كانت هي الأرض الّتي أنبتت (الأسطورة)، فماذا عن الأسطورة ذاتها؟.

كان للسّومريين آلهة متعدّدة، اتّصلت جميعها بالطّبيعة، وكان من بين آلهتهم من هُو «خيّر» يحبّ البشر كالإله [أَيَا EA] الّذي كان يَعْلم أسرار الآلهة الآخرين ويحذّر البشر من شُرورهم، وإلى جانبه كان الإله (أنكي) الّذي يقف نِداً لـ له «الغاضب» [إنليل]، وكان - على الأرض - إله يتمثّل في صورة بشرية ليُعلّم النّاس تعاليم الآلهة الأخرى هو الإله (أتراحسيس).

تقول (الأسطورة) إن الإله (إنليل) اشتدّ غضبه

على النّاس الّذين يزعجونه، ولا يعملون بما يأمر به، فأرسل عليهم الطّاعون، و (سبع سنين عجافاً) [(1)] إلّا أنّ الإله (أنكي) تمكّن من مُساعدة البشر لتجنّب تلك الكارثة، فاشتدّ غضب (إنليل) وقرر التخلّص من البشر بواسطة الطّوفان.

وقد عرف الإله [أيآَ EA] الّذي كان محُباً للبشر بمخطط «إنليل» فأخبر الإله (أنكي) بذلك، وطلب منه أن يُخبر [أتراحسيس] الّذي يعمل بين الناس على الأرض، بأنّ الطّوفان قادم، وأنّ عليه أن يَبْني سَفينة يجمع بها البشر لحفظ أرواحهم [(2)] فإذا ما جاء الطّوفان فعليه أن يتّجه بالسّفينة إلى [أوتنا بشيتم] - معناها البعيد - وينتظر حتى تنحسر المياه وتجفّ الأرض.

فلمّا استقرّت السّفينة على جبل (نُصير) وأراد [أتراحسيس] اختبار انحسار الماء عن الأرض، أطلق حمامة، لكنّها عادت، فعرف أنّ المياه لم تُكمل

انحسارها، فانتظر أيّاماً، ثم أطلق «سَنَوْنواً» لكنّه ما لبث أن عاد، فأُرسل غُراباً طار بعيداً ولم يعد.. فمكث أيّاماً، ثم عاد فأرسل الحمامة للمرّة الثّانية فأتت عند المساء وفى فمها ورقة زيتون فعلم أنّ المياة قد قلّت، فلبث سبعة أيّام آخَر وأرسل الحمامة فلم تعد (1).

والأسطورة - تكاد تكون بالنّص - هي الّتي جاءت بسفر التكوين في العقيدة اليهودية:

فقال الله لنوح نهاية كلّ بشر قد أتت أمامي. لأنّ الأرض امتلأت ظُلماً منهم. فما أنا مُهلكهم مع الأرض اصنع لنفسك فُلكاً من خشب جفر. تجعل الفُلْك مساكن. وتطليه من داخل ومن خارج بالقَار. وهكذا تصنعه [تك 6/ 13-15]، وحدث بعد السبعة أيّام أنّ مياه الطّوفان صارت على الأرض [تك 7/ 1].. وتكاثرت المياه ورفعت الفُلْك فارتفع عن الأرض [تك7 /17].. فتغطّت جميع الجبال الشّامخة الّتي

تحت كلّ السّماء [تك 7/ 19].. فمات كلّ ذي جسد يدبّ على ألأرض من الطّيور والبهائم والوحوش وكلّ الزّحافات الّتي كانت تزحف على الأرض وجميع النّاس. كل ما في أنفه نَسْمة روح حياة من كلّ ما في اليابسة مات فمحا الله كل قائم كان على وجه الأرض [تك7 /21 - 23].

وتستمر التّوراة في سرد القصّة فتقول بأنّ الله أجاز ريحاً على الأرض فهدأت المياه وانسدّت ينابيع الغَمْر وطافت السّماء فتوقّف الفَيْض ورجعت المياه عن الأرض رُجوعاً متوالياً [تك 8/ 1 - 4]، فاستمرّت المياه على الأرض مِئة وخمسين يوماً ثمّ استقرّ الفُلْك على جبال أَرَارَاط.. وفي العاشر أول الشّهر ظهرت رؤوس الجبال [تك 8/ 3 - 5].

والقصّة التّوراتية إلى هذا الحد لا تعطينا الإقناع بتطابقها مع الأسطورة «البابليّة»، غير أنّ هذا التّطابق يظهر جلياً في أحداث ما بعد ذلك:

وحدث بعد أربعين يوماً أنّ نُوحاً فتح طاقة الفَلك الّتي كان قد عملها وأرسل الغُراب فخرج متردّداً حتى نشفت المياه عن الأرض، ثم أرسل الحمامة من عنده ليرى هل قلّت المياه عن وجه الأرض فلم تجد الحمامة مقرّاً لِرجْلها فرجعت إليه في الفُلك [تك 8/ 6 - 9].. فلبثَ أيضاً سبعة أيّام أُخَر وعاد فأرسل الحمامة من الفُلك فأتت إليه الحمامة عند السماء وإذا ورقة زيتون خضراء في فمها فعلم نوح أنّ المياه قد قلّت على الأرض، فلبث أيضاً سبعة أيام أُخَر وأرسل الحمامة فلم تعد ترجع إليه أيضاً [تك 8/ 12] فكشف نوح الغطاء عن الفُلْك ونظر فإذا وجه الأرض قد نشفت [تك /8 - 13].

تطابقٌ غريب!، يقطع بأن العبرانييّن - اليهود - حين غادروا ما بين النّهرين كان تراثهم الفكريّ مشغولاً بالأسطورة السّومرية القديمة، فلمّا كانت كتابة التّوراة - بعد موسى - أضافوها إلى ما به من «حكايات» أخرى ونسبوها إلى الله.. افتراءً على

الله!.

وقد وردت قصة الطّوفان في القرآن تفصيلاً في الآيات (من 36 - 48) من سورة هُود:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلاَّ مَنْ قَدْ آمَنَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦). وَاصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧). وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (٣٨). فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٣٩). حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ (٤٠). وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِاسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (٤١). وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَابُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢). قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي

مِنْ الْمَاءِ قَالَ لاَ عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنْ الْمُغْرَقِينَ (٤٣). وَقِيلَ يَاأَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَاسَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٤)) [هود: 36 - 44].

وقد انتقلت (الأسطورة) بتفاصيلها إلى الفكر الإسلامي - عبر ما جاء عنها بسفر التّكوين، يقول الطّبري في كتابه - التّاريخ:

كان طُول سفينة نوح ألف ذراع ومائتي ذراع، وعَرْضها ستّماية ذراع، وكانت ثلاث طبقات، فطبقة فيها الدّواب والوحش، وطبقة فيها الإنس، وطبقة فيها الطّير، فلمّا كثرت أرْوَاثُ الدّواب أوْحَى الله إلى (نُوح) أنِ اغمُز ذَنب الفيل، فغمز فوقع منه خنزير وخنزيرة، فأقبلا على الرّوث، فلمّا وقع الفأر يحْرُز السّفينة - يقْرِضَه - أوحى الله إلى نوح أنِ أضْرب بين عيْنَي الأسد، فخرج من مِنخَره سِنّوْرٌ وسنورة فأقبلا على الفأر.

وقد بعث نوح بغراب يأتيه بالخبز فوجد جيفة فوقع عليها، فدعا عليه بالخوف، ثم بعث حمامة فجاءت بورق زيتون بمنقارها، وطين برجلها فعلم أنّ البلاد قد غرقت [(١)].

قصّة (طوفان نوح) في التّراث الإسلامي، هي نفسها القصّة الّتي وضعها (كهنة العهد القديم) في سِفْر التكوين - نقلاً يكاد يكونُ حرفيّاً، عن «الأسطورة» السّومريّة القديمة، فإن تشكّك مُعترض!، وكان يبتغي الحقيقة (مجرّدة)، ولم تكن المصادر المشار إليها بصُلب المتن وهو امشه كافية، فعليه أن يرجع إلى المصادر التّالية:-

(التاريخ يبْدأ من سُومر) لصمويل نوا كرامر، أيضاً (أساطير الشّرق الأوسط) - S.H.Hooke.
أيضاً: (أقدم الحضارات في الشرق الأدنى) - ج - ميلارث. فإن لم يكن كل ذلك كافياً فليرجع إلى (عقله) يسأله: إذا كان الإله - الله - هو الّذي أوْحَى

للتّعريف بمقدم الطّوفان، وكان هو الّذي أوْحَى ببناء السّفينة، فلِمَ لم يُوح بانتهاء المُهمّة وانحسار الماء وجفاف الأرض، وترك نوحاً - حائراً - يُرسل الحمامة تارة، والغراب تارة أخرى ليعرف عن طريقهما انحسار الماء، وجفاف الأرض؟.

أُسطورة أيّوب

وُجد اسم (أيّوب) في الوثائق المصرية القديمة مُدوّناً في ألواح العمارنة حوالى سنة (1400 ق. م).

ورغم ما يُقال بأنّ أيّوب كان شخصيّة حقيقيّة وُجدت على قيد الحياة في سنة (1700 ق. م) فإنّ سِفْر أيّوب حين كُتب كانت الشخصيّة في هذا السّفر شخصية أُسطورية (1).

”

وفي رأي بعض الباحثين أنّ قصّة أيّوب قد أُخذت

عن (بابل)، إذ عُثر في مكتبة «آشور بانيبال» بِنَيْنَوى على شذرات من أُنشودة تَروِي آلام رجل بار، وتتحدّث القصّة في تلك الأنشودة عن ملك أقعده المرض فبدا أمام النّاس أثيماً، غارقاً في الذّنوب يملأ الحزن نفسه، لا لشيء إلّا لأنه اعتبر نفسه مُعادلاً لـ له وَنِداً له فانتزع منه الإله كلّ ما يُبهج النّفس وأحاطه بالحزن الّذي قوّم به نفسه، فلمّا استقامت ظهر له الإله (مَردُوخ) في حلم ورَدَّ إليه «صحّته» وسعادته [(2)].

غير أنّ غالبيّة الباحثين يَرَون أنّ تلك الشّذرات «البابلية» كانت مجرّد إرهاصات للقصّة الّتي احتواها سِفْر أيّوب في الكتاب التّوراتيّ - «العهد القديم» - ، إذ تحوّرت كل الشّذرات على مرّ الأيّام لتصبح «قصّة شعبية» استطاع شاعر أن يصُوغها «مسرحية رُوحيّة»، إذ يظهر السّفر المكتوب عليه تلك القصّة وقد اقتحمه رجل يدُعى (إليهو) اقتحاماً جاء حَشواً بين السّطور وَبِلُغَة أقرب ما تكون إلى

(الآراميّة) ممّا يقطع بإضافة لاحقة لتطوير الحبكة [(1)](#) .

والقصّة معروفة، فقد تناولها الأدب العربّي شفهياً عن طريق (الرّاوي)، ونصوصاً مكتوبة بلُغَة القصّة أو الشّعر. إلّا أنّها إلى جانب ذلك - وهو الأهمّ - اقتحمت «أسفَار العهد القديم» في الدّيانة اليهودية، وذكرها «القرآن تفصيلاً» مُقرّراً بالوحي أنّ أيّوب كان نبيّاً [(2)](#) .

وحبكة القصة تدور حوْل مُراهَنة (الله) مع (الشّيطان) على إيمان (أيّوب)، فتحكي أنّ الملائكة مَثلُوا أمام الربّ وجاء الشّيطان في وسطهم، فسأله الربّ: مِنْ أين جئت؟ فأجاب الشّيطان الرّب وقال من «الجُولان» في الأرض، فقال الرّب للشّيطان، هل جَعلتَ قلبك على عبدي أيّوب لأنّه ليس مثله في الأرض رجل كامل ومستقيم يتّقي الله ويحيد عن الشر، فأجاب الشّيطان الربّ وقال: هلْ مجّاناً يتّقي

أيّوب الله؟، ألَيس أنّك سَيّجت حوله وحول بيته وحوْل مَالهِ من كلّ ناحية؟، باركت أعمال يديه فانتشرت مواشيه في الأرض، ولكن، أُبسُط يدك الآن ومُسّ كلّ ماله فإنه في وجهك يجدّف عليك، فقال الرب للشّيطان: هوَ ذَا كلّ ماله في يديك، وإنّما إليه لا تمتد يدك [أيوب 1/ 6 - 12].

فلمّا فشل الشّيطان في التّغلّب على أيّوب بتلك الأساليب عاد إلى الله يقول: جِلْدٌ بجلد، وكلّ ما لـ نسان يُعطيه لنفسه، ولكن أُبسط يدك ومُس عظْمه ولحمه فإنّه في وجهك يجدّف، فأسلم الله أيوب إلى الشّيطان بشرط أن يحفظ نفسه [أيوب 2/ 4 - 6] فضرب الشّيطان أيّوب بقُرحٍ مَلأت جسده، فكان يجلس وسط الرّماد يحكّك جسمه «يشققه» فتقول له امرأته: أنت مُتمسّك بعد بكمالك؟ فيجيبها، أألخير نقبل من عند الله والشر لا نقبل [أيوب 2/ 10]. غير أنّ تمسّكه ينفرط عنه بعد أن يكون لحمه قد تساقط فلم يعرفه مَنْ جاء لمواساته.

وهناء يخرج أيّوب عن صمته ويلعن اليوم الّذي وُلِدَ فيه [أيوب 3/ 1] فبعث الرب إليه «إليهو بن برخئيل» [32/ 2] يسأله: لماذا تخاصم الرب؟ إنّ الرب يؤدّب بالوجع.. ثمّ يظهر (يَهُوه) بنفسه لأيوب [38/ 1] ويريه طبيعة الخلق وحكمته فيتعلّم أنّ كلّ ما يبدو في الطّبيعة من ألْغاز وأسرار ما هو إلّا جُزء من خطّة الله، فيقول أيّوب: قد علمت الآن ولكنّي قد نطقت بما لا أفهم. فيردّ الربّ كلّ شيء له ليعيش بعد ذلك مائة وأربعين سنة يستمتع بأيّامه في مواجهة الشّيطان الّذي خسر «الرّهان» [(1)].

تقول «التّوراة» عن أيّوب:

وكان ذات يوم وأبناؤه وبناته يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر، أنّ رسولاً جاء إلى أيّوب وقال: البقر كانت تحرث والأُتن ترعى بجانبها فسقط عليها السّبئيون وأخذوها وضربوا الغلمان

بحد السّيف ونجوْت أنا وحدي لأخبرك. وبينما هو يتكلّم إذ جاء آخر وقال: نار الله سقطت من السّماء فأحرقت الغنم والغلمان وأكلتهم ونجوْت أنا لأخبرك.. وبينما هو يتكلّم إذ جاء آخر وقال: الكلدانيون عينوا ثلاث فرق فهجموا على الجمال وأخذوها وضربوا الغلمان بحدّ السّيف، ونجوْت أنا وحدي لأخبرك. وبينما هو يتكلّم إذ جاء آخر وقال: بَنوُك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر وإذا ريح شديدة جاءت من عبر القفر وصدمت زوايا البيت الأربع فسقط على الغلمان فماتوا ونجوْت أنا وحدي لأخبرك. فقام أيّوب ومزّق جبّته وجزّ شعر رأسه وخرّ على الأرض وسجد وقال: عُرياناً خرجت من بطن أمّي وعُرياناً أعود إلى هناك. الربّ أعطى والربّ أخذ فليكن اسم الله مباركاً [سفر أيوب 1/ 13 - 22].

والعنصر (الأسطوري) في القصة التّوراتيّة عن أيّوب مُطل بشكل واضح فالنصّ يبدأ بناء القصة

بحدث مجهول «الزّمان» ومجهول «المكان»: وكان [ذات يوم].. يأكلون ويشربون خمراً في [بيت أخيهم الأكبر] فلا اليوم الّذي حدثت فيه الواقعة معروف - [ذات يوم] - ولا المكان هو الآخر معروف - [في بيت أخيهم الأكبر] - الّذي أوردته القصة مكاناً لواقعة أخرى منفصلة في زمانها ومكانها، والنّص يتكون من أربع «حكايات» قصّها أربعة «رُسل»، حكاية البقر والسّبئيين، وحكاية النّار والغنم، وحكاية الكلدانيّين والجِمَال، وحكاية الرّيح والبيت، والحكايات الأربع تحكي أربع وقائع منفصلة لارباط بينها سوى «موت الغلمان» في كلّ واحدة، فالغلمان في القصّة ماتوا «أربع مرّات» في أربع وقائع. فإن قيل بأنّ كلّ واقعة كل لها غلْمَانها، وبأنّ هؤلاء الغلمان «الّذين ماتوا» ليسوا هم الّذين كانوا يأكلون مع أيّوب - في بيت أخيهم الأكبر - حين وفدت الرّسل، فإنّ الواقعة الأخيرة [بَنُوك وبناتك كانوا يأكلون ويشربون خمراً في بيت أخيهم الأكبر] هي

استحضار - اختلّ فيه بناء النّسق، إذ ترَى «أيّوب» حاضراً الافتتاحيّة «غائباً» في الخاتمة ليتسنى فصل الواقعتين وانفراد كلّ منهما بحدث تختصّ به.

والقاصّ - ناسج الأسطورة - استغلّ عامل «الزّمن» في تصاعد الأحداث للوصول إلى قمة «المأساة» باستعمال عبارة (وبينما هو يتكلّم)، إذ تُعطي تلك العبارة أنّ الرّسل الأربعة، الّذين جاءوا بأخبار الكوارث قد وَفدُوا تباعاً في مجلس واحد فأدرك ثانيهم أوّلهم هو يتكلم، وأدرك ثالثهم الثّاني وهو يتكلّم، وأدرك الأخير الثّالث وهو يتكلم، بينما «أيّوب» يُنْصت للحديث «المتداخل» في سياق متّصل لتتراكم الوقائع الأربع في «تصاعد» في مصيبة إلى ثانية إلى ثالثة إلى رابعة ليبلغ المدى به حدّ الانفجار. وهذا الأسلوب في (الكتابة القصصيّة) كاشف عن «الصّناعة» في تخليق الأحداث، غير أنّ ناسج الأسطورة غاب عنه - حين التّصنيع - أنّ أماكن الأحداث منفصلة بما كان يقتضي تقطيع الزمن

بين كلّ حادثة وأخرى وليس استمراره [(1)].

وقد وردت قصّة أيّوب في «القرآن» تارة بإيجاز وتارة بتفصيل، فالآيتان (83 - 84) من سورة الأنبياء تُوجزان القصّ في إشارة عابرة: (وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)).

وقد اكتظت كُتب التّراث الإسلامي - من سيرة وتاريخ - بتلك القصة بتفاصيل مختلفة، فالّطبري يقول - في تاريخه - بأنّ أيّوب هو أيّوب بن مُوصى بن رعويل بن العِيص بن إسحق بن إبراهيم، وأن «إبليس» لعنه الله سمع تجاوب الملائكة بالصّلاة على أيّوب، وذلك حين ذكره الله وأثنى عليه، فأدركه البغي والحسد، فسأل الله أن يُسلّطه عليه ليفتنه عن دينه، فسلّطه الله على ماله دون جسده وعقله، فجمع

إبليس الشّياطين وأرسلهم إلى ماله كله فأهلكوه، فتذرّع أيّوب بالصبر على ما ابتلاه به الله. فلمّا رأى ذلك إبليس طلب من الله أن يُسلطه على ولده فسلّطه عليهم فأهلك ولده كلهم، ثم جاء إبليس مُتمثلاً في صورة مُعلّم كان يعلّمهم الحكمة وجعل يُواسيه حتى رقّ قلب أيّوب فبكى، وقبض قبضة من تراب أهَالَها على رأسه، فسُر إبليس بذلك، لكنّ أيّوب عاد فتاب واستغفر فرحمه الله ورفع عنه البلاء وردّ عليه أهله وماله ومثلهم معه وقال له: أُركُض برجلك هذا مُغتسل بارد وشراب فاغتسل به فعاد كهيئته قبل البلاء في الحسن والجمال [(1)].

ولن نناقش الطّبري في شيء من القصة الّتي أوردها سوى الطّريقة التي ردّ بها الله على أيّوب أهله الذين ماتوا جميعاً - [فسلّطه عليهم فأهلك ولده جميعاً] - فنسأله: هل أحياهم الله بعد أن ماتوا؟ والسّؤال ليس وراءه إنكار لقدرة الله على إحيائهم، وإنما وراءه أنّ هذا الإحياء مُعجزة، لو كانت قد

حدثت لكانت هي الحدث الرئيسيّ في القصة، ولكان البلاء الّذي حلّ بأيّوب حَدثاً هامِشياً يحتجب وراء «إحياء» الأولاد وردهم إليه؟، والقصة «الاسلامية» عن أيّوب تكاد تنطبق على القصّة الّتي أوردها «سِفْر أيّوب» في العهد القديم، وهي بأصولها منقولة عن الأدب «البابلي» بصدى يتردّد عمّا كان قد سبق تدوينه من الأدب المصري القديم فيما احتوته ألواح «تلّ العمارنة سنة (1400 ق. م).

فإن قيل بأنّ القصّة حقيقية بوُرودِها في التّوراة وهو كتاب مقدّس، رُد ذلك بأن قَصّة «الطّوفان» قد وردت هي الأخرى في التّوراة بينما هي أسطورة سُومرية تحتويها ملحمة جَلجاميش الّتي ما زالت موجودة إلى الآن لمن يريد أن يُطالعها.. كذلك فالنصّ التوراتي لا يتجاوز كونه «حَكْياً» عن واقعة لا زمان لها ولا مكان: (كان رجل في أرض عُوص)... [أيوب 1/ 1]، فمتى كان؟ وأين تقع أرض عوص تلك؟، وإذا كانت القصة التوراتيّة تُشير

إلى أنّها (الجُولان) - «فقال الربّ للشيطان من أين جئت» - الرب هُنا لا يعلم المكان الّذي جاء منه الشّيطان ولذلك يسأل الشيطان عنه، فما هذا الربّ؟ - يقول الشيطان، من «الجولان» فمتى كان بالجولان - (شمالي فلسطين) - أرض تدعى أرض «عوص»؟.

أسطورة «سَرجُون الأكَدِيّ» - سَلة أمّ مُوسى

يتحدّثون عن سِحْر الشّرق وهُم بعيدون عن «أُورْ».. كيف؟، ولم تضمّهم ساحة التّجلي في معبد إله القمر ننار (سن)، وأميرات القصر - اللّواتي أصبحن بلمسة ريشة الكاهن الأعظم.. مُنذ لحظة، كاهنات قد تجرّدن من الإزار الأخير حوْل الوَسط، واصطففن تنساب خُيوط النّدى على صدورهنّ، في رحاب أنفاس «الفُرات» المبثوثة عند الفَجْر بريقاً يَلْثُم وجه البدر.. الّذي هبط تواً يَسبحُ على تراقصات

النّور الحالم، كلّ الطبيعة في صمت ينساب منه تتابع نبض التّرقّب!، أكاليل ضبابيّة تحيط الوجوه وتَشِي باكتمال اللّوحة لتبدأ المسيرة.. وقد بدأت بالفعل، فقد رفعت الأميرة (أنجيدُونا) - ابنة الملك سَرجُون، يدها، فأطلّت زهرة السَوْسن لأعين «الحُور» المترقبة.. وبدأ عزف الأنشودة:

أنا سَرجُون الملك العظيم، ملك بلاد أَكَدْ.

كانت أمّي كاهِنة عُظمى في الأكدية.

ومدينتي أو زبيراتواتو.

الّتي تقع على ضفاف الفُرات.

لقد حلمتني أمّي وولدتني سرّاً.

ووضعتني في سَلة من البَرْدِي.

ختمت غِطاءَها بالقير.

ومن ثمّ رمتني في النّهر الّذي لا يغمُرني.

فحملني النّهر وأخذني إلى العرّاف أكي.

فأخذني العراف أكي أبناً له.

وجعلني العرّاف أكي بُستانيّاً عنده.

وعندما كنت بستانيّاً منحتني عَشتَار حُبّها.

فاضطلعت بمهمّة الملوكية أربعاً وخمسين سنة.

تقول الأسطورة الّتي وُجدت منقوشة على ألواح تعود إلى العصر البابليّ الحديث (750ق. م) والّتي يُرَجّح الباحثون أنّها مستنسخة من ألواح أقدم كانت تتضمنّ النّص الكامل لقصة مولد الملك (سَرجُون)

بأنّ أمّ سَرجُون كانت كاهنة عُظمى - في السّومرية والأكادية - ومن ثم فلم يكن لها حقّ الزّواج وبالتّالي الإنجاب، كما أنّ قوانين الكهانة كانت تُوجب عليها التّعفف وتحوطها بقداسة تقتضي الحكم على من يتّهمها بتهمة باطلة بالجلد والحرق. غير أنّها استجابت لنداء الجسد فولدت ابناً غير شرعي كان عليها أن تتخلّص منه [(1)].

وقد تخلّصت الكاهنة من وليدها بالطّريقة الّتي جاءت بالنصّ، إذ وضعته في (سلّة) من البَرْدِي وختمت غطائها بالقير - القار - كي لا ينفذ إلى داخلها، وتسلّلت إلى نهر الفُرات فطرحتها به ليحملها التيّار - إلى الشاطىء - بعيداً، فيراها عرّاف يدعى (أكي) ويلتقطها. فلمّا رآى الغلام بالسّلة سُرّبه فربّاه وجعله ابناً له، وبمعونة «عَشتار» - إلهة سُومرية، عظُم قدر الغلام فصار ملكاً حكم البلاد أربعاً وخمسين سنة.

والأسطورة (هِيَ.. هِيَ) ما أوردته التّوراة عن مولد «مُوسى»، ففي الحكاية التّوراتية، أنّ أم موسى وقع عليها رجل من بيت «لاوي» فحبلت منه وولدت ابناً سرّها جماله، فخبأته ثلاثة أشهر، فلمّا خافت افتضاح أمره ـ أمرها ـ صنعت له «سلّة من البَردي» وطلتها بالزّفت ـ القار، ووضعته فيها بين الحَلفاء على حافّة النّهر، وعهدت به إلى أخته لترقب مصيره، فنزلت ابنة فرعون إلى النّهر لتغتسل فرأت السلّة بين الحلفاء فأرسلت أمَتها وجاءت بها، فلمّا رأت الولد وهو صبيّ يبكي فرقت له وقالت هذا من أولاد العبرانيّين، فتقدّمت أُخت موسى وقالت: هل أذهب وأدعو لك امرأة من العبرانيّات ترضعه؟ فقالت ابنة فرعون لها اذهبي، فذهبت وعادت بأمّه الّتي تسلّمته من ابنة فرعون لترضعه، فلمّا كَبر جاءت به إلى ابنة فرعون فصار لها ولداً ودعت اسمه موسى [(1)] وربّاه فرعون في قصره.

وقد أورد (القرآن) القصّة بتفاصيلها في الآيات من

(7- 14) من سورة القصص:-

(وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤)) .

ولمّا كان النص القرآني لم يتعرض للكيفية الّتي ألقي بها موسى في (اليمّ) فقد تكفل (الحكْيُ) بصياغة تلك الكيفية. يقول الطّبري في كتابه - التّاريخ: «فلمّا وضعته أرضعته، ثم دعت له نجارا فجعل له «تابوتاً» وجعل مفتاح التابوت من داخل، وجعلته فيه وألقته في اليم»(!).. غفر الله للطّبري، إذ لم يُخبرنا عن الكيفيّة الّتي يكون بها مفتاح التّابوت من داخل!. [الطّبري - التاريخ ج 1/ ص 388].

قصّة موسى - المصريّة، ليست في الأساس مصرية، وإنّما هي «سُومرية» الأصل بوثائقها المكتوبة، الباقية للآن، ومن المرجّح أن تلك القصة - الأسطورة، كانت شائعة الانتشار في «كلدان» غربيّ العراق حين كان العبرانيّون هناك قبل رحيلهم إلى أرض كنعان في القرن (18ق. م) فتناقلوها إلى أن جاء من نَسبها إلى أم موسى فاحتوتها التوراة وأصبحت (وحياً) إلهياً!.

[(1)] هناك من قال بقارة مختفية تدعى «أطلانطس» كانت تفصل بين إفريقيا وأمريكا، فأعطى هذا القول تصوّراً بأن تلك القارّة كانت معبراً للانتقال بين القارتين وهذا القول لم يؤيده دليل علمي حتى الآن.
[(1)] انظر: د/ إيفار ليسنر، قصة الحضارة، سبقت الاشارة إليه ص 116.
[(1)] انظر: برستيد، فجر الضمير، سبقت الاشارة إليه ص 372.
[(1)] انظر: برستيد، فجر الضمير، سبقت الاشارة إليه ص 376.
[(1)] انظر: سليم حسن، موسوعة مصر القديمة، ج /8 ص 254.
[(2)] انظر: جمال حمدان، اليهود، مكتبة الأسرة 1998 ص 66.
[(3)] في سنة 1929 عثر الأثريّون على بردية مصرية مكتوبة بالخط «الهيراطيقي» أطلق عليها اسم (ورقة فلبور) وهي عبارة عن وثيقة تضم مساحات الحقول المقرّر عليها ضرائب وبهذه الورقة أسماء للبلاد الّتي كانت بها تلك الحقول ومن بينها ورد اسم بلدة تدعى (نانجو ناتو) وتعنى (تل اليهودية)، وموقعها الآن بين بلبيس ومنيا القمح جنوب مدينة الزقازيق في محافظة الشرقية بمصر. انظر: سليم حسن، موسوعة مصر، سابق ج/ 8 ص 159 وانظر الخريطة المقابلة لصفحة 192.
[(4)] المرجع السابق ص 66.
[(1)] برستيد: فجر الضمير، سبقت الاشارة إليه. ص 376.
[(1)] برستيد، فجر الضمير، سبقت الاشارة إليه. ص 377.
[(2)] انظر: برستيد، فجر الضمير، سبقت الاشارة إليه ص 315.
[(1)] انظر: جمال حمدان، اليهود، مكتبة الأسرة 1998، الأعمال الفكرية ص 66.

(1) انظر: فيصل الخيري، الحفريات أنهت أسطورة التوراة، العصور الجديدة، العدد/ 8 ص 239.

(2) «رعمسيس» اسم مصري مكون من مقطعين (رع) مشاراً بها إلى الإله، و (مسيس) مشاراً بها إلى شخص. واقتران اسم الإله بالاسم الشخصي - في اللغة المصرية القديمة - يرمز إلى (الملك/ الفرعون) - (منق - رع)، (خف - رع). وقد تبنى ملوك «الرعامسة» - الاسرة العشرون - هذا الاسم بإطلاقه على ملوكهم.

(1) انظر: ايفار ليسنر، الماضي الحي، سبقت الاشارة إليه. ص 142.

(1) انظر: جفري باندر، المتعقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح، عالم المعرفة (173) ص 116.

(2) انظر: ايفار ليسنر، الماضي الحي، سبقت الاشارة إليه ص 142.

(1) المرجع السابق، المعتقدات الدينية ص 120.

(1) المصدر نفسه ص 122.

(2) المصدر نفسه ص 123 وقارن فكرة الحساب والميزان لدى المصريين القدماء [برستيد، فجر الضمير، ص 273] وطالع بالصفحة التي تقرؤها مشهد الحساب بكتاب الموتى منقولاً عن بردية عثر عليها بحالة جيدة.

(1) انظر: د/ عبد القادر محمود، الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة، الهيئة المصرية للكتاب ص 14.

(2) انظر: محمد بن سعد - الطبقات الكبرى ص 266.

(3) انظر: سيرة ابن هشام ج 1، ص 87.

(1) السيرة الحلبية ج/1ص 259.

(2) تاريخ الطبري ج/2 ص 277.

(3) السيرة الملكية ج/1 ص 183 - الحلبيّة ج/ 1 ص 367.

[(4)](#) ابن هشام ج/ 1 ص 218.

[(5)](#) وهؤلاء هم الّذين أشارت إليهم الآية [94- يونس] فإن كانت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الّذين يقرءون الكتاب من قبلك.

[(1)](#) انظر: حافظ عثمان، الإسلام والصراعات الدينية، الهيئة المصرية للكتاب ص 107.

[(1)](#) انظر: حافظ عثمان، الإسلام والصراعات الدينية، الهيئة المصرية للكتاب ص 109.

[(1)](#) الطبري، التّاريخ ج/ 2 ص 302.

[(2)](#) سيرة ابن هشام / 1: 153 - 156.

[(1)](#) انظر: إيفار ليسنر، الماضي الحي، ترجمة شاكر إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

[(1)](#) انظر: كافين رايلي، الغرب والعالم، ترجمة د/ عبد الوهاب المسيري - عالم المعرفة (90) ص 84.

[(2)](#) المرجع السابق ص 86.

[(1)](#) قارن السبع سنين العجاف في قصة يوسف.

[(2)](#) المرجع السابق ص 22 والهامش.

[(1)](#) انظر: جفري باندر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، سبقت الاشارة إليه هامش ص 24.

[(1)](#) الطبري، التاريخ ج/ 1 ص 186.

[(1)](#) انظر: إيفار ليسنر، الماضي الحي، ترجمة شاكر إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب ص 154.

[(2)](#) المصدر نفسه ص 154.

[(1)](#) انظر: إيفار ليسنر، الماضي الحي، ترجمة شاكر إبراهيم، الهيئة المصرية للكتاب ص 155.

(2) الآيتان (83 - 84) من سورة الأنبياء.
(1) المرجع السابق نفسه.
(1) قارن: أحمد عبد اللطيف حماد، الزمان والمكان من قصة العهد القديم، عالم الفكر مج 16ع - 3 ص 84.
(1) تاريخ الطبري - ج/ 1 ص 322، 325.
(1) أحمد صبري البرنس، سرجون الأكدي، العصور الجديدة، العدد (11) ص 100. وانظر: الماضي الحي - مصدر سابق ص 32 وفي رواية أخرى يرى (جيمس فريزر) أنه كان من عادة الشعوب القديمة أن تطرح الطفل في الماء بقصد اختبار بنوّته الشرعية لأبيه، فإما أن يطفو، وإما أن يستقر في القاع. والطفل الذي يطفو يعدّ طفلاً شرعياً، أما الذي يستقر في الماء فإن المجتمع يرفضه بوصفه ابناً غير شرعي.
(1) سفر الخروج 2/ (1-10).

الفصل الثامن

كهانات عصرية..

ص 82

كهانة قضائية!

نصر حامد أبو زيد، اسم سجّله التّاريخ لما بعض الحاضر - الّذي تُراود ذاكرته نِسيانه!. كان أستاذاً للدّراسات الإسلامية بقسم اللّغة العربية بكليّة الآداب

بجامعة القاهرة. وكان تخصّصه في دراسة اللّغة شؤماً عليه، فمِعْولاً تقوّضت به حياة أسرته، إذ دعاه التعمّق في الدّراسات الحديثة للّغة إلى استخدام المنهج العلميّ في تحليل النصّ اللّغوي، للقيام بتحليل «النّص القرآني»، فوضع كتاباً عنْوَنَه «مفهوم النّص» - دراسة في علوم القرآن - وأصدرته الهيئة المصريّة العامّة للكتاب بمصر في أوائل تسعينات القرن الماضي.

وربّما كان تجرّد الباحث، إلّا ممّا يبحث فيه - هو السبب الّذي جعل نصر حامد أبو زيد لا يلتفت إلى أنّ السّاحة الّتي اقتحمها كانت مليئة بالأفاعي، فواصل المسيرة يُحدّد مفهوم «الوَحْي» القرآني واتّصال هذا المفهوم بالثّقافة الّتي كانت سائدة آن تنزيل القرآن، موضّحاً أنّ طريقة إلْقاء القرآن على الرّسول كانت عن طريق (الملَك) الّذي نقل عن (اللّوح المحفوظ) إلى النّبي، ليقوم النّبي بابلاغ ذلك للنّاس «قولاً» ملفُوظاً تحتويه «لُغة» فأصبح «الوَحْي» بهذا

الاحتواء «نصّاً لغوياً» قابلاً لمعايرته بمعايير اللّغة الّتي تحتويه، ومن ثمّ فهو قابل «لتحليله» بوسائل تحليلها (1) .

وكأنما نُفخ في الصّور، ففزع منْ في الأوكار من «الكهنة»، إذ كيف يجرُؤُ هذا الّذي أصبح في عرُفهم «كافراً» فيقول بأنّ «الوحْيَ الإلهي» تحوّل على لسان «محمد» إلى (نصّ)؟، بل كيف يتجاوز ليقول بأنّ هذا النصّ قابل للتحليل العلميّ مثله مثل أيّ نصّ آخر؟، بل لقد تجاوز التّجاوز فيها أسماه «السّياق» ومواقع «الضمائر» ما ظهر منها وما استتر!.

وكما يبدأ الطوفان تسرُّباً، ثمّ فيضاً، بدأت خطّة القضاء على هذا الباحث بعدّة مقالات غاضبة نشرتها جريدة الأهرام القاهرية، وكلّها مقالات ظاهرها أنّها تحاجج فكراً بفكر، وباطنها «مسموم» يطعن في عقيدة الباحث، وينكر عليه استحقاق التّرقي لدرجة الأستاذ بالجامعة، بل

ويطالب بإبعاده عن التّدريس وإحراق مؤّلفاته اتّقاء تسرّب «الكُفر» منها إلى عقول المسلمين اليانعة اخضراراً وطُهراً!.

ولأن الفتنة ـ الّتي لم تكن بتلك المقالات نائمة، وجَدَت من يدفعها إلى صفوف «العامّة» ممّن لا يعرفون نصّاً، ولا يفرّقون بين (تأويل) و (تهويل) فقد انطلقت كألْسنِة النّيران إلى المساجد، تعلو المنابر لِتصبح الأساس في خُطب الجمعة وموعظة ما بعد صلاة العَصر. فاشتهر نصر حامد أبو زيد وغلبت شهرته ما عليه «لاعبو الكُرة» و (الرّاقصات)، وتهيّأت السّاحة لميلاد (بطل) على شاكلة مَنْ قتل «فرج فوده» ومَنْ طعن «نجيب محفوظ» فبدأت «الزّوايا» تغُلق بعد صلاة العشاء أبوابها وبين جُدرانها بالدّاخل ينقّبون في فكر «ابن تيمية» استخلاصاً للمبرّر «الشرعيّ» الّذي يبيح «دم» نصر حامد أبو زيد، ويضمن (صكّاً) بدخول الجنة لمن يريق هذا الدم!.

ذات صباح بمنزله الكائن بمدينة العاشر من رمضان دقّ جرس الباب، فلمّا استطلع الطّارق وجده (مُحضراً) يهمس إليه بأنّ معه إعلاناً قضائياً بدعوى مقامه ضده، فلمّا تسلّم الإعلان وقرأه توارت أفكار مُحاضرة الدّرس الّذي كان يعدّ نفسه له بترتيب أوراق المحاضرة، طرح الأوراق جانباً وتهاوى على مقعد.. بجانبه كانت زوجته - الأستاذ بالجامعة نفسها - تعدّ نفسها للمغادرة معه، فلمّا رأته قد انهار، ربطت انهياره بالورقة الّتي ألقاها فأخذتها، وقرأتها:

إنه في يوم الموافق / / 1993 الساعة [*] :

بناء على طلب من:

1 - محمد صميده عبد الصمد.

2 - عبد الفتاح عبد السلام الشاهد.

3 - أحمد عبد الفتاح أحمد.

4 - هشام مصطفى حمزة.

5 - اسامة السيد بيومي علي.

6 - عبد المطلب محمد أحمد حسن.

7 - المرسى المرسى الحميدي.

ومحلهم المختار جميعاً مكتب الأستاذ/ محمد صميده عبد الصمد المحامي الكائن برقم 33 جامعة الدول العربية بالمهندسين، قسم العجوزة، محافظة الجيزة.

أنا محضر محكمة الجزئية قد انتقلت إلى حيث إقامة كل من:

1 - السيد الدكتور/ نصر حامد أبو زيد مخاطباً مع:

2 - السيدة/ إبتهال يونس

وأعلنتهما بالآتي:

المعلن إليه الأول ولد في 10/ 7/ 1943 في أسرة مسلمة، وتخرج في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة القاهرة، ويشغل الآن أستاذ مساعد الدراسات الإسلامية والبلاغة بالقسم وبالكلية المشار إليها، وهو متزوج من السيدة المعلن إليها الثانية، وقد قام بنشر عدة كتب وأبحاث ومقالات تضمنت، طبقاً لما رآه علماء عدول، كفراً يخُرجه عن الإسلام، الأمر الذي يعتبر معه مرتداً ويحتم أن تطبق في شأنه أحكام الردّة حسبما استقر عليه القضاء، وذلك كله على التفصيل الآتي:

أولاً

نشر المعلن إليه الأول كتاباً عنوانه «الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية» وقد نشرته دار سينا للنشر سنة (1992).

وقد أعد الأستاذ الدكتور/ محمد بلتاجي حسن

أستاذ الفقه وأصوله وعميد كلية دار العلوم بجامعة القاهرة تقريراً عن هذا الكتاب ذكر في مستهله أنه يمكن تلخيص محتواه في أمرين:

الأول: العداوة الشديدة، لنصوص القرآن والسنة، والدعوة إلى رفضها وتجاهل ما أتت به.

والثاني: الجهالات المتراكبة بموضوع الكتاب الفقهي والأصولي.

واستطرد الأستاذ الدكتور العميد في تقريره فأوضح أن صفحات الكتاب تنطبق بكراهية شديدة لنصوص القرآن والسنة، إلى حد تحميل الالتزام بهذه النصوص كل أوزار الأمة الإسلامية وأوضاعها المتخلفة، ومن الأدلة على ذلك:

أ - قول المعلن إليه في آخر الكتاب في صفحة (110) إنه «قد آن أوان المراجعة والانتقال إلى مرحلة التحرّر لا من سلطة النصوص وحدها بل من كل سلطة تعوق مسيرة الإنسان في عالمنا، علينا أن

نقوم بهذا الآن قبل أن يجرفنا الطوفان».

والنصوص المقصودة في قوله هذا هي القرآن والسنة، بدليل قوله مثلاً في صفحة (15) «إن تثبيت قراءة النص الذي نزل متعدداً في قراءة قريش، كان جزءاً من التوجيه الأيديولوجي لـ سلام لتحقيق السيادة القرشية»، وقوله في صفحة (28) «إن النص الثانوي هو السنة النبوية، والنص الأساسي هو القرآن» وأمثلة ذلك كثيرة في صفحات الكتاب.

ولا معنى للتحرر من سلطة نصوص القرآن والسنة إلا بالكفر بما فيهما من أحكام وتكليفات.

ب ـ قول المعلن إليه في صفحتي (103)، (104) من الكتاب ذاته عن موقف الإمام الشافعي من القياس إن «هذا الموقف يعكس رؤية للعالم والإنسان تجعل الإنسان مغلولاً دائماً بمجموعة من الثوابت التي إذا فارقها حكم عليه نفسه بالخروج

من الإنسانية» وليست هذه الرؤية لـ نسان والعالم معزولة تماماً عن مفهوم «الحاكمية» في الخطاب الديني السلفي المعاصر، حيث ينظر لعلاقة الله بالإنسان والعالم من منظور علاقة السيد بالعبد الذي لا يتوقع منه سوى الإذعان.

وكما كانت رؤية الشافعي تلك للعالم كرست في واقعها التاريخي سلطة النظام السياسي المسيطر والمهيمن، فإنها تفعل الشي ذاته في الواقع المعاصر.

يقول الأستاذ الدكتور العميد تعليقاً على ذلك: «إنه بدهي أن العقيدة الإسلامية بل كل عقيدة دينية لا ترضى من الإنسان إلى الطاعة المطلقة التي هي المفهوم الحرفي لمعنى (العبادة) و (الإسلام) والذي لا يرتضي الانصياع المطلق للنصوص المقدسة فهو خارج عن حد الإيمان بآيات من القرآن كثيرة جداً.

منها قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا

قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً) [الأحزاب: 36] وقوله: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ المُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ) [النور: 51] وقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً) [النساء: 60].

وقد أقام المؤلف نفسه عدواً للشافعي (الذى يسعى دائماً لتكريس سلطة النصوص كما يقول في صفحة 100 ، 107 مثلاً).

كذلك لم يترك مناسبة في كتابه الصغيرة للغض من النصوص وتحقيرها وتجاهل ما أتت به إلا انتهزها.

ج - قول المعلن إليه الأول في صفحتي 20/ 21

ما نصه:

ويبدأ الشافعي حديثه عن الدلالة بتقرير مبدأ على درجة عالية من الخطورة فحواه أن (الكتاب) يدل بطرق مختلفة على حلول لكل المشكلات أو النوازل التي وقعت أو يمكن أن تقع في الحاضر أو في المستقبل على السواء وتكمن خطورة هذا المبدأ في أنه المبدأ الذي ساد تاريخنا العقلي والفكري، وما زال يتردد حتى الآن في الخطاب الديني بكل اتجاهاته وتياراته وفصائله. وهو المبدأ الذي حول العقل العربي إلى عقل تابع، يقتصر دوره على تأويل النص واشتقاق الدلالات منه.

هذا الذي أنكره المعلن إليه على الإمام الشافعي إنما هو المعنى الحرفي لقوله تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) [النحل: 89] وهو أيضاً (إكمال الدين) في قوله تعالى: (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً) [المائدة:

3].

د - قول المعلن إليه في صفحة 22 ما نصه: «والشافعي حين يؤسس المبدأ - مبدأ تضمن النص حلولاً لكل المشكلات - تأسيساً عقلانياً يبدو وكأنه يؤسس بالعقل «إلغاء العقل».

و«مفهوم كلامه أن إبقاء العقل لابد معه من رفض النص فهو لا يرى أنه يمكن الجمع بين الأمرين ومفهومه بداهة أن الذين يستسلمون للنصوص الشرعية - على أن فيها حلولاً لكل المشكلات فقد ألغوا عقولهم».

ثانياً

طبع المعلن إليه كتاباً عنوانه «مفهوم النص - دراسة في علوم القرآن» ويقوم بتدريسه لطلبة الفرقة الثانية بقسم اللغة العربية بكلية الآداب.

وقد انطوى هذا الكتاب على كثير مما رآه العلماء كفراً يخرج صاحبه عن الإسلام، وقد أعد الأستاذ الدكتور إسماعيل سالم عبد العال أستاذ الفقه المقارن المساعد بكلية دار العلوم بحثاً أوضح فيه بعض هذا الكفر، ومن ذلك ما يأتي:

أ - أن المعلن إليه ذكر في صفحة (21) من هذا الكتاب إن «الإسلام دين عربي.. وإن الفصل بين العروبة والإسلام ينطلق من مجموعة من الافتراضات المثالية الذهنية أولها عالمية الإسلام وشموليته من دعوى أنه دين للناس كافة لا للعرب وحدهم».

وهذا القول يعارض معارضة صريحة ويناقض آيات كثيرة في القرآن الكريم منها قوله تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً) [الفرقان: 1] وقوله سبحانه: (إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (69) لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَياًّ) [يس: 69-70] وقوله عز وجل: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ

بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) [سبأ: 28].

ب ـ كما ذكر في الصفحة (23) من الكتاب ذاته أن النص القرآني «في حقيقته وجوهره منتج ثقافي، والمقصود بذلك أنه تشكل في الواقع والثقافة خلال فترة تزيد على العشرين عاماً. وإذا كانت هذه الحقيقة تبدو بدهية ومتفقاً عليها، فإن الإيمان بوجود ميتافيزيقي سابق للنص يعود لكي يطمس هذه الحقيقة البديهية ويعكر ـ من ثم ـ إمكانية الفهم العلمي لظاهرة النص».

وقد أكد المعلن إليه هذا القول في بحث له بعنوان «إهدار السياق في تأويلات الخطاب الديني» حيث ذكر ما نصه «يتم في تأويلات الخطاب الديني للنصوص الدينية إغفال مستوى أو أكثر من مستويات السياق التي ناقشناها في القسم الأول، وهي كثير من الأحيان يتم إغفال كل المستويات لحساب الحديث عن نص يفارق النصوص الإنسانية

من كل وجه. إن التصورات الأسطوريّة المرتبطة بوجود أزلي قديم للنص القرآني في اللوح المحفوظ باللغة العربية لا تزال تصورات حيّة في ثقافتنا».

وأقوال المعلن إليه قاطعة في اعتقاده أن القرآن منذ نزل على محمد صلى الله عليه وسلم أصبح وجوداً بشرياً منفصلاً عن الوجود الإلهي، وأن الإيمان بوجود أزلي قديم للقرآن في اللوح المحفوظ هو مجرد أسطورة، وكما قال الأستاذ الدكتور عبد الصبور شاهين تعليقاً على ذلك إن المعلن إليه يرى أن «إعجاز القرآن بهذا المعنى أسطورة وكونه كلام الله أسطورة وانتماؤه إلى المصدر الغيبي أسطورة، فهو يتحدث بحسم عن (أسطورة) في وصف وجود القرآن وهو تعبير لا يليق، إن لم يكن تجاوزاً قبيحاً».

ثالثاً

ومن واقع كتب وأبحاث المعلن إليه وصفه كثير من الدارسين والكتاب بالكفر الصّريح. ومن ذلك على سبيل المثال ما ورد في جريدة الأهرام بأعدادها الصادرة في 8/ 12/ 1992، 26/ 1/ 1993، 10/ 4/ 1993، 12/ 4/ 1993، 19/ 4/ 1993، 20/ 4/ 1993، وما ورد في جريدة الأخبار الصادرة في 23/ 4/ 1993. وفي جريدة الشعب في 4/ 5/ 1993 وجريدة الحقيقة في 8/ 5/ 1993.

ولم ينف المعلن إليه شيئاً من تكفيره - على كثرته - بل لعله رضي به واستراح إليه، بحسبانه معبراً عن عقيدته وجوهر فكره، الأمر الذي يرقى إلى الإقرار منه بما وُصِم به.

رابعاً

المعلن إليه قد ارتد عن الاسلام طبقاً لما استقر عليه القضاء وأجمع عليه الفقهاء:

ومن المعلوم أن الردّة شرعاً هي إتيان المرء بما يخرج به عن الإسلام، إمّا نطقاً، أو اعتقاداً أو شكاً ينقل عن الإسلام، ومن أمثلة ذلك، فيما ذكره العلماء، جحد شيء من القرآن، أو القول بأن محمداً صلى الله عليه وسلم بُعث إلى العرب خاصة أو إنكار كونه مبعوثاً إلى العالمين، أو القول بأن الشريعة لا تصلح للتطبيق في هذا العصر، أو أن تطبيقها كان سبب تأخر المسلمين، أو أنه لا يصلح المسلمين إلا التخلص من أحكام الشريعة.

كما قضى بأن من استخف بشرع النبي فقد ارتد بإجماع المسلمين، يراجع في ذلك على سبيل المثال:

- المغني - طبعة دار الفكر - الجزء العاشر ص 94.

- الشرح الكبير - طبعة دار الفكر - الجزء العاشر ص 91.

- التشريع الجنائي الاسلامي - للأستاذ عبد القادر

عودة طبعة سنة 1984 - الجزء الثاني ص 706 وما بعدها.

- مبادىء القضاء في الأحوال الشخصية للمستشار أحمد نصر الجندي - الطبعة الثالثة سنة 1986 ص 649 المبدأ رقم (6).

وبناءً على أقوال المعلن إليه الثابتة في كتبه وأبحاثه المنشورة على الملأ والتي أوردنا بعضاً منها فيما سبق، وطبقاً لما أفتى به العلماء المتخصصون بعد دراستهم لهذه الأقوال فإن المعلن إليه، وقد نشأ مسلماً، يعتبر بذلك مرتداً عن الإسلام، ويكفي لاعتباره كذلك جزئية واحدة مما كتبه ونشره، ناهيك عن تعدد أقواله التي تخرج عن الإسلام بإجماع العلماء.

خامساً

ومن آثار الردة المجمع عليها فقهاً وقضاءً:

أن الردّة سبب من أسباب الفُرقة بين الزوجين، ومن أحكامها أنه ليس لمرتد أن يتزوج أصلاً لا بمسلم ولا بغير مسلم، إذ الردّة في معنى الموت وبمنزلته، والميّت لايكون محلاً للزواج، والردّة لو اعترضت على الزواج رفعته وإذا قارنته تمنعه من الوجود. وفقه الحنفية أن المرأة المتزوجة إذا ارتدت انفسخ عقد زواجها ووجبت الفرقة بين الزوجين بمجرد تحقق سببها بالردة نفسها وبغير توقف على قضاء القاضي، وأما ردة الرجل فهي عند أبي حنيفة وأبي يوسف فُرقة بغير طلاق (فسخ) وعند محمد فُرقة بطلاق، وهي بالإجماع تحصل بالردة نفسها فتثبت في الحال وتقع بغير قضاء القاضي سواء كانت الزوجة مسلمة أو غير مسلمة.

(يراجع على سبيل المثال):

- حكم محكمة النقض الصادر بجلسة 30/ 2/ 19 في الطعن رقم 20 لسنة 34ق - مجموعة السنة 17ص 783.

- وحكمها الصادر بجلسة 29/ 5/ 1968 في الطعن رقم 25 لسنة 37ق - مجموعة 19 ص 1034.

ومشار إلى الحكمين بمجموعة مبادىء القضاء في الأحوال الشخصية - المرجع السابق ص 659 - المبدأ (22) والمبدأ (23).

ولا يصح التذرع في هذا الخصوص بالقول بأن الدستور يكفل حرية العقيدة، فهذه مقولة حق يراد بها باطل، وقد استقر القضاء المصري بجميع جهاته ودرجاته، واستقراراً مطلقاً على أن إعمال آثار الردة حسبما تقررت في فقه الشريعة الاسلامية ليس فيه ما يخالف أحكام الدستور، وليس فيه أي مساس بحرية العقيدة، أو المساواة بين الأفراد في الحقوق

والواجبات ذلك أن هناك فرقاً بين حرية العقيدة وبين الآثار التي تترتب على هذا الاعتقاد من الناحية القانونية، فكل فرد حر في اعتناق الدين الذي يشاء في حدود النظام العام، أما النتائج التي تترتب على هذا الاعتقاد فقد نظمتها القوانين ووضعت أحكامها، فالمسلم تُطبّق عليه أحكام الشريعة الإسلامية والذمّي تطبق عليه أحكام أخرى تختلف باختلاف المذهب أو الطائفة في حدود القوانين والنظام العام.

وتطبيق القوانين الخاصة في كل طائفة تبعاً لما تدين به ليس فيه تمييز بين المواطنين. ولكن فيه إقراراً بحريّة العقيدة وتنظيماً لمسائل الأحوال الشخصية في حدودها وحدود الدين. ولا مشاحة في أن الشريعة الإسلامية تضمنت أحكاماً متعلقة بالأحوال الشخصية وتتصل بالنظام العام، ولا يمكن إهدارها أو إغفالها مثل حكم المرتد. وقد أشار المشرع إلى قاعدة النظام العام، وأوجب مراعاته فنص في المادة 6 من القانون رقم 462 لسنة

1955 على أنه بالنسبة إلى المنازعات المتعلقة بالمصريين غير المسلمين المـُتّحدي الطائفة والملة، الذين لهم جهات قضائية وقت صدور هذا القانون فتصدر الأحكام في نطاق النظام العام طبقاً لشريعتهم ـ كما نصت المادة 7 على أنه لا يؤثر في تطبيق الفقرة الثانية من المادة المتقدمة تغيير الطائفة والملة بما يخرج أحد الخصوم من طائفة وملة إلى أخرى إلا إذا كان التغيير إلى الإسلام فتطبق الفقرة الأولى من المادة 6 من هذا القانون. وتأسيساً على ذلك تكون أحكام الشريعة الإسلامية فيما يتعلق بالمرتد عن الإسلام هي الواجبة التطبيق والإعمال باعتبارها قاعدة متعلقة بالنظام العام على ما سبق بيانه وليس فيها مساس بحرية العقيدة أو المساواة بين المواطنين.

(يراجع في ذلك على سبيل المثال):

- حكم المحكمة الإدارية العليا الصادر بجلسة 25/ 1/ 1981 في الطعن رقم 599 لسنة 19ق - مجموعة السنة 26 العدد الأول قاعدة 54 ص 385 - 394 فتوى اللجنة الأولى للقسم الاستشاري للفتوى والتشريع في 4/ 4/ 1960 منشورة بمجموعة السنتين 15/ 15 قاعدة 168 ص (278 - 286).

وخلاصة القول:

إن المعلن إليه الأول وقد ارتد عن الإسلام طبقاً لما قرره الفقهاء العدول فإن زواجه من المعلن عليها الثانية يكون قد انفسخ بمجرد هذه الردة، ويتعين لذلك التفرقة بينهما بأسرع وقت، منعاً لـمُنكرٍ واقع ومشهود.

سادساً

وهذه الدعوى من دعاوي الحسبة:

وغني عن البيان أن هذه الدعوى من دعاوى الحسبة، بحسبان أنها طلب تفريق بين زوجين والأمر بكفهما عن معاشرة لا تحل لهما، فهي دعوى تدافع عن حق من حقوق الله تعالى، وهي الحقوق التي يعود نفعها على الناس كافة لا على أشخاص بأعينهم، لأن حل مباشرة المرأة وحرمتها من حقوق الله تعالى التي يجب على كل مسلم أم يحافظ عليها ويدافع عنها.

(مبادئ القضاء - المرجح السابق ص 531 مبدأ رقم 16، الوسيط في قانون القضاء المدني للدكتور فتحي والي سنة 1987 ص 61، والوسيط في شرح قانون المرافعات للدكتور أحمد السيد صاوي سنة 1988 ص 170).

بناءً عليه

أنا المحضر سالف الذكر قد انتقلت وأعلنت كلاً من المعلن إليهما بصورة من هذه العريضة وكلفتهما الحضور امام محكمة الجيزة الابتدائية - دائرة الأحوال الشخصية رقم (11) بمقرها الكائن بشارع الربيع الجيزي بالجيزة وذلك بجلستها التي ستنعقد في غرفة مشورة ابتداءً من الساعة التاسعة صباحاً يوم الخميس الموافق 10/ 6/ 1993، وذلك ليسمع المعلن إليهما الحكم بالتفريق بينهما، وإلزام المعلن إليه الأول المصروفات وشمول الحكم بالنفاذ المعجل بغير كفالة.

وكانت الدّعوى مقامة بمحكمة الجيزة الابتدائيّة، وكان قد تحدّد لنظرها جلسة يوم الخميس الموافق 10/ 6/ 1993 وكان يوماً تشيبُ له الوِلدان!.

كانت المحكمة مُطوّقة من خارجها بعربات الأمن المركزيّ على امتداد المواجهة للشّارع الرئيسيّ، وعلى الجانب طَوْق من الباصَات الكبيرة، ذات السُتر على النّوافذ يطلّ من ورائها (سوادٌ) يتحرّك، عرفنا

فيما بعد، أنّـها باصات تحمل (الأخوات المسلمات) اللّواتي جئن لحضور الجلسة، فلمّا اقتربنا من الباب وعرّفنا «ضابط الحراسة» بهويّتنا، التقطنا طالباً منّا الإسراع إلى ممرّ جانبيّ قادنا منه إلى «مصعد» - مُحكم الحراسة حول بابه، أقلّنا الدّور الرابع.

كانت الرّدهة أمام القاعات مشغولة بمراسلي وكالات الأنباء، والمحطّات التّليفزيونية الأجنبية - لم تكن هناك فضائيات بعد، ومن باب قاعة مُواجهة أبصرْنا «شيخ شيوخ دعاوى الحِسبة في مصر» وحوله مجموعة من شباب وشيوخ، ينصتون إليه، ثم يغادرون القاعة إلى السّاحة الخارجية يتحسّسون ما بها ويعودون إليه، وعلى غفلة، اقتربَتْ منّي مراسلة أجنبية ومعها دليل مصري عرّفني بأنّها مراسلة لمحطة الـ (B.B.C) وتريد إجراء حوار عن الدّعوى، سألتني: هل تعتقد أن المحكمة ستحكم على الدكتور أبو زيد بالاعدام؟ قلت لها: الدعوى لا تطالب بإعدام الدكتور أبو زيد، وإنما بالتّفريق بينه

وبين زوجته، استدارت، وطلبت من حامل «الكاميرا» أن يُركّز على وجهي، ثم عادت تسألني: ولكنّي عرفت ممّن سألتهم قبل لقائي معك أنّ أصحاب الدّعوى يعتبرون الدّكتور «أبو زيد» مُرتدّاً عن دين الإسلام وجزاوُه الشرعيّ هو الإعدام، فأدركت ما تُريد الوصول إليه، قلت لها، وأنا أهمّ بالانصراف، الدّكتور أبو زيد ليس مرتدّاً، هو باحث وصاحب رأي، ليس إلا.. أدركَتْني فاستوقفتني، وحدّقتْ بمقلتين ـ أرعدتاني، فلم أعرف ما إذا كانت تسأل تبتغي إجابة، أم أنّها تريد أن تصُبّ «السم» في جوفي وتنصرف، قالت: ألمْ يكن من الأفضل أن تُخصّص نفقات هذه المحاكمة، العربات، والحراسات، والقاضي، وما دُفِعَ للمحامين لإنشاء مدرسة أو إصلاحِ مستشفى؟ فقلت: يا سيّدتي نحن قوم ـ في التّراث أُميّون، لا شأن لنا بالمدارس، ولا تُصلِحُنا المستشفيات، ونصيحتي لك استقلال المصعد الجانبيّ حين هبوطك كي لا تعبري بين باصابات

«الأشباح» بالخارج، فرداؤك الّذي تلبسين كفيل بإهدار دمك!.

عُقدت الجلسة، ثم استُؤجلت ثم جاء دور الدّفاع نقتطع لك منه ما لا يتصل بالدفوع القانونية الّتي لن تضيف إليك شيئاً يستحق عناء قراءتك له:

سادساً: في موضوع الدعوى... برفضها

إذا كان من شرائط وجود الدعوى ثبوت وقائع معينة تنطبق عليها القاعدة الحامية فإن ثبوت الوقائع في حد ذاته ليس باعثاً على تحريك قاعدة الحماية المطالب بتطبيقها، وإنما يستلزم هذا التحريك أن يواكب (ثبوت) الوقائع تلك ما يُضمّنها اعتداء على الحق المطالب بحمايته.

وعلى هذا الأساس سنتناول الدعوى المطروحة بادئين باستعراض وقائعها (الكاذبة) حصراً لها في

(عموميات) خُطّ على أساسها نسقها العام، وذلك من واقع محتوى الصحيفة وبترتيب الوقائع نفسها في منهج العرض المُدّعَى، فالدعوى - تسع صفحات - قائمة على ادعاء بثبوت (أربع وقائع) في حق المدعى عليه الأول أفاضت في تفصيلها (البنود) الأربعة الأول لتكون أساس القاعدة فيما تم بناء البند الخامس عليه ليعقب ذلك بيان هويّة الدعوى وما ترمي إليه.

وما دمنا قد بدأنا بالحديث عن (الوقائع) موضحين أن عين القاعدة القانونية الحامية للحق لا تنظر إلى تلك الوقائع من زاوية (الكون/ الثبوت) بقدر ما تنظر إليها من زاوية الاعتداء على حق، لذلك سنتناول الوقائع الأربع المعوّل عليها في الدعوى والحاوية لبناء نسقها العام من جانب ثبوتها من ناحية، ومن جانب ما يصلها بالحق المدعي بالاعتداء عليه والمطالب بحمايته من ناحية أخرى.

دلائل الفساد فيما تأسس عليه البند «أولاً» بصحيفة الدعوى

تناول البند الأول من صحيفة الدعوى مؤلفاً للمدعى عليه عنوانه: «الإمام الشافعي وتأسيس الأيديولوجية الوسطية» فعرّف بالكتاب في (سطر ونصف) لينتقل من هذا التعريف (الـمُخِل) إلى كتاب آخر يعارض فيه (مؤلفه) صاحب الكتاب ـ المطعون في دينه ـ المدعى عليه.. وبالرغم من أن استطلاع البدايات كاف بطبيعته ـ دون حاجة لإضافة إليه ـ لمقت تلك الدعوى وكراهيتها، فإنه بالإضافة لذلك يكشف عن وجه الزور فيها إفصاحاً عن الغرض المبيّت من ورائها. فالبدايات تلك، قاطعة الدلالة على أن المطروحة ليست (دعوى) وإنما هي (قميء) أُلبس لباس التّقاضي، مقنّعاً (بمظهر الدعوى) لغرض في نفس يعقوب أصبح الإفصاح عنه تزيّداً، إذ الكافة على دراية به.

ولـ يضاح - في بساطة - فالدعوى تطعن المدعى عليه في دينه، تتهمه صراحة وعلناً وعلى نطاق الكافة - ليس في مصر وحدها، بل في جميع بلدان العالم شرقاً وغرباً - بأنّه قد ارتد عن دينه، وفارق ملّة أبويه خارجاً عن جماعة المسلمين، عاقاً لـ سلام متمرداً عليه بما يبيح (جزّ) رأسه الفاسد، فإن لم يكن (جزّ) الرؤوس مستطاعاً - في نطاق الحاضر - لهيمنة الدولة (العلمانية) ربيبة الشيطان فلا أقل - على نطاق الحاضر أيضاً - من إلباسه (زُنّار) مخالفة الملّة والطّواف به في الأسواق يتقدّمه قارع الطبل ومنادي (الوالي) بينما يحيط به السابلة يقرعونه (..) ويبصقون عليه في رحابات إطلالات (الجواري) من منمنمات المشربيات على الجانبين.

أسفاً، فليست تلك من صفحات ما سطّره الجبرتي وصفاً (لتجريسة) جرت في قاهرة الـمُعز أو حارة الإخشيد أو قطائع المماليك وهم صنوف ومن كل

فج، وإنّما هي حقيقة تعيشها قاهرة القرن الحادي والعشرين، و (يَنْعم) بالتجريسة فيها أستاذ جامعي كلّ ما جناه أنّه قرع ناقوس الإفاقة ـ وفي ضميره، أرضٌ تبور، وأمّة تحتضر.

ووراء التّجريسة تلك ـ ربّما وراء الراس الذي أينع وحان في (المستور) بالدعوى قِطَافُه ـ أن ذاك المطلوب رأسه قد تجرّأ فأعمل عقله فاستبانت له أسباب (العلّة) التي خلف توارثها أن أصبحت (خلايا) أجسادنا حاملة لصفاتها ـ ورثناها وسنورّثها ـ إن لم يكن في المتاح أن نملك يوماً أداة استئصالها ـ نبتكرها، أو تُعطى لنا..

(تجرّأ) المدعي عليه ـ تاركاً لعقله أن يعمل ـ فأمسك بفكر (الشافعي) ـ الذي لم يَدّع أنّ وحياً كان يخاطبه، أو أنّ السماء كانت على صلة به ـ معيداً قراءته بأسلوب علميّ تخطّي عصر (الجرجاني) في الإمساك بمستور الدّلالة في النص ليقول لنا باختصار ـ (منّا) ـ بأن الشافعي لم يكن «وسطياً»

بين فقهاء الرّأي وفقهاء النقل، وإنما كان (منحازاً) - ربّما دون أن يدري - للقُرَشيّة العربية التي ينتسب إليها عارضاً أدلة هذا الانحياز في تأصيل علميّ لا شأن له بدين، ولا علاقة له بدنيا.

و(فاجعة) الأثافي - ليس هناك خطأ - كامنة في (هَزْل) التلفيقية المـُعنونة (أولاً) في صحيفة الدعوى، وموطن هذا الهزل أن المدعين (يكفّرون) المدعي عليه (لرأي قال به) في مؤلّف أصدره، مستدلّين على كفره (برأي آخر) قاله من لم يرُقه الرأي المخالف!.

تتصدّر أسانيد التكفير في البند (أوّلاً) عبارة: وقد أعدّ الأستاذ الدكتور.. (تقريراً) - كذا - عن هذا الكتاب ذكر في مستهله أنّه يمكن (تلخيص) محتواه في أمرين.. إلخ.

نحن إذن حيال (تقرير) يحتوي (تلخيصاً) يحتوي تكفيراً.. الخ المتتالية المعروفة، وكأني بأصحاب

الدعوى قد ظنّوا أن (الكلّ) قد فقد عقله فاستباحوا السّاحة يهيلون عليها نثار التّلخيص (المُسْلم) للتّفصيل (الكافر) على غير إدراكية بالبديهية القائلة: تلخيص الخطاب خطاب آخر!.

ودون الدخول في تفاصيل أجزاء التلخيص المسوقة تدليلاً على كفر المدعى عليه - إجلالاً لساحة العرض، وإحساساً بقيمة الوقت! - فما احتوته تلك التفاصيل قاطع الدّلالة على أن وراءها، إمّا من أساء فهم النصّ وإما من لم يفهمه..

فالتحرّر من (سُلطة النصّ) ليس هو (التحرّر من النصّ) إذ النصّ في حدّ (ذاته) ساكن لا سُلطة ولا سلطان له وهو بذلك يستمدّ سلطته أو (سلطانه) من خلال تفاعله مع بيئته.

وتفاعل النص مع قارئه أو المُوَجّه إليه يخضع لعديد من العوامل، منها ما هو ذاتي ومنا ما هو خارجي، منها ما يتّصل بفهم المعنى ومنها ما يتّصل

باللغة المُعَبرة عن المعنى. على أن وراء ذلك كلّه يوجد الإطار الفكري العام العامل في نطاقه النص بما يحتويه من نماذج إرشادية وقطيعات بين المراحل/ إبستمولوجية - بما مؤدّاه أن سُلطة النصّ ما هي إلّا (مُضَافٌ بشريّ إلى النص)، فالنصّ - في الكتاب أو السنّة - واجب القداسة ومُضَاف النصّ فيهما - سُلطَة - لا قداسة له إذ هو إنساني النشأة مُتغيّر الطبيعة.

فإذا ما كان (الشافعي) قد كَرّس فكره لإلباس النّصوص سلطانها - (سلطتها) - من خلال منظور لا يرى للنصّ سلطاناً إلا فيما أضافته إليه (قريش) بما وراءها من بيئة، وفهم لغة، وثقافة ينحصر إطارها فيما احتواه مكانها من مكة - ناهيك عن مُنعزل الجزيرة بما يعجّ به من خيال وتوار أساطير - فإنما يكون بذلك قد (جمّد) سلطان النص على أعتاب (القُرَشيّة) حائلاً بينه وبين خطاب جديد - متجدّد - تفرضه طبيعة التّنامي في المعرفة، نجتاز به - نحن

المسلمين - إلى المستقبل دون استجداء من أحد!.

تلك خلاصة ما قاله نصر أبو زيد في كتابه، ولو أن المتاح كاف لأوردنا وافياً لمحتوى مؤلَّفه المطعون عليه بالكفر - فربّما توارت بعض الوجوه إن هي أدركت صحيح موقعها، فهل يعيد الطاعنون القراءة وقلوبهم خالية من الغلّ!.

بقيت إضافة تتعلق بالجزئية (ج) من البند (أولاً) تلك التي تنكر فيها الدعوى على المدعي عليه ما قاله رداً على حديث الشافعي عن الدلالة في النصّ مُخطِّئاً له منظورة إلى الكتاب الكريم حين حاول في تلفيقية ظاهرة التدليل على أن كتاب الله يحتوي حلولاً لكل المشاكل أو النّوازل التي وقعت أو يمكن أن تقع (صحيفة الدعوى ص 4) إذ ترى (الدعوى) أن في تخطئة (منظور الشافعي) كفر، على سند من أن الصحيح هو ما قال به بدليل يسوقه المدّعون من كتاب الله في الآيتين الكريمتين: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَاناً لِّكُلِّ شَيْءٍ) [النحل: 89] (اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

دِينَكُمْ) [المائدة : 3] ..إلخ.

وفي سبيل ردّ تلك المغلوطة، فتلك (دعوة) نوجّهها لأصحاب هذا الفكر بإعادة قراءة الآيات قرينة بأسباب نزولها من ناحية، ومن ناحية أخرى بإعادة (رصد) الدّلالة في الجملة الباسطة سلطان دلالتها على البيان في الآية ونصها: «وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين» للوقوف على حقيقة أن المراد بكلمة (العقيدة) بعيد ومنفصل عن (أبحاث الفضاء) و (هندسة الوراثة) اللّتين لم يتنزل كتاب الله لبيانهما!.

(مفهوم النص) بين (السليم) و(السقيم) عابرة..

ليس في الزمن الرّديء وحده تكثر (الغوغائية)، وليس في الأميين وحدهم يكثُر (الجُهلاء)!.

مفتتح...

قرأت يوماً: وبما أنه ليس مُتاحاً، أو في نطاق المتصوّر، أن يقف الإنسان يوماً خارج (الكون) لإدراكه من نقطة خارجة عنه، كذلك فمن غير المعقول أن يسعى الإنسان للوقوف على حركة هذا الكون من خلال (علاقة) بينه وبين كون (آخر) ليس في المُتاح الآنيّ المعرفي تصور لوجوده، فليست هناك وسيلة لاقتحام هذا الغموض إلّا بمحاولة الوقوف على مكوناته.. فمن هو على عِلْم (بطبيعة) الشيء ليس في حاجة إلى إدراكه (حِسّياً) كي يستطيع تفسيره (توماس كون - بنية الثورات العلمية - ترجمة شوقي جلال - عالم المعرفة - 168ص/ 271)

وتعجبّت (حين فكّرت) في الكيفية التي يحتفظ شريط السّيليلوز الممغنط (بالصّوت) المسجّل عليه مُتسائلاً أيكون الصّوت المسجّل على (شريط الكاسيت) هو ذاته الصّوت/ اللفظ الخارج من بين الشفتين (طبيعة) و (كنهاً)؟

ودخلت نطاق (الذّهول) حين عرفت بأنّ (صفات) الكائن الحيّ - من طول وعرض ولون وشعر وأحداق، بل وصحّة ومرض الخ ما يميّزه عن غيره - (مكتوبة) على (شريط مجهري) تحتفظ به (الخلايا) في جسده (!)، وكان مبعث الذّهول أنى طفت أتصوّر الكيفية (المكتوبة) بها تلك الصّفات على الشريط (اللّامرئي) مُستبعداً عن التصوّر أن يكون (لون بشرة الزّنجي) قد احتواه (شريطه الشّفري) على هيئة (نقطة سوداء)، إذ كيف يكون الحال هو ذلك في احتوائيه الشريط (اللّولبي) حين يتعلق الأمر بطول (الكائن) أو (موروثه من الأمراض)، أيكتب على الشريط (مثلاً): طويل، ويصيبه في سن الستين (فالج)، وهل تتعدد (لُغات الكتابة!) على شريط الشّفرة بتعدد أماكن (إقامة) الكائن.. فهذا شريط شفرة مكتوب العربية لأن صاحبه عربي، وذلك فرنسي.. إيطالي الخ ما على الأرض من أجناس؟.

فلما استطلعت الأمر من (مُتخصّص) توقّف رأسي عن (الدوار) إذ أدركت أن وراءه ما كنت أقيم به (علاقة) بين (كوْن وكوْن آخر) من نقطة خارجة عن الكونين مستقرها في الرأس (الجاهل!) الذي قصر عن إدراكية (التّغاير) بين ما بينهما العلاقة، فلما قرأت كتاب الدكتور نصر - المدعي عليه - (مفهوم النصّ دراسة في علوم القرآن) أشفقت على صاحبه غاية الإشفاق.. إذ كيف تصوّر وهو يضع كتابه أن الأرض قد خلت من جُهلائها، بل كيف طاوعته نفسه أن يخاطب بلغة (الحاضر) عقولاً تعيش في (قبور) الماضي، تأبى أن تُسمّي (الأسطورة) بالأسطورة، إذ كيف تنهار دعائم الحلم السندسيّ المُحلِّق بالأسطورة في رحابه دون ردّ فعل؟.

(أ) نعم : تصوّر أن اللّوح المحفوظ يحتوي (كتاب الله) (بطبيعته البشرية) ذاتها هو أسطورة.

فالوجود الإلهي في نطاق (مُطلق) لا مجال فيه (لأبْعَاد) المحصور من (مكان وزمان وهيئة)، فالله -

جل جلاله - إن استوى، فهو وحده الذي يعرف هذا الاستواء (لوجوده هو الآخر في نطاق المطلق)، وإن قال (على العرش) فطبيعة هذا العرش هي الأخرى مُطلقة لا يحتويها استيعاب كائن ليس من إمكانياته تصور المطلق أو إدراكه والخطاب في النصّ الكريم (استوى على العرش) شفْريّ (لكنّه) يحتوي على دلالتين، إحداهما: متّصلة (بالمُطلق) في كُنه الخطاب، وتلك بعيدة عن التّناول محجوبة عن (التّصور) إذ لا يحتوي المُطلق أبعاداً (فوقيّة) أو (تحتيّة)، (محمولة) أو (مُحاطة)، وثانيتهما: متصلة بالمُخَاطب البشريّ تحليقاً به في نطاق أقصى التصوّرية (للعظمة) و (التّفرد) و (الامتلاك) إبعاداً لهذا (المخاطب البشريّ) عن نطاق المحجوب عنه من ناحيته، ووصلاً له بهذا النطاق في حدود بشريّته من ناحية أخرى.

غير أن السّلف - بعض فقهاء الكلام - حين أضناهم الجهد في الوصول إلى المستحيل (اختراق

المُطلق) حاولوا (تصوّره) في نطاق محصور الزمان والمكان والهيئة، فاكتظ (التّراث) - ليس التّراث من الدين - بتصوّر (العرش) على هيئة (كُرسي)، كذلك بتصور (الحَمْل) و (الثمّانية) على أبعاد مكانيّة تحتوي المحدود وتحدّد مكانه، فاستقامت في الذاكرة (أسطورة) هي (الكُفر) بعينه.

فخطاب الدين تعلّقاً بهاتين الجزئيتين هو خطاب (فاسق) في حق العقل وفى حقّ (الجلالة).

وتلك هي ما حاول (الدكتور نصر) إمساكَها والتّنبيه على خطورة بقائها في (الخطاب الديني)...

(ب) أيضاً.. (نَعم)، فالقرآن المُفرغ في الوجود الإنساني على (كُنه) يُغاير كنهه في اللّوح المحفوظ، فهو (هُوَ) في نطاق (المحصور) وهو (ليس هُوَ!) في نطاق المُطلق.

فإن تطاول الظن إلى الاعتقاد بأن تلك تناقضية، فأساس ذلك قصور الإدراكية، ولعل في التمثيل

بالفارق بين (كُنْه) الصّوت في الطبيعة و (كُنْهه) على شريط الكاسيت الحامل له، كذلك - صفات الكائن متمثلة في وجوده إذ هي على طبيعة تُغاير (رموزها) على الشريط الشّفري - فتلك هِيَ تلك، غير أنّـها في نطاق (المـاوَرَاء) ليست هي.. أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله!..

فإذا ما كان هذا هو (الفكر) المؤَسّس عليه أن صاحبه قد كفر بالله وارتدّ!، فهل يكون وراء ذلك سوى سؤال نطرحه (لوجه الله): مَنِ الّذي قد كفر؟.

(ج) وفيما يتعلق بالبند (ثالثاً) من صحيفة الدعوى، فإحجام المدعي عليه (عن الرّد) على (قاذفيه) ووراءه أنّه، يعيش (حضارة عصره) - من ناحية، و.. (أنّه) يدرك بُعْد الفارق بين (مكانته) و (مكان) شتّاميه (المرضي)...! من ناحية أخرى.

بعد كفاح مرير، وجهة مُضنية، اكتشف (علماء) الأنثروبولوجيا: أنّ الناس يتصرّفون في إطار

(ثقافتهم) الخاصّة، وأن العملية التي يصنع بها الناس (طبائعهم) على صلة وثيقة بالأدوات التي يشكّلونها لصياغة عوالمهم (كافين رايلي تاريخ الحضارة - ترجمة د/ عبد الوهاب المسيري - عالم المعرفة - 90 - ص43).

وحيث يقطع (الجهل) - المقدرة على أن تضع نفسك في موضع الآخرين - في نطاق ما يعطيه (فهم) المرء، و(استيعابه) للمشكلة المجابهة (المرجع السابق ص80) فإن الأكثر فهماً أقدر استيعاباً من ناحية، ومن ناحية أخرى - فهو وثيق الصلة بأدوات ما شكّل (عالَمه)، على دراية بما تشكلت عليه (المشكلة المجابَهة) من أدوات - بما يقيم في نفسه (ميزاناً) بين ما عليه (ذاته وما عليه الذات الأخرى) في المشكلة المجابهة فيعطيه هذا الميزان (معياريّة): أن يتصدّى.. أو أن (يُهْمل).

وحيث تفصح المعياريّة - التصدّي أو الترك إهمالاً للمتروك وعدم اكتراث به - عن النّهج الواجب

اتّباعه في ساحة المقابلة بين الفكر (الموصُوم) والفكر (الوَاصِم) - ناهيك عن طبيعة الوصمة أو مكانها من الصّحيح واللّا صحيح - فإن في إهمال الرد (المكالب به) أبلغ ما في الخطاب من ردّ على المطالبة تلك!.

(د) ولمن لا يعرف (!) مكانَة (الردّة) في حاوية ما استقر عليه القضاء وأجمع عليه الفقه - البند رابعاً من صحيفة الدعوى - فإجماع القضاء على غير ما أشارت إليه الصحيفة.

فنطاق (ما استقرت عليه الأحكام في موضوع الرِّدة) تأصّل (قاعدياً) في رحاب محكمة النقض بقضائها بأنّ الرّدة من أمور ما يتصل بالعقيدة الدّينية التي تُبنَى الأحكام فيها على (الإقرار بظاهر اللّسان) ولا يجوز لقاضي الدعوى أن (يبحث) في (بواعثها) و (دواعيها).

- نقض 21/ 4/ 1965 - 16 - 80 - 496 -

مجموعة القواعد القانونية التي قررتها محكمة النقض ـ أحمد سمير أبو شادي القاعدة رقم (149) ص 86.

ونطاق الفقه مُزيح عن ساحته عالم (المُغني) و(الشرح الكبير) و(ما قال به عبد القادر عودة) إذ يتأسس بناء المنتهى إليه في تلك (المستبعدات وغيرها كثير) على القاعدة الكاذبة النفعيّة المسّماة بـ (إجماع المسلمين) حيث لا يَعرف تاريخ الإسلام الحق (إجماعاً للمسلمين) منذ البدايات ـ وحتى في رحاب اجتماع السقيفة لتولية أبي بكر الخلافة ـ (ملحوظة) إذا كان ما بعد (حتّى) صادماً، فلا فاقة يُرجى بمن أصابته (الصدمة) الرّجوع إلى (سليمان الطماوي ـ نظام الحكم والإدارة في الإسلام، دار الفكر العربي ص 412) وليقرأ نصّ ما سطره في بحثه «العلم».. ثمّ يتدبّره!... إقرئي يا محكمة!:

«هُنَا لم يستطع عمر أن يُمسك عن الكلام، فوقف قائلاً: «هيهات لا يجتمع اثنان في قرْن. والله لا

ترضى العرب أن يُؤمِّروكم ونبيّها من غيركم. ولكن العرب لا تمتنع إن تولّى أمرها من كانت النبوّة فيهم، ووُلّى أمورهم منهم، ولنا بذلك على منْ أبي الحُجّة الظاهرة والسّلطان المبين. من ذا الذي ينازعنا سلطان محمد وإمارته، ونحن أولياؤه وعشيته، إلّا مدلل بباطل، أو متجانف لإثم، أو متورّط في هلكة؟».

فقام (الحبابُ) يرد عليه قائلاً:

يا معشر الأنصار، إملكوا على أيديكم، ولا تسمعوا مقالة هذا وأصحابه فيذهبوا بنصيبكم من هذا الأمر، فإن أبوْا عليكم ما سألتموه (فاجْلُوهم عن هذه البلاد) وتولّوا عليهم هذا الأمر. فإنّ (بأسيافكم) دان لهذا الدين من دان ممّن لم يكن يدين.. أنا جُذَيْلُها المحكك، وعذيقها المرجب، أما والله إن شئتم لنعيدها جذعة!

قال عمر:

إذن يقتلك الله، فأجاب الحباب بل إيّاك يَقتل، فانتضى الحباب سيفه فضرب عُمر يده فسقط السيف فأخذه عمر ثم وثب على سعد بن عبادة «أ.ه» وإذا كان التاريخ يتحدث بأنّ بني هاشم وأنصارهم تردّدوا في البيعة قائلين: الولاية لعليّ، حيث اجتمع سلمان الفارسي، وأبو ذرّ الغفاري والمقداد، وعمّار، والعبّاس، وابن العباس قائلين للناس: طبّقوا الحُكم الإلهيّ وأمر رسول الله فالولاية لعليّ (راجع - محمد منظور نعماني - الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام - عبير للكتاب - القاهرة ص50).

فاندفع الناس إلى عائشة يسألونها - ما ورد في الصحيحين من حديث عبد الله بن عون عن إبراهيم التيميّ عن الأسود قال: قيل لعائشة إنّهم يقولون إنّ الرسول أوصى إلى عليّ، فقالت: بِمَ أوصىَ إلي عليّ؟ لقد دعَا بطسْت ليَبُول فيها وأنا مسندته إلى صدري فانحني فمات وما شعرْت، فيم يقول هؤلاء إنّه أوصى إلى عليّ؟ (راجع - ابن كثير - البداية

والنهاية - المجلّد الثالث ص319 - دار الغد العربي العدد 25).

فأين كان (الإجماع) آنئذ - والبدايات هِيَ مشغُول السّاحة - حيث الجسد (الكريم) لرسول الله ما زال على فراشه لم يوار في التراب بعد والصّراع - بالسيوف – على السلطة مُشتعل الجذوة على بعُد خطوات؟.

فإذا ما جاء المدّعون الآن يؤسّسون لحُكم شرعيّ على سند من (فقه) يعتدّ بمزعومة (الإجماع) كمصدر من مصادر الشريعة - في إنكار حجيّة الإجماع - راجع: (محمود شلتوت - الإسلام شريعة وعقيدة ص 67 مشار إليه ، أيضاً: الطيّب النجار - تيسير الوصول إلى عالم الأصول - دراسات مقررة بكلية أصول الدين بالأزهر ص 84. أيضاً: محمد أبو زهرة - أصول الفقه ص 187 مشار إليه، أيضاً: محمد رشيد رضا - شرح المنار، ج13 ص 41) فهل يُسمَع لهم، أو يُعتدّ (بفقههم) المؤسس عليه

دعواهم؟

(هـ) والنتيجة المُثارة في البند (خامساً من الصّحيفة) أساسها فاسد، وموطن الفساد في (بنائية) هذا البند أنه يرتّب نتيجة لما لا أساس له إذ يخلُص إلى ما انتهى إليه دون العروج على ما بنَى عليه، فإن كانت الردّة سبباً من أسباب الفُرقَة الزوجيّة فشرائط التفريق للردّة هي ثبوت الردّة أوّلاً ثُبوتاً يقيناً لا يتعدّى فيه القانون - أيضاً ولا الدّين - بما تَحصّل عن نبش الصدور وقراءة الأفكار (!) (راجع - نقض 21/ 4/ 1965 - مجموعة القواعد القانونية - مشار إليه).

كذلك فما أشار إليه هذا البند من أحكام ارتكن إليها في بنائيته هو على انقطاع عن ساحة المعروض (بالدعوى الماثلة)، إذ الأحكام تلك - جميعها - قد صدرت في دعاوى أفصح المُدعَى عليهم فيها بالردّة بأنهم خارجون عن الإسلام - إما لأنهم كانوا قد اعتنقوا الإسلام بديلاً عن دينهم الأصل ثم عادوا إلى

ما انخلعوا عنه بإسلامهم، وإمّا لأنهم غادروا إلى ديار أُخرى فاعتنقوا جنسيتها وملّة أهلها تاركين إسلامهم على مرافئ شُطآن المُغادرة، وعلى من يريد اليقين في ذلك أن يرجع إلى تلك الأحكام ليقف على المُغالطة التي استولد منها المدعون ما انتهوا إليه، فمن ذلك، ولكل هذه الأسباب فالدعوى في نطاق موضوعها عارية عن أساسها، حريّة بالرّفض في كافة ما انبنت عليه وما أفضت إليه.

لذلك

نصمم على رفضها...

محامي المدعي عليهما

رشاد سلام

قضت محكمة «أوّل درجة» بعدم قبول الدعوى

لانْعدام صفة المدّعين في رفعها - انعدام مصلحتهم، فاستأنفوها، ولأوّل مرّة في تاريخ القضاء في مصر تنعقد جلسة الاستئناف بقضاة يرتدون الزيّ «الباكستاني» وتمُدّ المحكمة أجلَ الحكم فيتردّد أنّ قُضاة المحكمة في (عُمْرة)، وتأتي الأخبار من السعودية بما لا يَسُرّ خاطراً..

قُضِيَ الأمر، حتّى في النّقض!.. فأصبح نصر حامد أبو زيد «مرتدّاً» بالفقه، وبالقانون، وبالحكم، وبات (مقتولاً) إن لم يكن بخنجر «متطرّف»، فبِالعُيون (الكارهة) الّتي تطالعه في كلّ مكان.

حادثته - تليفونياً، وكان يتهيّأ للرّحيل: أتهرب؟ ردّ ضاحكاً، أليس لنا في رسول الله أُسْوَةٌ حسنة، ألَمْ تكن الهجرة إلى المدينة هُروباً من مؤامرة اغتيال؟.

على مقعد خشبي بأحد جوانب «المتنزه» المجاور لدار الضيافة التي يقيم بها بمدينة (ليدن) بهولاندا، وبين عشرات الوجوه المفعمة بالنضارة وحب

الحياة، وترى وحيداً يتوسّد راحتي يديه المعقودتين خلف ظهره، ساهماً في «اللاشيء»، غافلاً عن روعة الأفق لحظات الغروب في الحضن الاسكندنافي، غارقاً - على البعد - في غروب رماديّ خشن.... ربما لينسى أنّه ذات يوم (فكّر) في رحاب قوم لا يعقلون (*) .

كهانة بحثية!

الأمر أفدح من كارثة!، فإن صحّ فهو أمّ المصائب وبلْوى البلايا. فأنْ يكون المسلمون قد ظلّوا لما يتجاوز أربعة عشر قرناً من الزمن - ولا يزالون حتّى اليوم، يُنادون الله - مُشركين به - بأسماء يدْعُونها (الحُسنى) وما هي بحسنى، يدعُونه بها في صلواتهم، ويهمسونه بها في ركوعهم وسجودهم، ويسرّونها إلى جلاله «نجوى» وهم على يقين أنّها «الأسماء الحُسنى» الّتي تفيض النّجوى بها بهاءً

ونوراً.. «ولله الأسماء الحُسنى فادعُوه بها»، ثمّ يثبُت أنّها «مُزيّفة»، زوّرها «السّلف» ممّن يُطلق عليهم «السّدنة» في عُلوم الدّين، و «الأجِلّاء» في علوم العقيدة، فتلك ليست كارثه، وإنّما هي «مصيبة».

وفداحة الكارثة ليس فيما يُعطيه «ظاهرها؟ من أنّ أسماء الله الحُسنى قد «زُيّفت»، وإنّما فيما وراء ظاهرها اتصالاً بالمنقول عن السّلف من أمور العقيدة، إذ لوْ «صحّ» الطّعن في عمليّة (النّقل) الّتي وصلت إلينا بها «أسماء الله» لشَاب (الشكّ) كلّ عمليّات النّقل الأخرى خاصّة في (عِلْم الحديث) وهو أساس «السنّة» إذ ظلّت الأحاديث تُروى «شفهيّاً» لمدة قرن من الزّمان حتى قيّض الله لها الخليفة «عمر بن عبد العزيز» فعمل على تدْوينها.

ومصيبة المصائب، أن يكون ذلك (قد خَفِيَ) على عُلماء الدّين طيلة «أربعة عشر قرناً» وأن يكون قد ظلّ رغم وجود «الأزهر» ومجمع «البُحوث»

ومئات ألوف الكُتب فِقهاً وتفسيراً وأصُولَ عقيدة، بل وعشرات الألوف من الأبحاث الممنوح بها رسائل الماجستير والدّكتوراه في «الأصول» و«الفقه»، و«الحديث» و«التّفسير» ثم ينكشف - بعد ألف وأربعمائة وثلاثين سنة، وبعد أن تكدّست تلك الأبحاث والدّراسات على أرض الواقع و (استقرّت) أنّ «خلَلاً» خفِيّاً شابَ «الجُذور» فلم يُلتَفَت إليه إلّا بعد «انكشاف التّزوير» إذ كيف يستقيم «إيمان المرء» بسلامة باقي المنقول إليه مِنْ (خفيّ آخر) ما زال مستوراً لم يقيّض الله له من يكشفه، بل كيف يبيت المؤمِن «مُطمئناً» في رحاب ما يتعبّد به وقد ارتجّت الأرض من تحته بأسْماء الله (الحُسنى) المزيّفة؟.

فإن أرجعت غفلة تجاهل «تلك المصيبة» إلى أنّ حال المسلمين (اليوم) بذاته كارثي، فإلى جانب الجوع والتخلّف عمّت (الجهالة) الّتي أصبحت بها الشّعائر تُؤَدّي (طُقوساً) - بالتّعود - دون تدبّر أو

تفكير، إذ كيف يتأتّى التّفكير وقد أَغلِقت أبواب «العَقل» وسُلّمت مفاتيحها (للِكهنة) ممّن تكتظّ بهم (الفضائيات) وممّن «ينبشون» في العُقول داخل صوامع «التّأسْلم السياسي»، إن أرجعت غَفلة تجاهل المُصيبة إلى ما عليه حال المسلمين الحاضر، فما هذا الحال إلّا لحظة «احتضار» ويْل من يعبرها إلى (الله) بجهالته، وويلي إن سَكَتّ عنها.

ففي العدد رقم (410) من جريدة «صوت الأمة» المصريّة الصادر بتاريخ (20/ 10/ 2008) نُشر خبر فادح الصّدمة بعنوانه: «الله ليس واحداً ولا نافعاً ولا مميتاً ولا باعثاً»، وقد احتلّ هذا الخبر مساحة نصف الصّفحة الأخيرة وتصدّره مُستطيل (مقلُوب) يحتلّ نصفه وجه الشيخ «يوسف البدري» الذي أشار الخبر بأنّه (عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية)، ويحتل النّصف الآخر من المستطيل «المتصدّر» وجه (إنذار) قضائي موجه إلى «شيخ الأزهر» ووزراء الأوقاف والإعلام

والتربية والتّعليم والتّعليم العالي طلباً (لإلغاء) عدد (21 اسماً) من أسماء الله الحُسنى (المشهورة!) واستبدالها بالأسماء الصّحيحة الّتي جاء بالإنذار أنّها هي الثّابتة (بالكتاب والسنّة).

ثم عادت الصّحيفة نفسها في عدد لاحق فنشرت أنّ (يُوسف البدري - عضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلاميّة) ومعه (خمسون أستاذاً) منهم الدكتور محمود عبد الرازق الرّضواني أستاذ العقيدة والأديان بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنوّرة، والدكتور محمود شعبان إبراهيم عميد معهد إعداد الدّعاة بعين شمس والأستاذ بجامعة الأزهر وغيرهم ممّن وصفهم الخبر بالدّعاة الإسلاميين يهدّدون - وقد سبق أن أنذَرُوا - برفع دعوى قضائيّة ضدّ شيخ الأزهر، ووزير الأوقاف وغيرهم ممّن شملهم الإنذار للحكم باستبدال أسماء الله الحُسنى (الخاطِئة) بالأسماء الصّحيحة وتغيير البرامج الدّينية تلك الأسماء، كما أن على وزير الأوقاف أن يُبلغ الدّعاة

والأئمّة التّابعين له بهذا التّعديل ليعملوا به.

ودون تدخّل مِنّا، نضَعُ «الخبرين» بين يديْك.. أنتَ تقرأ، ونحن في (صدْمة) التّساؤل: وماذا عن بقيّة تراث «العقيدة!»؟

فمن الخبر الأول نقلاً عن الصحيفة المشار إليها ما يلي نصه: الخافض، المعز، المذل، العدل، الجليل، الباعث، المُحصي، المبدئ، المعيد، المميت، الواحد، الماجد، الوالي، المقسط، المغني، المانع، الضار، النافع، الباقي، الرشيد، الصبور ليست من أسماء الله الحسنى ولا يصح اصلاً أن يُسمّى بصفاتها الله سبحانه وتعالى.. تخيل!!.

ليست هذه نكتة، ولكنها - استغفر الله العظيم - صدمة جديدة حملتها لنا دعوى قضائية، ربما تكون هي الأغرب والأخطر من التاريخ الإسلامي، ليس لما تحويه من قلب لكل المفاهيم والقيم الدينية التي تربّي عليها المسلمون على مدار 14 قرناً من

الزمان فحسب، ولكن لأنها تتصل بالخالق الذي أوجد هذا الكون، تتّصل أيضاً بطريقة تعبّدنا له، وخطابنا كبشر مع جلاله وعزّته وعظمته، ولا حول ولا قوة إلّا بالله.

[50] مصرياً على رأسهم يوسف البدري الداعية الإسلامي وعضو المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، والأستاذ الدكتور محمود عبد الرازق الرّضواني أستاذ العقيدة والأديان بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والدكتور محمود شعبان إبراهيم عميد معهد إعداد الدعاة بعين شمس والأستاذ بجامعة الأزهر وسبعة دعاة إسلاميين، ومدرس مساعد بالجامعة و16 محامياً و6 أطباء وجيوكيميائية وأخصائي اجتماعي ومدرسان ومهندسان و5 محاسبين و4 موظفين وطالبا جامعة، هم أصحاب هذه الدعوى الغريبة التي أُرسِلت في إنذار على يد محضر إلى شيخ الأزهر ووزراء التعليم والتعليم العالي والأوقاف والإعلام

ورئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون تطالبهم بإلغاء [21] اسماً من أسماء الله الحسنى المشهورة لعدم صحتها وعدم جواز تسمية الله تعالى بها واستبدالها بالأسماء الصحيحة الثابتة بالكتاب والسنة.

واستند هؤلاء الخمسون في دعواهم بالطعن على أسماء الله - التي لم تعد حسنى من وجهة نظرهم - إلى أن هذه الأسماء ليست من كلام النبي وأن الذي رواها هو الوليد بن مسلم مولى بن أميّة وهو عند علماء الجرح والتعديل - المختصين ببحث مدى صدق رُوَاة الحديث - كثير التّدليس في الحديث، وأن ثاني من روَى هذه الأسماء عبد الملك الصنعاني وهو عنهم ممن لا يجوز الاحتجاج بروايته لأنه ينفرد بالموضوعات، والثالث هو عبد العزيز بن الحصين وهو ضعيف ذاهب الحديث، كما قال الإمام مسلم، ولكن الذي جمعه الوليد بن مسلم هو الذي اشتهر بين الناس منذ ألف عام ولهذا فقد جاءت عنه الرّوايات مختلفة في الاسماء، حيث استبدل

الوليد [القائم الدائم] بدلاً من [القابض الباسط]، واستبدل [الرشيد] [بالشديد]، [والأعلى والمحيط والمالك بدلاً من الودود والمجيد والحكيم] وأسماء عديدة أخرى والعجيب أن الأسماء المُدرجة في رواية التّرمذي هي المشهورة فقط، وأكّد المدّعون أن العلماء اتفقوا على أن الأسماء المشهورة ليست نصاً من كلام النبي وإنّما هي ملحقة أو ملصقة أو بتعبير المحدّثين مدرجة مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن لله تسعة وتسعين اسماً مائة إلا واحداً من أحصاها دخل الجنة»، وقال ابن تيمية: «لم يرد في تعيينها حديث صحيح عن النبي» وحُفّاظ أهل الحديث يقولون «هذه الزيادة مما جمعه الوليد بن مسلم عن شيوخه من أهل الحديث» ومنها حديث كان أضعف من هذا رواه ابن ماجة، بينما قال ابن الوزير اليماني أن تمييز التّسعة والتسعين يحتاج إلى نصّ متّفق على صحته أو توفيق ربّاني، وقد عمّ النصّ المتفق على صحته في تعيينها فينبغي

في تعيين ما تعيّن منها الرّجوع إلى ما ورد في كتاب الله بنصّه، أو ما ورد في المتّفق على صحّته من الحديث، وأشاروا إلى أنّ اتفاق العلماء على اختلاف مذاهبهم جاء بأنّ الأسماء الحُسنى لابدّ أن تكون توفيقيّة على القرآن والسنّة أي أنّه يجب الوقوف في تعيينها على ما جاء في الكتاب وصحيح السنة ولا مجال للعقل فيها لأن العقل لا يمكن بمفرده أن يتعرّف على أسماء الله التي تليق بجلاله ولا يمكن أيضاً إدراك ما يستحقّه الرّب من صفات الكمال والجمال.

وأشارت الدّعوى إلى أن الدكتور محمود الرضواني الطالب الثاني قد أعدّ دراسة بعنوان: «أسماء الله الحُسنى الثابتة في الكتاب والسنة» انتهى فيها إلى أن عدد 29 اسماً من الأسماء المشتهرة بين الناس هي من إدراج الوليد بن مسلم في رواية الترمذي والتي لم توافق الشروط العلميّة التي وضعها العلماء بينها 21 اسماً - التي وردت

في بداية الموضوع - ليست من الأسماء الحُسنى ولكن عليها أفعالاً وأوصافاً لا يصحّ الاشتقاق منها ولا يصحّ تسمية الله تعالى بها، أمّا الثمانية الباقية وهي «الرافع، المحيى، المنتقم، الجامع، النّور، الهادي، البديع، ذو الجلال والإكرام» فإنها أسماء ذُكرت بصيغة مقيّدة أو مضافة ولا توافق الشروط الواجبة في أسماء الله الحسنى المطلقة التي تفيد الكمال المطلق لله تعالى.

وبرّر الطّالبون دعواهم مؤكدين أنّ الأسماء المشهورة [إنّما هي إلحاد في الأسماء الحسنى] وأن الواجب الشرعي هو تصحيح هذا الخطأ لأنّه يتعلق بعقيدة المسلم وتوحيد الله بأسمائه وصفاته، وأوردت الصحيفة والإنذار جدولاً حمل 29 اسماً مضافة وهي الصحيحة من وجهة نظرهم وهي «المولى، النّصير، العفو، الوتر، الجميل، الحيّ، الستير، الأحد، القريب، المليك، المقتدر، المُسخِّر الدّيان، الشاكر، المنّان، القادر، الخلاق، الرّقيق،

السيد، الطيّب، الأكرم، البرّ، الجواد، السّبوح، الوارث، الرّب، الإله، المبين، العليّ».

أمّا الخبر الثاني فقد جئناك به ـ لحماً ودماً ـ لتكون المصيبة قاضية،
إغماءة يحتجب وراءها مُنحدر التردّي إلى المصير المؤلم!:

ص101

ولا تعليق!..

كهانة بيُولوجيّة

الخلاف حول «المسيح» قديم قدم المسيحية ذاتها ويقوم هذا الخلاف بين طائفتين، طائفة تُؤمن بالمسيحية ديناً لها وتختلف حوْل طبيعة المسيح، إلهيّة هِيَ أمْ إلهيّة بشريّة، وطائفة لا تؤمن لا بالمسيحيّة ديناً ولا بالمسيح مولُوداً بمعجزة وهم اليهود وبعض من أصحاب الدّيانات الأخرى.

فالمسيحيون - وإن اتّفقوا على أنّ المسيح وُلِدَ بمعجزة إلهيّة، إذْ ولَدتْه أمّه «مريم» ولم يمْسَسها بشر، فهم يختلفون حوْل طبيعة المسيح ما إذا كان بالمعجزة الإلهية قد حلّ بالميلاد (إلهاً) أم أنّه حلّ بشراً بـ (الجسد) إلها بـ (الرّوح)، أُقنُومين، ناسوتاً به اللّاهوت، أم لاهُوتاً متجسّداً في النّاسوت.

والدّخول في تفاصيل هذا الخلاف يقتضي تقليب ألُوف المراجع إضافة إلى الإحاطة بأحداث ما جرى

في المجامع الكنسيّة على مر التّاريخ وما أسفر عن تلك الأحداث من صراعات ومذابح، كلّها أمور لا نبحث فيها، إذْ لا شأن لنا فيما نخطّه بنَاسُوت ولا لَاهُوت.

ما يعنينا هو أنّ همْساً كان يتردّد منذ زمن بعيد يقول على حذَر بأنّ عمليّة صَلْب المسيح الّتي أوْردتها الأناجيل لم تكن سِوَى «خدعة» دبّرها «بيلَاطِس»، وأنّ المسيح وُجِدَ حياً بعد تاريخ تلك الخدْعة فاصطحب زوجته (مريم المجدلية) وابنه منها إلى «كشمير» بالهند فعاش ودُفِنَ هُناك، وقبره هناك - للآن - يشهد بذلك.

وكان من بين روّاد هذا الهمس الحَذِر المفكر المصري عبّاس محمود العقاد الّذي اختتم كتابه «عبقريّة المسيح» بخاتمة أزاح فيها النّقاب، عمّا وراء حذَرِه، إذ قال بأنّ ليس للتّاريخ كلمة راسِخَة في خبر من الأخبار الّتي أعقبت حادثة الهيكل وحرّكت كُهّانه للبطش والنّكاية بالمسيح.

ويضيف بأنّ حادثة اعتقال المسيح غامضة لا تُفصِح عمّن اعتقله ومَنْ دَل عليه، كذلك ففي حادثة المُحاكمة يجري الخبر على أنّه حُوكم بالليّل وصَدرَ الحكم في يوم واحد، مع أنّ النّظام المُوسَوِي كان يُحرّم المحاكمات الليّلية، كذلك حادثة التّنفيذ الّتي أورد إنجيل يُوحنّا أنّ تسليمه للتّنفيذ كان في نحو السّاعة السّادسة بينما يقول إنجيل مُرقص أنّها كانت السّاعة الثالثة فصَلبُوه.

ويُتابع العقّاد ما قاله الباحث «ريتشارد هِرمان» في كتابة «مُحاكمة المسيح» في أنّ تلك المُحاكمة كانت يومَ خميس بينما الأخبار تَجري على أنّ المُحاكمة والصلب حدثا في يوم جمعة.

ثم يصل العقّاد إلى «مَارِد» القُمقم الّذي يتحسّس لإطلاقه فيقول :

ومن الأخبار التاريخيّة خبرٌ لايصحّ إغفاله في هذا الصّدد لأنّه محلّ نظر كبير، وهو خبر الضّريح الّذي يوجد في طريق (خان بار) بعاصمة كشمير ويسمّونه هُناك ضريح النبيّ أو.. (ضريح عيسى)، ورَوَى تاريخ الأعْظَمي الّذي قبل مائتي سنة أنّ الضّريح لِنَبِيّ اسمه (عُوش أسَاف) الّذي يتناقَل أهل كشمير عن آبائهم أنّه قَدِمَ إلى هذه البلاد قبل ألفي سنة، وينقُل المؤلَوي محمد علي في ترجمته للقرآن الكريم عن كتاب عربيّ يسمى (إكمال الدين) محفُوظ منذ ألف سنة أنّ اسم «عُوش أسَاف» مذكور فيه، وأنّه قال إنه رحّالة ساح في بلاد كثيرة، وإنّ كتاب «برلام ديو شافاط» في صفحة (111)

يذكر عن «عُوشْ أسَاف» أنّه صاحب بُشْرى [1] **.**

فإذا كان العقاد قد تردّد بين السّتر والإفْصاح - أخذاً بالتّقية، فإنّ غيره أفصح، بلْ صَرخَ في وجه العالم كُلّه شرْقِه وغَربه، بلْ، وعلى باب ساحة «البَابَوية» في رُوما فسمع العالم كلّه صرخته الّتي جُوبهت بالصّمت الرّهيب أملاً في حَصْرها بدائرة (منْ يقرأون) وهم قلّة، ومن ثمّ، فمع الأيّام سَتُنْسى.

كتاب اسْمُه «أوْراق المسيح» للباحث البريطاني «مايكل بياجنت» صدر في بريطانيا ووزّع في جميع أنحاء العالم عدا بعض دُول منها مصر، يتحدّث عن أنّ المسيح لمْ يَمُت على الصّليب وإنّما هاجَر إلى الهند وأفغانستان ودُفِنَ في كشْمير، والكتاب يبْني لما يقوله اعتماداً على (بَرْدّيتين) عُثِرَ عليهما أخيراً في القدس نتاج أعمال التّنقيب والحفر الجارية هناك.

وقد نَشَرت جريدة «الفَجْر» المصرية بالعدد رقم (131) الصادر في 17/ 12/ 2007 تلخيصاً مقتضباً لهذا الكتاب نُضيفه إلى ما قاله العقّاد عمّا يتناقله الخَلفُ عن السّلَف في «كشمير» ونضَعُه بين يديْك.

ص103

الكاتب

تقول الجريدة: منذ الجملة الأولى من كتاب مايكل بياجنت «أوراق المسيح» يضربنا الكاتب بعنف على رؤوسنا.. ويقول: إنّ غالبية ما نعرفه عن المسيحيّة ليس دقيقاً.. ثم يتساءل: ماذا لو احتفظت جماعة

صغيرة بالحقيقية لنفسها وحرصت على إخفائها؟.. ماذا لو عثرها على أدلّة لا شك فيها تؤكّد أن المسيح لم يقتل على الصليب؟.. ماذا لو قيل لنا إنّ المسيح لم يأت إلى مصر طفلاً وإنّما سافر إلى أفغانستان سرّاً وتعلّم على يد بُوذيين ودفن في قبر شهير في منطقة كشمير؟

دَرَس مايكل بياجنت الفلسفة في جامعة كانتري بيري وحصل على الماجستير من جامعة كنت في علم الإنسان ثم انتقل من وطنه نيوزيلندا هو وعائلته إلى بريطانيا وتفرّغ لتأليف دراسات مسيحية.. أشهرها «الدّماء المقدسة» التي قدّم فيها نظرية زواج المسيح من مريم المجدلية.. وهو كتاب اعتمد عليه مؤلف رواية «دافنشي كود».

يقول إنّه قضى عشرين عاماً يفتّش وينقّب في الوثائق القديمة قبل أن يعلن في كتابه الأخير أن كلّ ما نعرفه عن المسيحية يحتاج - على الأقل - إلى مراجعة.. وإن قال ذلك بطريقة أجْرَأ ممّا نعبّر عنها.

البداية تليفون أيقظه حَمل إليه دعوة من أحد أصدقائه يدعوه للحضور إلى لندن لتصوير وثائق شديدة الأهمية، وصديقه عضو في جماعة سريّة تتاجر في الآثار.. تضم أمريكياً وفلسطينياً وسعودياً وأردنياً.. ذهبوا جميعاً إلى خزانة أمانات في بنك.. وفتحوها.. ووجدوا فيها وثائق قديمة مكتوبة باللغتين العبرية والآرامية، ، وكانت مهمة مايكل بياجنت تصويرها بشكل دقيق لإرسالها إلى دولة ما ستشتريها بنحو ستة ملايين دولار.. وحمل نسخة منها إلى المتحف البريطاني وتركها للمسؤولين هناك.. وبعد عدة اسابيع عاد ليسألهم عن رأيهم فإذا بالجميع يؤكّدون أنّهم لم يسمعوا عن تلك الوثائق شيئاً.

يعتقد مايكل بياجنت أن هذه الوثائق دليل على وجود حقائق تاريخية مجهولة لا يعرفها العالم ويريد البعض أن تظل مجهولة، ووصله خطاب لفت انتباهه يقول في المرسل: «إن الكنز ليس بالضرورة من

ذهب وياقوت.. وإنما الكنز هو وثيقة تشير إلى أنّ المسيح كان على قيد الحياة عام 45 بعد الميلاد والدليل على ذلك تَركَه راع صالح وحاول البعض تدميره والتّلاعب به».. وحمل الخطاب توقيع شخصية لها مكانتها العلميّة هو الدكتور دوجلاس ويليان برليت.. أما الراعي الصالح الذي أشار إليه فهو الأب بيرنجيه سونيار.

عُيّن الأب بيرنجيه سونيار في كنيسة قصر رينيس عام 1885 براتب لا يزيد على عشرة دولارات ورغم ذلك نجح في ترميم الكنيسة على نحو رائع ويبدو أنه لم يعثر على مصدر للتمويل فقرر بيع وثيقة قديمة كانت في حوزته تتعلق بالمسيح وتعاليمه، وفيما بعد سمع الدكتور دوجلاس برليت بقصة الوثيقة من القسّ الإنجليزي كانون الفريد ليلى الذي توفي عام 1948 وكان مستشاراً لكاتدرائية هيريفورد كما كان متخصّصاً في تاريخ فرنسا في العصور الوسطى.

نشأت علاقة قوية بين البرفيسور دوجلاس برليت والقسّ كانون ليلى جعلت الأخير لا يتردّد في إفشاء ما لَديه من أسرار لصديقه..

وأحد هذه الأسرار يعود إلى عام 1890، وكان القسّ لا يزال في الثلاثينات من عمره عندما طلب منه أحد طلّابه الذهاب إلى معهد سان بيث في فرنسا من أجل المساعدة في ترجمة بعض الوثائق الغريبة الّتي تشكّك في الكثير من مباديء الكنيسة.

قيمة ما يقوله القس تُستمَد من مكانته شخصياً.. فهو من جماعة المعتدلين وهي جماعة تدعو إلى إعادة النظر في تعاليم المسيحية في ضوء ما يتوصل إليه العلم من اكتشافات.. وهو ما يرفضه الفاتيكان.. وهم يقولون إن هناك أشياء كثيرة اخترعتها الكنيسة الغربية خاصّة فيما يتعلّق بموت المسيح.. ووصل غضب الفاتيكان من تلك الجماعة إلى حدّ أنّ البابا أجبر كل رجاله أن يُقسموا على عدم التأثّر بأفكار المعتدلين الذين كان مركزهم

الرئيسي في معهد سان سل بيث الذي يضم وثيقة أنّ المسيح ظل على قيد الحياة 15 سنة بعد صلبه.

الوثيقة كانت ضمن أوراق المؤرّخ اليوناني سيوتنيوس الذي عاصر حُكم الإمبراطور كلوديوس في روما ما بين عامى 41 و 45 بعد الميلاد وطَرد اليهود من بلاده بعد قيامهم بأعمال شغب بتوجيه من كريستوس.. ولكن.. من هو كريستوس؟.. هل يمكن أن يكون هو نفسه المسيح؟.. المؤكد أن التّرجمة اليونانية لكلمة المسيح هي كريستوس.

لكن.. الأمر لا يتوقف على وثيقة المُؤرّخ اليوناني سيوتنيوس.. فهناك رسوم تؤكّد نفس ما أشار إليه.. فهناك لوحة في كنيسة الأب بيرنجيه سونيار تصوّر امرأه تحمل طفلاً صغيراً تقف إلى جانب المسيح. ولوحة أخرى تصوّر ثلاثة رجال يُخْرِجُون جثمان المسيح من مقبرته ووراءهم يظهر القَمر مكتملاً في ليلة مظلمة.. ولو كان القمر مكتملاً فهذا يعني أنّ عيد الفصح قد بدأ عند اليهود.. وفي عيد الفصح لا

يمكن أن يحمل يهوديّ جثماناً ميتاً.. ومن ثم لابدّ أنّ الرّجل الذي يحملونه كان لا يزال على قيد الحياة.. وبالتّالي فإنّ المسيح لم يمت على الصليب.

لقد كان الأب بيرنجيه سونيار يؤمن بأنّ المسيح لم يمت بعد حادث الصلب وهو اعتقاد يتبنّاه غيره بالتأكيد.. لكن.. إعادة قراءة تاريخ المسيحية ومحاولة معرفة جميع التفاصيل المتعلّقة بالمسيح تتطلّب إعادة نظر في الأحداث التاريخية التي عاصرت ميلاده وبالتّحديد ما جرى في عام 37 قبل الميلاد مع سيطرة هيرود على القدس وتنصيب نفسه ملكاً عليها تحت لقب هيرود العظيم، ورغم أنّه أعاد بناء الهيكل لليهود فإنّه كان يُكِنّ كراهية شديدة لهم.. وعندما مات انقسمت السّلْطة بين أبنائه وانقسم اليهود إلى أربع طوائف.. الساديوسيز.. وهي الطائفة المعنية بشؤون المعبد.. والإسينيز.. وهي الطائفة الحريصة على الشريعة.. والفاريسيز.. وهي الطائفة الحافظة للتقاليد.. والزيالوتس.. وهي

طائفة المتحمسين للتّغيير.. فقد انتظرت هذه الطائفة قدوم المُخَلّص من أجل إنقاذهم من الرّومان.. ولكي يضمنوا أنّه سيكون من سُلالة نقية تعود إلى داود رحّبوا بكل زيجة تضمن لهم ذلك.. لكنّ ظهور المسيح جعلهم يتخلون عن خططهم خاصّة أنّ المسيح جاء إلى الأراضي المُقدّسة حاملاً كلّ التعاليم التي تؤكّد أنّه المنقذ المنتظر.

وتشير الحقائق التاريخية في تلك الفترة إلى أنّ المسيح كان جزءاً من حركة الزيالوتس وظهوره كان نتيجة لاحتياجاتها.. والسّؤال الذي طرح نفسه: هل الشخص الذي ظهر هو نفسه الشخص المنتظر؟.

إن الكنيسة ترسم اليوم صورة للمسيح بملامح أوروبية وبشَرَة بيضاء بينما هو في الحقيقة فلسطيني.. بشرته سمراء.. فكأَنّ صورة المسيح الشهيرة المرسومة في الكنيسة غير صحيحة.. أو غير دقيقة.. أو جرى التلاعب بها.. فهل يمكن أن يمتدّ ذلك التحوير إلى قواعد الدّيانة ايضاً؟.

إن قواعد الدّيانة مُستمدّة من الأناجيل التي كتبها بعض من عاصروا المسيح.. ويفترض أنها كتبت في القرن الأول بعد الميلاد.. هذا التأخير في جمْع التعاليم الدّينية يضعها أمام سؤال صعب وخطير هل فاتت الدّقة بعضها بسبب التأخير عشرات السنين؟.. إن ذلك ما يؤيّده الكاتب المسيحي جاستين مارتيز الذي عاش في القرن الثاني بعد الميلاد.. بل أكثر من ذلك وصف ما نُشر من كتاب سماوية بأنّها كُتب بشرية.

لكن.. هذه الشكوك لم تمنع الإمبراطورية الرومانية من إعلان المسيحية ديانة رسمية لها واعتبار المسيح نبيّاً يرقى على مرتبة الإله وكان ذلك في عام 306 بعد الميلاد.. كما لم تمنع ظهور الفاتيكان وسيطرة البابا على حياة المسيحيين وأن لا تخْلُو كواليس الحياة في الفاتيكان من قسّ أو أكثر يضاعفون من حجم الشكوك المطروحة.

لكن ما هي الحقيقة التي يبحث عنها المؤلف؟..

وهل هناك مبرّر كي نشكّك في بعض تواريخ الأحداث التي مرّت بالمسيح؟.. أسئلة دفعته إلى السفر إلى مصر حيث هربت العائلة المقدّسة هرباً من بطش الرومان.. ويلاحظ أنّ الأناجيل لم تتناول حياة المسيح في مرحلة الشباب.. وكأنّه اختفى من على وجه الأرض.. لكن.. هذه المرحلة التي شهدت تَعلُّمه الأفكار والمعتقدات والتعاليم التي حرص على نقلها إلى الناس.. فأين كان المسيح في تلك المرحلة من حياته؟ مع من قضى أيّامه؟.. على أنّ السؤال الأهم: لماذا ظلّت هذه الأسئلة بلا إجابات؟.. ولماذا كلّ هذا الحرص على عدم الخَوْض في تلك المرحلة؟.

إن هذا الغُموض المحيط بتلك المرحلة في حياة المسيح دفع الكثير من الباحثين للتفتيش فيها وفتحوا أبواباً عديدة للتفسيرات بِغَضّ النظر عن صحّتها أو خطأها.. ومنها أن المسيح سافر إلى الشّرق ليبتعد تماماً عن الرومان.. ووجد نفسه في

الهند وأفغانستان.. بل هناك أبحاث جديدة تُؤن بأنّ ضريح «يوس أساف» في كشمير ما هو إلّا ضريح المسيح بعد نجاته من الصلب.. فقد عاد مرة أخرى إلى الشرق حيث مات هناك.. كما أنّ هُناك دراسات أخرى تؤمن بأنّ المسيح قضى سنوات من صباه يتعلّم من البوذيين، ويُدعم ذلك التّشابه بين تعاليم المسيحية والبوذية.. ومن كتاب «رائحة الأوديسا» للكاتب هيو سكونفيلد والذي أشار إلى وثائق عثر عليها بدوي عربي في العراق تشير إلى ذلك.

هذه النظريات تقوم على فكرة هروب المسيح من الرومان إلى الشرق.. لكنّه لم يكن في صباه على علاقة بحركات المقاومة ضد الرومان وبالتالي لم يكن في حاجة إلى الهُروب إلى الشرق. وفي الكتب المقدسة أن المسيح والسيدة العذراء فرّا إلى مصر.. لكن لماذا مصر بالذات؟.. عند الحديث عن هذه المرحلة لابد من الاشارة إلى ما يُعرَف برواية «ثيموفيليس» وقد كان بطريرك الإسكندرية ورئيس

الكنيسة المصرية في الفترة ما بين 385 و412 بعد الميلاد، وهي الرواية التي تذكر كلّ تفاصيل الرّحلة وما صاحبها من معجزات.. إنّ تلك الرواية لم تُسجّل إلّا في القرن الحادي عشر أو الثاني عشر.. ولعلّ تأخير التسجيل طوال هذه السنوات الطويلة التي تقاس بالقرون قد يثير الشكوك حول صحتها ويطرح أسئلة جديدة تطفو على السطح من جديد.. مَن المستفيد من تلك الرواية التي تعكس رغبة البعض في ربط المسيح بمصر التي خضعت لحكم المسلمين؟ هي كانت تلك الرواية مبرّراً للحملات الصليبية على مصر؟.. أم كانت رواية مصرية محليّة للحصول على مكاسب مالية من زيارات المتدينين للأماكن التي مرّت بها العائلة المقدسة؟.

لكن المؤكّد أنّ مصر شهدت في فترات تاريخية متنوعة وجود جماعات من اليهود وبعض علماء التاريخ والآثار يقولون إنّه ليس سراً أنه كان في مصر في فترة ميلاد المسيح معبد يهودي له نفس

قداسة وأهمية معبد القدس بل تميّز معبد اليهود في مصر بوجود كهنة يُطلق عليهم بنو زادوك أو اليهود المخلصين.. وسُمّي هذا المعبد بمعبد أوناويس.. وفيه تلقّى المسيح الكثير من التعاليم والأفكار من كهنته.

هناك دليل على ذلك في إنجيل ماثيو حين نقرأ أن الجنّة في متناول اليد.. وهي آية تتفق مع قصص العهد القديم عن النبي يعقوب الذي كان في طريقه إلى هاران حيث قضى ليلته نائماً على الأرض ووضع رأسه على حجارة فشاهد حلماً يصعد فيه إلى الجنّة على سلّم يمتد من الأرض إلى السماء وتصعد وتهبط الملائكة عليه.. في ذلك الوقت كان الناس يؤمنون بإمكانية التنقل بين السّماء والأرض وإمكانية الذّهاب إلى الجنة والعودة منها.

اعتقادات تقترب من الدّيانات المصريّة القديمة التي اهتمّت بالحياة بعد الموت أكثر من اهتمامها بالحياة نفسها.. فعلى جدران المعابد تسجيل لرحلة

الإنسان في العالم الآخر من أجل الوصول إلى الجنة.. كلّ هذه الأفكار تفسّر لماذا كانت مصر مكاناً غامضاً تُسيطر عله أهله فكرة البعث والخلود ومن ثمّ كانت مكاناً مناسباً لظهور اليهودية والمسيحية.

ص107

صورة لإنزال المسيح من على الصّليب،

ويظهر القمر (بدراً) في خلفيّة الصورة، بما يقطع بأن المسيح أنزل من فوق الصليب وهو (حيّ) حيث كانت الديانة اليهودية تحرّم حمْل الموْتى في يوم «الفصح» وهو يوم اكتمال القمر بدراً.

أحد الأدلّة على تأثير الفرعونية في اليهودية والمسيحية ظهر عام 1768 عندما قرر المكتشف الاسكتلندي جيمس بروس القيام برحلة لاكتشاف منابع النيل، وعلى الرّغم من صُعوبة الرحلة إلّا أنّه نجح بعد عامين في الوصول إلى أثيوبيا التي كانت تعاني حروباً أهلية جعلت جيمس بروس يعود إلى أوروبا.. على أنّه عاد من جديد وبصحبته كنز ثمين.. هو ثلاث نسخ من نصّ يهودي يحمل عنوان: «كتاب آنوش».. وهو كتاب يضمّ نصوصاً مختلفة وعديدة تثبت أنّ اليهودية أخذت نصوصاً كاملة من الفرعونية عن البعث والجنة وهو ما

تحدث عنها المسيح فيما بعد.

وفي عام 1896 اكتُشف في نجع حمادي إنجيل مريم المجدلية، وفي نصوصه تحذير من المسيح للناس من محاولة البحث في تفسير مادي لمملكة الجنة.. وكان المسيح يطلق على الجنّة «الأرض البعيدة» ويبدو أن مريم المجدلية هي الوحيدة الّتي فهمت ماذا يَعني الحديث عن الأرض البعيدة.

هذه الحقائق تنقلنا إلى طبيعة علاقة المسيح بمريم المجدلية.. هل تزوّجها فعلاً؟.. إنّ هذا الأمر يربطنا بفكرة المسيح وبعثه ونجاته من الصّلب.

لقد دخل المسيح القدس وهو يركب حماراً حصل عليه من جبل الزّيتون والتفّ النّاس حوله خاصّة يهود الزيالوتس المنتظرين قدوم المسيح كي ينقذهم.. لكنّ حادثة ما وقعت جعلت هؤلاء اليهود ينقلبون عليه.. فقد طلب منه الرّومان دفع الضّرائب فطلب المسيح «عُمْلَة» وسأل عن الاسم المحفور

عليها وعندما عرف أنّه لقيصر قال عبارته الشهيرة أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله ودفع الضرائب وهو ما تسبّب في توتّر العلاقة بينه وبين اليهود الذين فقدوا إيمانهم به بعد أن توقّعوا أنّه سيقف في وجه الرّومان، ولكن المسيح برّر تصرّفه بأنّ الضّرائب لا تشكّل أهميّة في مملكته البعيدة الّتي ليست على الأرض.

توجّه المسيح بعد ذلك إلى بيت سيمون المنبوذ قبل عيد الفصح بيومين وفق إنجيل ماثيو ولكن إنجيل جون يؤكد أنّه توجّه إلى منزل مريم المجدلية وفي تلك الليلة قامت مريم بالمسْح على رأسه بالزّيت وهو التّعميد الذي لا يتمّ إلّا في حالات التّتويج والتكريم ويبدو أنّها تولّت بنفسها طُقوس تعميد المسيح كشكل من أشكال الاعتراف به، ولعبت هذه الحادثة دوراً كبيراً فيما جاء بعدها من أحداث. حسب إنجيل ماثيو إذْ اتخذ يهوذا قراره بخيانة المسيح بعد التّعميد وفي ذلك الوقت كان القائد

بيلاتي هو الحاكم العسكري الممثل لروما الذي كان عليه إلقاء القبض على المسيح ومحاكمته بتهمة سياسية بسبب كراهية اليهود له لكنّه في الوقت نفسه لم يبد مقاومة لحكم الرومان بل ودفع الضرائب.. إن ذلك الموقف الذي تورط فيه بيلاتي هو أكبر دليل على أن عملية الصّلب لم تحدث أو جرى تزويرها.. لكن.. كيف؟.

مؤلف الكتاب يؤمن بأنّ المسيح لم يمت عند صلبه، ولكي يثبت ذلك كان عليه أن يشرح عمليّة تنفيذ الصّلب وكيف تتم؟

الصّلب يعتمد في المقام الأول على فكرة التعذيب إلى حدّ الموت حيث كان الفرد يُربط بعمود على هيئة صليب من جميع أطرافه ويُؤَدّي ثِقَل الجسد إلى صُعوبة التّنفس بما يؤدي في النهاية إلى الوفاة.. ومن باب الرّحمة كانت تُكسَر رجْل المتوفى لتخفيف آلامه.. ويَذْكُر إنجيل جون أنّ الرّجلين اللّذين صُلبا مع المسيح قد كُسرت أرجلهما.. ويذكر المؤرخ

الروماني الرئيسي لهذه الفترة واسمه جوزيف أنه طلب بنفسه الرحمة من الحاكم الروماني تيتوس وبالفعل كانت هناك محاولة لإنقاذ الرجال الثلاثة المصلوبين ولكن اثنين منهما ماتا والثّالث جرى إنقاذه.. فهل كان المسيح هو الرّجل الذي أنقذوه؟.

يؤكّد المؤلّف أنّ المسيح لم يتم إبداله برَجُل آخر حلّ محلّه ولكنّه صُلِب فعلاً على أنّه لم يَمُت، وهو ما بحثه برنامج تليفزيوني بثّته محطة «بي. بي. سي» بعنوان «هل مات المسيح؟» عام 2004 أشار إلى أنّ المسيح طَلَب أن يشرب فقام أحد أتباعه بإعطائه إسفنجة مبلّلة كي يشرب وبعدها مات على الفور..

ويبدو أنّ الاسفنجة كان بها مادّة مُخدّرة أدّت إلى إصابة المسيح بإغماءة جعلت النّاس تعتقد أنّه مات.. وهي رواية ذكرتها أناجيل مختلفة.

هذه العمليّة خُطّط لها بمساعدة بيلاتي الحاكم العسكري الّذي أصيب بالدهشة عندما طلب أتباع

المسيح جثمانه، كما جاء في إنجيل مارك، لكن المثير للدّهشة أنّ أتباعه عندما طلبوا جثمانه أطلقوا عليه لقب «سوما» وهي كلمة يونانية تَعني الجسد الّذي لا يزال ينبض بالحياة.

لكن.. إذا كان المسيح لم يَمُت فماذا حدث له وأين الأدلّة على ذلك؟.. يؤكّد مايكل بيجنت أنّ المسيح توجّه إلى مصر وكانت بصحبته مريم المجدلية، فقد اختفت هي أيضاً بعد عملية الصّلب وقد أقاما في مصر في أحد المعابد ليستكمل بثّ تعاليمه، وهو ما يفسّر ظهور مجموعات مسيحية في مصر في القرن الثّاني بعد الميلاد وهي مجموعات احتفظت لنفسها بالكثير من أصول تعاليم المسيح ورفضها الفاتيكان.

والمُرجّح أنّ عائلة المسيح بقيت في مصر إلى عام 38 ميلادية إلى أن تعرّضت لمشاكل دفعتها للهروب إلى فرنسا.. وهناك شواهد تُؤكّد أن مريم المجدلية أتت من الشرق الأوسط إلى مدينتي ناربوني ومارسيليا.. وهناك أدلّة على أنّ تلك

الهجرة حملت توقيع الرّحالة اليهودي بنجامين أوفتوديلا الذي زار مدينة ناربوني وسجّل في مؤلفاته أن المجتمع اليهودي في جنوب فرنسا كان تحت تأثير رجل ينتمي إلى سلالة سيدنا داود وينتمي إلى شجرة عائلته.

إنّ الدليل على كل ذلك موجود لدى رجل أعمال إسرائيلي عاش لفترة في أوروبا وكان شديد الولع بجمع التّحف والوثائق المتعلّقة بالأديان.. وقد التقاه المؤلف منذ 8 سنوات وكشف له عما يُعرف الآن بأوراق المسيح.

لقد عثر الرّجل الإسرائيلي على هذه الأوراق داخل محل لبيع الآثار في القدس حيث اشترى ورقتين من البَرْدي باللغة الآرامية يرجع تاريخهما إلى عام 34 بعد الميلاد وهما عبارة عن رسالة للمحكمة اليهودية (الشاهيدرين).. صاحب الرسالة الأولى أطلق على نفسه لقب بني مسيح وكان يدافع عن نفسه ضدّ تهمة إطلاق لقب «ابن الله» على نفسه..

ويؤكّد أنّه يقصد أنّ المسيح روح الله وليس ابن الله بشكل حقيقي.

ويستخدم المؤلف هذه الرسالة للتدليل على نجاة المسيح من الصلب وأنّه رسول وليس إلهاً وهي معلومات سيحرص الفاتيكان على إبقائها في الخفاء.

أيضاً: ولا تعليق!.

(1) انظر: نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص 47.

(*) صحيفة الدعوى والمذكرة. نقلاً عن الأصل. انظر: مجلة القاهرة، العدد (152).

(*) عاد الدكتور نصر حامد أبو زيد إلى أرض الوطن حاملاً منفاه معه فقد استبعدته الجامعة وصُودِرت مؤلفاته، وامتنعت دوُر النّشر عن التّعامل معه!.

(1) انظر: عباس محمود العقاد، عبقرية المسيح، الاسرة 1994 ص 212، 213.

الفصل التاسع

صراع الأفاعي..!

العُدوانيّة غريزة بشرية، وهي على وجهين، أحدُهما إيجابيّ والآخر سلْبيّ، وقد ثبت - علمياً - أنّ عُدوانيّة الإنسان هِيَ جُزءٌ من تكْوينه، فحين اكتُشف أنّ جهاز الإنسان العصبيّ المركزيّ يُخفي وراءه جهازاً عصبياً آخر يستقلّ عن الإرادة فيما عُرف بالجهاز العصبيّ «اللاإراديّ» تركّزت الأنظار على هذا الجهاز في مُحاولة للكشف عن طبيعته وفهمه بما أسفر عن كشف جديد تبيّن منه أنّ هذا الجهاز «المستقلّ» يعمل على مَسارين متناقضين، أحدُهما يدْفَع للأمام بينما الثاني يَدْفَع للوراء، أو بتعبير آخر، أحدهما يُحفّزك للهجوم، والآخر يَدفعُك للهرب!.

فحين يتعرّض الإنسان للخطر ينشط الجزء «المُهاجِم» بِصَفير إنذار يأتيه من «المخ» فيُصدر الأوامر لمستودعات الطوارئ أن تفتح أبوابها، فيتدفّق الإدرينالين والسّكّر وكافة موادّ الطّاقة في الدّم.. يزيد النّبض، ويندفع الدم إلى العضلات فيُصبح الجسم في حالة تعبئة عامة، لكنّ الأمر بالهجوم لم يكن قد صدر، وهنا يتدخّل «القائد العام» - جزء من المخ يطلق عليه اسم «الهيْبوثالموث» فيقوم بعمليّة مُوازنة بين خطر الاندفاع - الهجوم -، ونتاج الانسحاب - الهروب، ثم يصدر الأمر «هاجم»، أو «اهرب».

كذلك ثبت أنّ «الهْيُبوثالموث» هو ذاكرة «العقل الباطن»، فعلى صفحاته كُتبت كافة التّجارب السّابقة من مُؤلمة وسارة، وفي رحابه اصطفّت كافّة خبرات الإنسان منذ موْلده، وهو يتّخذ قرار الهُجوم أو قرار الهُروب من واقع تلك الخبرات.

وبما أنّ خبرة الإنسان مُكْتَسبَةٌ من تعايشه على

أرضٍ وبين جماعة، فإنّ للبيئة أثرها في تشكيل تلك الخبرة، ومن ثم فالهْيبوثالموث - صاحب قرار الهجوم - مُنفتح على العقل الباطن بالذّاكرة، ومنفتح على «البيئة» بالخبرة.

يرتكز الدّفع العُدوانيّ لدى الإنسان على عوامل بعضها مُكتسب من الخارج كأثر البيئة في تكوين الخبرة، وبعضها ذاتيّ كأثر العقل الباطن في «تقييم» الخبرة، غير أنّ العمليّة برُمّتها تتمّ «بيولوجيّاً» لدرجة أنّ علم النّفْس الجنائي - في البلاد الّتي لا تسكُنها العفاريت!- بات ينظر إلى جريمة «المُجرم» على أساسٍ عُضويّ، فالمُجرم - عندهم - ليس شاذاً وإنّما هو مريض اختلّ التّناغم «الجينيّ» لديْه بما يقتضى علاجه وليس عقابه، فأصبح من حقّ القاضي أن يأمر بإيداع المحكوم عليه أحد المصحّات الطبيّة، أو الاكتفاء بمراقبته.

في الماضي لم تكن هُناك سُلْطة دوْلة ولا سلطان قانون، فانطلقت عُدوانيّة الإنسان حُرّة لا سبيل

للتّصدي لها، فأكل القويّ الضّعيف، وباتت الغَلبَة لمن غريزة عُدْوَانهم أقوى، وسُيوفهم أمضى.

ولأنّ العِلم موصول ببعضه، فقد أمسك عُلماء «الأنثرُبولوجْيا» - عِلْم الإنسان - بفكرة العُدْوَانيّة «الغريزيّة» وطافوا بها على المجتمعات الإنسانيّة ينقّبون بها عن العوامل التّي شكّلت المجتمعات العُدوانيّة الّتي مَا أن تتكوّن حتّى تهُبّ بالإغارة على غيرها من المجتمعات سَلْباً ونـهْباً وتقتيلاً وحَرْقاً في طُوفان يكتسح كلّ ما في طريقه على غِرار الاندفاعة «المغُوليّة» من وسط آسيا والاندفاعات العربيّة من شِبْه جزيرة العرب إلى خارجها، أو بين قبائلها في الداخل.

وقد ثبت أنّ البيئة - أرضاً ومناخاً - تعمل على تشكيل سلوك الإنسان وتكوين طباعه، فإنسان المناطق «الصّحراويّة» الحارة القاحلة مطبوع «بطبيعة المكان من خشونة واندفاع وتَوَجُّس، عكس ما عليه إنسان المناطق المعتدلة والباردة، إذْ

وفّر المناخ وطبيعة الأرض وجريان الأنهار عامل استقرار تحوّل معه إنسان تلك المناطق من القنص إلى الزّراعة فاخضرّت الأرض من حوْله فأعطاه الاخضرار «نعُومة» امتصّت منه الاندفاعات، وأعطاه «الاستقرار» أماناً أزاح عنه هاجس التوجّس بما أخمد العُدوانيّة فيه.

والمجتمع الّذي نُعنَى به في هذا المجال هو المجتمع الصحراويّ الّذي عاشت على أرضه جماعات «البَدْو» الرّحّل، وتشكلت على ساحة الفِكْر فيه أوهام التّعايش مع عَوالِم مُتجاورة من الآلهة والجنّ والعَنقاء والرّخ، فَتَرْحال هذا الإنسان من مكان إلى مكان أفقده الانتماء إلى المكان فانتمى إلى «العشيرة» فإذا ما فقد الإنسان انتماءه للأرض لم تعُد ذات قيمة لديه ليَسْعى إلى امتلاكها، فكان «متاع» البدويّ عن عُنصر الثّروة لدَيْه، وكان انتهابه من الآخرين غاية ما يسعى إليه «البدَوِيّ» حين يندفع إلى قتال.

والجماعة المندفعة إلى انتهاب جماعة أَخرى لا خيار أمامها، فهي إمّا أن «تَقْهر» وإمّا أن «تُقهر» ولذلك في تنطلق وفي قرارها أن لا تعود إلّا غانمة، فإن عادت بالغنيمة باتت تتوجّس المُباغتة لاستلابها فأصبحت في حالة «شحْنٍ» عُدوانيّ دائم.

فإن ظننت أنّ في هذا القول تجاوزاً عن الحقيقة، أو أنّ وراءه ما يدعو للحطّ من شأن «البَدْو»، فارجع إلى كتب التّاريخ تُنبئك عمّا كان بين قبيلَتيْ «عَبْس» و«ذُبْيان» اللتين اقتتلتا أربعين سنة بسبب (ناقة!)، أو إن شئت تفصيلاً أوْفى ففي اندفاعة القبيلة الهلالية من شِبْه الجزيرة العربية إلى غرْب الشمال الإفريقيّ فيما يُعرف بـ (الّسيرة الهلاليّة) ما يُعطيك هذا التّفصيل.

وما لنا نذهبُ بعيداً وبين أيدينا «ديوانُ العرب» مُكتظاً بما في النفوس من أحاسيس مجّدتها العرب واختالت بها، أفلا يكفي أن تقرأ لِعَمْرو بن كُلثوم من مُعَلّقته الشهيرة قوْله:

لَنا الدّنْيا وَمَنْ أمْسَى عَلَيْها   وَنَبْطِشُ حِينَ نَبْطِشُ قَادِرينَا

بُغَاة ظَالمِينَ وَمَا ظُلِمْنا..   وَلَكِنّا سَنَبْدَأُ ظَالَمِينَا

في دروس اللّغة قالوا لَنا شرحاً لهذين البيتين، إنّ الشّاعر يفتخر بقوة قومه ومَنْعَتهم، فلمّا انكشف الغطاء بعلم «اللّغة النّفسيّ» أطلّت من بين الأحرف «عُدوَانية» دفينة في نفس الشّاعر، وأطلّ من استحسانها بين «القوم» وتفاخرهم بها استشراء العُدوان في النّفس «الجمعيّ» أفهل يختلف اثنان على أنّ البداية بالظلم عُدْوان؟.

وقد تولّد عن «الشّتات» على أرض القحط إحساس بفقد «الهويّة»، فالانتماء لعشيرة أوْ لقبيلة ليس كافياً لتخليق هويّة (أُمّ) يتحصن بها أفراد الشتّات مِنْ «عَبْسِيّ» و«قُرشِيّ» و«قحْطانِيّ» و«نَجْدِيّ»، ومن ثَمّ فقد تطلّعت العرب إلى مَوْلِد (فارس) تتحقَق به الهُوِيّة الأمل!.

يقول الدّكتور طه حسين وهو يرصُد حال العرب قبل الإسلام:

وكان البحثٍ عن دين إبراهيم في حقيقته بحثًا عن الهويّة الخاصة للعرب، وهي هويّة تهدّدها مخاطر عدّة أهمّها هو الخطر الاقتصادي النّابع من ضيق الموارد الاقتصادية الّتي تعتمد على المطر والعُشب من جهة وعلى التّجارة من جهة أخرى، وقد أوشكت حياة الصّراع والتّنافر والحروب بين القبائل أن تؤدّي إلى القضاء على الحياة ذاتها ([1]) .

وكان «الدّين» هو الفارس المنتظر، فما أن كانت تعلو راية دين حتى يلتف الجمع حولها، ففي موقعة «اليَمامة» التفّ حول مُسيْلمة أربعون ألفاً حملوا

سُيوف دعوته، وغير بعيد كانت «سجاح» التّغلبيّة ومِنْ ورائها أربع قبائل سعت بها لاختراق المدينة والسيطرة عليها، وعلى جانب منهما كان «عبْهلَة الأسود» وكلٌ يسعى بالدّين الذي يزعُمه للمُلك والسلطان، فلمّا استقام الأمر ليَتْرب بالقضاء على دعاة الأديان الثلاثة توحّد الجميع تحت راية الإسلام وبدأ الزّحف في كلّ الاتّجاهات.

غير أنّ الأمر سرعان ما تغيّر، إذ ما أن انتهت المعارك على أرض شبه الجزيرة وانطلقت الجيوش خارجها حتى بدأ التّناحر على السّلْطة يفكّك الكيان إلى سابق عهده جماعات وشيعاً وقبائل من أمويّين وعباسيين وفاطميّين وشيعة وخَوارج وكلٌ برأس مسموم يلْدغ به الآخر.. ليبدأ صراع الأفاعي.

وكانت البداية في «ظُلّة» لبَني ساعدة أطلقوا عليها اسم «السّقيفة» وقد عاد أبو بكر إلى المدينة من مُنتجع له خارجها يُسمّى «السّنخ» وجثمان النّبي في بيته لم يُدفن بعد، فكشف الثّوب عن وجه

النّبي وقبله وقال:

ما أطيبك حياً وميّتاً، مات محمدٌ وربّ الكعبة، ثمّ انطلق إلى المنبر فوجد عمر بن الخطاب قائماً يُعلن في النّاس أنّ محمداً لم يمت ولكنّه ذهب إلى ربّه كما ذهب موسى بن عمران فغاب أربعين ليلة ثم رجع إلى قومه بعد أن قيل قد مات، صارخاً: والله ليرجعنّ رسول الله فيقطعنّ أيْدي رجال وأرجلهم يزعمون أنّ رسول الله مات.

فقال له أبو بكر: أنْصت، فلم يُنصت، فتكلّم أبو بكر وقرأ الآية: إنّك ميّت وإنّهم ميّتون حتّى ختمها، ثم أعقب، منْ كان يعبُد محمداً فإنّ محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله لا شريك له فإنّ الله حيّ لا يموت [(1)]، وبينما هو في مقالته إذ جاء رجلٌ يسعى قائلاً: هاتيك الأنصار قد اجتمعت في ظُلّة بني سَاعِدة يُبَايعون رجُلاً منهم يقولون، منّا أمير ومن قُرَيْش أمير، فانطلق إليهم أبو بكر وعمر، فلمّا أراد عمر

أن يتكلّم نَهَاهُ أبو بكر وتكلّم في النّاس وبينهم سعد بن عبادة وقد بايعته الأنصار: فقال موجهاً حديثه إليه: ولقد علمتَ يا سعد أنّ رسول الله قال وأنت قاعد: قريشُ وُلَاة هذا الأمر، فقال سعد: صدقْتَ فنحن الوزراء وأنتم الأمراء، فقال عمر، اقتلوه قاتله الله [(1)]. وكانت نبتة الشّقاق الثّانية قد أطلّت من جانب عليّ بن أبي طالب وأنصاره الذين كانوا يجهرون بأنّ الولاية لعليّ، قائلين: بأنّ النبيّ أوْصى لعليّ في خطبة له بغدير «خُمْ» وهو في طريق العودة من حجةً الوداع، فلمّا تخلّف عليّ عن اجتماع البيْعة لأبي بكر، وهو الاجتماع الّذي أعقب اجتماع السّقيفة فيما عُرف ببيعة العامّة، توجّه إليه عمر بن الخطّاب في رهط من أتباعه فطرقوا عليه باب داره. يقول الشّيعة: فأدركَتْ فاطمة - ابنة النبيّ زوج عليّ - الأمر فحالت دون الباب بجسدها فدفعها به عمر فأسقطها من حَمْلِها فماتت بتلك الدّفعة، ودخل إلى البيت، فخرج عليه الزّبير مُصلّتاً بالسّيف، فعثر

فسقط السّيف من يده فوثبوا عليه فأخذوه [(2)].

هي السُّلطَة إذن ما يسعى إليها عُلاة القوم ممّن ارتفعت مكانتهم بالإسلام وبالقرب من النبيّ، غير أنّ السّلطة ـ أي سُلطة ـ في حاجة إلى دعْم بالقوّة، وقد تحقق هذا الدّعم ب ـ «العامّة» من العرب الّذين كان دافعهم إلى مؤازرة صاحب السّلطة عائدهم الماديّ منها، إذ هيّأت لهم اندفاعاً مشروعاً بالدّين وتحت لوائه لـ غارة على الآخرين وإخضاعهم بالقوّة.

وهي طبيعة العربيّ بما شكّلتها البيئة من نزوع إلى العُدوان، فضلاً عن تنامي غريزة التّملك بالسّلب، وهي الطبيعة التي أدركتها فطنة النّبي منذ بداية دعوته للدين الجديد، فأمسك بها ومدّها إليهم سبيلاً لاستمالتهم إلى ما يدعوهم إليه، ففي حديث صحيح خاطب النبيّ جنوده فقال: من قتل قتيلاً فلَهُ سَلْبُه، أي متاعه من عُدّة حرب ولباس ومال؟، وكان يطوف بالقبائل في مَوْسم الحج فيدعوها إلى الدّين

قائلاً: يا أيّها النّاس قولوا لا إله الّا الله تفَلحوا وتملكوا بها العرب وتذلّ لكم العجم [(1)]، وتلك عبارة لم تأت عَرَضاً في مَوْقف دعا إليها، فتكرارها حين تشابه المواقف دليل على مالَها من أهميّة، فَبهِا تعُرض «المكافأة» لتحْفِيز «الدّافع».

والمكافأة في العبارة هي «ملْكيّة العَرب» و «إذْلَال العَجَم».

يقول الطّبري في تاريخه:-

فبعثَ إليه - إلى النبي - أبو طالب، فلمّا دخل عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال: يابْنَ أخي، هؤلاء مشْيَخةُ قوْمك وسَروَاتهم وقد سَألُوك النَّصْف أن تكُفّ عن شتْم آلهتهم ويَدعُوك وإلهك، قال: أيْ

عَمّ، أوَلَا أدعوهم إلى ما هُو خيرٌ لهم منها، قال: وإلامَ تدعوهم؟ قال: أدْعوهم أن يتكلّموا بكلِمة تُدينُ لهُم بها العرب ويَملكِون بها العَجَم [(2)] ....

ولم يكن الدّين هو العامل الفعّال في مُؤازرة «الأنصار» للنبيّ والّذين هاجروا معه، إذْ امتنعوا عن المشاركة في الغزوات والسّرايا الّتي سبقت غزْوة بدر الكُبرى، إذ لا خلاف في أنّ النبيّ بدأ يرسل السّرايا من المهاجرين «وحدهم» في الشهر الرّابع من مهاجرته بلَواءٍ لعُبيْدة بن الحارث إلى بطْن رابع، فَسَرِيّة سعد بن أبي وقّاص إلى الخرّار قريباً من خُمْ، وبعدها غزا بالمهاجرين وحدهم غزْوة الأبوَاء، فغزوَة بُواط، ثم غزا ذا العَشيرة فأعقبها بسريّة عبد الله بن جحش إلى نخلة، وكان كلّ ذلك بالمهاجرين وحْدَهم دون مُشاركة من الأنصار ولو برَجُلٍ واحد.

وتذكر كتب السّيرة أنّ أسباب تخلّي الأنصار عن المشاركة في تلك الغزوات أنّهم كانوا قدْ شَرطُوا للنبيّ أن يمنعُوه في دارهم، وأنّهم في حِلّ أن يُشاركوه فيما يخرج عن نطاق منعتهم له، إلّا أنّ الأحداث قد أفصحت عن غير ذلك إذ خرج الأنصار عمّا شرطوه وشاركوا في غَزْوة بدر، وهو ما يكشف عن أنّ الإحجام عن المشاركة كان باعثه أنّ الأنصار كانوا يترقّبون النتّائج، فلمّا عاد عبد الله بن جحْش ب (الغنائم) في الشهر السابع عشر أبقاها النبيّ مطروحة على أعْين المَلأ في ساحة المدينة دون تقسيم لتطالعها أعْين الأنصار حين الغُدُوّ وحين الرّواح حين تمّ تقسيمها مع غنائم بَدْر [1].

هي السّلطة إذن، والاندفاع إلى السّلطة هُو في حقيقته «نُزوع عُدوَانيّ» باعِثه تأكيد ذات مريضة بُحبّ التّسلط، وباعث السّلطة لدى الإنسان - العُدوانيّ بطبْعه - هو الرّغبة في قهْر الآخر وتخْضيعه، وتِلكُما عُنصران إنْ جاهرت بهما السّلطة

جاهرت بأنّها غاشمة، فإن سترتهما برداء تطرحه كحَقّ أصبَحا مشروعَين، وأصبح مناطاً النّظر إلى تلك السّلطة - الغاشمة بطبيعتها - هو الرّداء السّاتر - الحقّ المزيّف - وليس البّغْي المستور، فبات الباحث عن السلطة يغزل لنفسه رداءها السّاتر قبْل صَقل السّيوف وتجييش الجُيوش.

وأيّ رداء يدّثر به «البَغْيُ» ليُعلن به أنّه حقّ أوفى شمولاً من رداء «الدّين»!، أفَليس الحق في الدّين هو حقّ الله الّذي لا يقف في مواجهته أي حقّ آخر؟.

في سقيفة بني ساعَدة أُنتُزعت السّلْطة من الأنصار وكاد سعد بن عبادة أنْ يُقتل، وأُعطيَت لأبي بكر على جناح قوْل بخلافته للنّبيّ في الصّلاة حين مَرضِه الأخير، فأُعْطِيَ بتلك الخلافة «حقاً» في السّلْطة، غير أن هذا الحقّ - المتنازع على صحّته - لم يحجب عن عليّ بن أبي طالب حقّه المزعوم فيها، فهُوَ صاحب وصيّة «خُمْ» ولَدَى الشّيعة - للآن -

سُورة الوِلَاية الّتي يقولون بأنّ عُثمان أسقطها حين جَمْعه للقرآن. وبين «الحقّين» انقسَمت العرب إلى (سُنّة) و(شِيعَة) فمَاجَت النّفوس بالخلاف الّذي أصبح في حاجَةٍ إلى دليل يُدعمه، فسَعى كلّ من الفريقين إلى تكذيب الآخر، واستحلال دَمِه ولم تمضِ على وفاة النبيّ سوى ساعات كان خلالها مُسَجّى في بيت عائشة لم يُدفن بعد.

وقد بدأ صراع السّلطة يكشف عن وجهه بمقتل عُمر بن الخطّاب على يد أبي لؤلؤة مولى ابن المُغيرة، كذلك مقتل عثمان الّذي ارتدى قميصه معاوية بن أبي سفيان فشقّ به عصا الطّاعة علَى «علّي» ثم كان السّجال الدّموي بين عليّ ومعاوية بما انتهى إليه في واقعه «التّحكيم» الشّهيرة بما أفرزته من ظهور طائفة «الخوارج»، فسالت الدّماء تُغرق الأرض في كل البقاع، إلى أن استتبّ الأمر لمعاوية باستسلام «الحسن» بن عليّ طوعاً، ومن بعد معاوية «ليزيد» بمقتل الحسين في كربلاء!.

على أنّ نار الفتنة كانت تتلظّى تحت رماد استقرار زائف، وكان هناك من ينْفخُ فيها لتتوهّج، لكنّ تَوهّج النّار في ذات مُستَوْقدها القديم وهو حقّ أبي بكر في الخلافة بصَلاتِه بالمسلمين إبان مرض النبيّ، وحق «عليّ» فيها بسورة الولاية المحروقة مع ما حرّقه عثمان وبوصيّة غدير «خُمْ» لم يعد كافياً، فالَحقّان يتنازعان على بسَاط واحد، ويطعن كلّ منهما الآخر بتكذيبه له.

وكان وراء الاستعانة بمستوقد جديد لم تألفه ساحة السّجال «مُحترف» مُتوقّد الذّكاء على بصيرة بالعقل العربيّ هو «عبد الله بن سَبَأ» الّذي لُقّب برائد الشّيعة الأوّل [(1)] إذ أوْقد ناراً أطاحت بفكرة (الوَحْي) وإرسال الرّسُل فنادى بأنّ الله قد (حلّ بذاته) في عليّ بن أبي طالب، وبأنّه ينتقل عبْر نَسْله في الأئمّة المعْصُومين، فأسّس بذلك حركة «الشّعوبيّة» الّتي تفرّعت إلى مِلَلٍ شتىّ من قرامطة وباطنيّة وإسماعيليّة على شتّى الطوائف، قدْيانيّة

وبابيّة وبهائيّة إلخ.

وفكرة الحُلول الإلهيّ هيَ فكرة قديمة عايشتها الدّيانة الهنديّة، فالبراهمان - الإله المُطلق - يتجلّى على الأرض في صورة «كريشنا»، لكن كريشنا ظلّ أبداً أسطورة، فأخبار تجلّيه يقصّها كهنة المعابد ويتناقلها النّاس، لكن أحداً لم يُحالفه الحظ برؤيته لـ له المتجسّد، كذلك ففكرة «التّناسُخ» - دفْعُ الرّوح للحلول في جسدٍ جديد - هي الأخرى دليل على إمكانيّة الحلول «الإلهيّ» في جسَدٍ بشريّ، وقد جاءت المسيحيّة وبين يدَيْها دليلها الّذي يمشي على الأرض، إذْ شَخَص «الإله» لحْماً ودماً بالجَسَد «اليَسُوعِيّ»، فكيف لا يتقبّل الفكر الإسلاميّ - بما فاض به من تصديق هُبوط الملائكة وصُعودهم - فكرة حُلول الله في عليّ بن أبي طالب؟، وكيف لا يُضاف إلى هذا الحُلول إمكانيّة الانتقال من الآباء إلى الأبناء؟.

وفي مجال «السّلْطة» - والسّلطان، فأيّ سُلْطة

كانت على الأرض بوسْعِها أن تقف في وجْه سُلطان الإله المتجسّد في الكيان البشريّ!.. حَلّ الإله في عليّ بن أبي طالب فعَلَى البشريّة أن تخضع لسلطانه، فإن أحبَّ فهِيَ «صُوفيّة الوَجْد» فيمن أحبّ، وإن أبغَض فسُيُوف الله كفيلةٌ بمن أبْغَض!.

وربّما كان أمراً عجيباً لا يُصدّق لوْلا أنّه قد حدَث، أن يُجَاهر المقتُول بُحبّ قاتله، بلْ وأن يطلُب منه المزيد بقطْع الأوْصَال حُبّاً وهِيَاماً..

يقول الدكتور عبد القادر محمود في معرض حديثه عن هذا الوَجْد:

وعلى الرّغم ممّا فَعلَه عليّ رضي الله عنه مع السّبئيّة اليَهُوديّة من الشّيعة من قتل وإحراق، فقد أعْلَن المُجنْدَلون ساعة قتْلِهم وتحْريقهم

أمَامه، أنّ أمَرهُ قضَاءٌ مقبول، ومَا يفْعَلُه مَرْضِيّ عنه، لأنّه اللّه وأمْرُ اللّه، ولأنّه المعْصُوم المُطاع، وعَبْر ذُرّيّته الأئمّة الهُداة المعْصُومين [(1)] .

بات الأمُر سهلاً، وبات الإنسان أُلعُوبة بين يدَيْ «مُتَسلّط» يفتري على الله كذباً أنّه قد «حلّ» فيه، وبين أيْدي «عَامّة» منْ بشر أعماها الجهل عن إدراك الخديعة فالتقمتْها، فكان يكفي المُتَسلّط «بحلول الله فيه» أن يَجدَ لَه «حَواريّاً» يُمهّد الطّريق له. والحواريّون ما أكثرهم، يَصْنعُهم الدّينار والدّولار، وهُم في كلّ «ملّة» و«دين» وتحت سقف أيّ مذهَب تفُوح منه رائحة الطّبْخ!.

وما دام الأمر على تلك السّهولة فلماذا يقتصر عَلَى «علِيّ»؟، وربّما كان السّؤال نفسه هُو ما طَاف بمُخيّلة «الدّيْصاني» حين نادى بألُوهيّة «إسماعيل» زعيم الطّائفة الإسماعيليّة، أو

«الجنابي» - أبو سعيد الجنابيّ القرمَطِيّ - الّذي ادّعى الألوهيّة فتجلّت على لِسَانه شِعْراً:

أنَـا بـالله وفـي الله أنَـا أخْلقُ الخَلْق وأفنيهم أنَـا

وتجلّت في أعماله فُجوراً وقتلاً وتخريباً، إذْ دَعَا إلى هدْم الكعبة خلاصاً منه «لِعبَاده» من قُيود الشّريعة وتخفيفاً من أوْزار دين «محمّد»، فقصدها ولده بِجَيش من عَبَدة المُنكرات خمراً ونساءً وغلماناً فخرّبها سنة (317هـ) وقتَل مِنَ الُحجّاج - يومَ التّرْوِية - عشريَن ألفاً ألْقى بجثثهم في بئر زَمْزم وهو يُنْشِد:

ولَوْ كان هذا البَيتُ لله ربّنا لَصَبّ النّار منْ فَوْقنِا صَبّا

لِأنّا حججنا حجّة جَاهِليّة مُجَلّلة لمْ تُبْقِ شَرْقاً ولَا غَرْبا

كما أنّ ذاك الجناجيّ هو مَنْ دعَمَ فِكرة «لَيْلَةَ الإفَاضَة» في الفكر الإسلاميّ المُعارض، فَفي هذه الليّلة يَحْضُر جميع الأتْباع بِنِسائهم فَيأكلُون ويشربُون، فَما أن تبدَأ الخمر عملَها حتّى تُطْفَأ الشّمُوع ويأخُذ كلّ منهم ما يَقع في يَده من النّساء أو الغِلمان لـ فاضَة بهم - فُجُوراً - في رحَاب ليْلَةِ العَطَاء الربّانيّ [(1)].

وقد تلقّف فكرة الحُلُول الإلهيّ الحاكم بأمر الله في مِصْر فدعَا له حواريه حمزة بن عليّ الزّورِنيّ بُحلُول الله فيه:

ولم يكن غريبًا أو عجيبًا أن يُعلِنَها، لأنّه امتِدَادٌ أكبر لِمَنْ سبَقَه من الأئمة الكرام، ولأنّه سمعَ عن يمينه محمد بن إسماعيل الدّرْزيّ - أحد دعاته - يُنادي: أنّ رُوح اللّه قد حلّت

في الحاكم، وسَمِع عن شِماله حمزة بن عليّ الزّوزِنيّ يدعُو مَنْ خلْفَه من الآلاف للرْكُوع أمامَ طلْعة الحاكم ويصيحُ ويصيحُون: أنتَ الواحد الأحد المحيي المميت. وعندها نادى الأحزم في المسجد العتيق - وبِحَضْرَة قاضي القُضاة - باسْم الحاكم الرّحمن الرّحيم [(2)](#) .

وكانت الفِكرة هي الأساس في دعوة «الحسن الصّبّاح» مؤسّس دَوْلة (الحشيشيّة) وأتباعُه يُطلَق عليهم «الحشّاشون» فأضاف إلى فكرة الحُلول نظريّة الإمام المسْتُور، فأنْشَأ بالحشّاشين دوْلة إسماعيليّة خالصة في وسَط دَوْلة العبّاسيّين السّنيّين تمتدّ من خُراسان وفارس والشّام [(3)](#).

فإن سألتَ، وما الّذي يضير من تعدّد تلك الفِرَق؟، جاءتك الإجابة «دماراً» شهِدَته البشريّة على أيْدي

هؤلاء، فكلّ يدّعي أنّه «الحقّ» وأنّ ما عَداه «باطل»، فهاجت الاكتِساحات تطوي الأرض قتْلاً ونـهْباً وسَبْيَ نِساء، وخَلْف الرّايات المتعدّدة الرُّؤى والمتناقضة الأفكار شعار واحد هو (نُصرة دِين الله)، بينما الّذات العَلِيّة في عَلْيائها تلْعَنُ الجميع سلاطين وحَوَاريّين وكهنَة!.

فإن بحثْتَ عن الإنسان بين هؤلاء وجَدْته إمّا «مَسْفُوك دم» وإمّا «مصْلُوباً»، أو «مُقطّع الأوصال» محرُوقاً...

فمنْ بين الخُلفاء الأربعة قُتل ثلاثة، عُمر وعثمان وعليّ، ومِنْ آلِ علِيّ قُتِل «الحَسنُ» مسْمُوماً وقتل «الحُسيْن» مذبوحاً في كرْبلَاء، كما قُتل عبد الله بن الزّبير وهو متحصّن بالكعْبة، ومنْ أرْبَاب النّبوات قُتل «مُسيْلَمة وعَبْهلة والحاكم»، ومن المجاهرين بالرّفض قتل كعْب بن الأشرف وعَصْماء، ومِنْ أصحاب الفكر الرّافض قُتل «ابن المقفّع» و«ابن حنبل» و«الحلّاج» و«السَّهروَرْدِيّ»، وكان مقتل

زعيم الأنصار «سعد بن عبَادَة» قد جرىَ بتدْبير مُحكم فقيل - حين عُثر على جثّته - قتلَته «الجنّ»، وعلى ساحة الحاضِر قُتل «الشيخ الذّهبيّ» و«فرج فُوده» و«أنور السّادات» ونجا «نجيب محفوظ» من الموت ليعيش أشَلاً، وآثر السّلامة بـ (الرّحيل) اغتراباً عن «وطن» أسْلم نفْسَه (لمرْضَى) يتحكّمون في عقله، نصر حامد أبو زيد وأحمد صبحي منصور والسيّد القِمْني وعبد الرّحمن بدوي ونوال السّعداوي وتلك مجرّد أمثلة، أوْ إن شئتَ فهِيَ رؤوس عناوين تضمّ تحتها المئات!.

غير أنّ تلك الأمثلة قد اقتصرت على الخاصّة من الرّؤوس الكبار فلم تتطرّق إلى «العامّة» من النّاس الّذين راحوا وقوداً لحروب خلّفت مئات الألوف من القَتْلَى على أرض شبه جزيرة العرب وفى العراق والشّام وفارس ومصر.. وخلّفت مئات الألوف من «السّبايا» اللّواتي تدفّقن «إمَاءً» على مقرّ الحُكم في المدينة - يثرب - فلم يجدْن بيُوتاً تؤويهن

(جواري) لاكتظاظ البُيوت بأمثالهن.

على أنّ السّاحة لم تَخْلُ مِمّن تدبّر الأمر فرأى في التّناحر بين «المِلل» دليل (الزّيف) في كلّ المِلَل، فاعتَصم بالعقل يبحث به عن طريق خلَاصه مِن مَحْرقة الإنسان لـ نسان تَحْت لِوَاء «مِلّةٍ» أو «دِين» فكان من بين هؤلاء مَنْ سَخَط على الدّنيا فنَبذها و(تصَوّف) على مثال إخوان الصّفا وابن عربي والحلّاج، ومَن انكَبّ ينهل من الدّنيا شَهَواتها، مُلْقِياً خلف ظهره بفكرة الدّين والبَعْث والنّشور على مثال أبي نَوّاس وبَشّار وغيرهما، فظهرت مدارس التصوّف وفي مقابلها حانات الإلحاد ليُضاف إلى قهْر الإنسان بالسيف قهره بالشتّات بين (عابسٍ) و (مَاجِن) يتصارعان لِسلْب إنسانيّته.

فإن تَدبّرْتَ الإنسان على السّاحة المُعاصِرة ورأَيتَه قد انَفتح على «الكوْن» يتعلّم لُغَته ويُحاوره اندفاعاً إلى أعماقه السّحيقة من مَجرّات وَسُدَم، وغوْصاً فى «الكرُومُوسُوم» الحَيّ في قلب الخليّة، مدْفُوعاً ب.

(العقل) إلى اكتشاف مكانة من كيانٍ غامض لا يفّتح أبْوابه بالدّعاء وإنّما بالمعرفة، بينما (نَحنُ) في قيْد ضمير حَاضر مُستعار، انفصل عنه الزّمن، وأحاطت به «هلاوِس» الغَيبوبة، نُراقِص «جِنّياتها» في خِدْر مَوتٍ بطِيء... لذيذ! تتعالى فيه «شَهَقات» الاحتِضار تَسابيحَ وتَوَسّلات...! تراءَت لك النّهاية آخِذة في الزّحْف.. بل، وعلى الأبواب!.

انقسام فكرة (الحُلول الإلهيّ) ومذَاهبها

صورة ص 118

(1) انظر: طه حسين، على هامش السيّرة، مكتبة الأسرة ج / 3 ص 29.

(1) انظر: تاريخ الطبري، ج/ 3 ص 202.

(1) انظر: سليمان الطماوي، نظام الحكم والإدارة في الإسلام، دار الفكر العربي ص 412.

(2) المصدر السابق ص 202.

(1) مسند ابن حنبل 3/ 492 - طبقات ابن سعد مج / 1 ص 302.

(2) انظر: الطّبري، التّاريخ ج /2 ص 324.

1) انظر: الطّبقات الكبرى لابن سعد، سلسلة مطابع الأهرام مج/ 2 ع/ 12 ص/ 10.

(1) انظر: د/ عبد القادر محمود، الفكر الإسلاميّ والفلسفات المعارضة ، الهيئة المصريّة للكتاب ط/ 2 ص 14.

(1) انظر: د/ عبد القادر محمود، الفكر الإسلاميّ والفلسفات المعارضة ، الهيئة المصريّة للكتاب ط/ 2، ص 27.

(1) انظر: د/ عبد القادر محمود، الفكر الإسلاميّ والفلسفات المعارضة ، الهيئة المصريّة للكتاب ط/ 2، ص/ 30.

(2) المصدر نفسه، ص 98.

(3) المصدر نفسه، ص 112.

الفصل العاشر

هُناكَ شيء...!

فى سبيل النّهاية...!

بديهيٌ أنّك تعرف «الخليّة الحيوانيّة».. ومع الاعتذار فإن لم تكن تعرفها فقد أهدرت المال الّذي أنفقته ثمناً لهذا الكتاب، وأهدرْت الوقت الّذي قطعته في تصفّح ورقاته.. لا عليك إذن، بجانبك سفَط المخلّفات فتخلّص من وزرك!.

جسدُك، يتكوّن من ملايين الملايين من الخلايا، في الدّم واللّحم والعظم والجلد والشّعر، وبهذه الخلايا يتشكّل قوامك وتتحدّد ملامحك. وبما أنّ الخلايا

لاتُرى إلّا تحت «المجهر» - فالشّعرة الواحدة، أو قلامة الظّفر بها عشرات الألوف من الخلايا المتراصّة في النسيج أو السّابحة في «البلازما» - فلو أنّ عدسة عينك كانت عدسة «ميكروسكوب» وشاء حظّك أن تشهد حفْلاً لتوزيع جوائز «الأوسكار»، أو تتويج ملكة جمال الكون. وعند التّصفيق الهادر لإطْلَالة «جميلة الجميلات» على منصّة التّتويج رفعتَ عينيك «الميكروسكوبيّتين» ونظرت إليها لعَل صُراخك يملأ القاعة، وربّما شققت ثوبك لينتهي بك الأمر مدفوعاً إلى الطريق مُشيّعاً بصيْحات الاستهجان. والّذين راعهم موقفك حين رأيت «جميلة الجميلات» وارتعدت لا يعرفون السّر فيما أصابك!، لكنّي أعرفه، فأنت - حين نظرت بعينيك «الميكروسكوبيّتين» لم تر ما يمتّ للجمال بصلة، الّذي كان قُبالتك هو كيان ضخم يتماوج بداخله ملايين الملايين من الخلايا في الأنسجة والعضلات والدّم، ناهيك عمّا بداخل «التّجويف

البَطْنيّ» لا علينا، فما نسعى لشيء في «البيولوجيا» وإنّما نُعنى منها بـ «خليّة» واحدة هي إحدى الخلايا الّتي يتكونّ منها نسيج اللّحم في «إبهامك» الّذي يُمسك بهذه الصّفحة!.

فإن كنت قد التفتّ إلى إصبعك وعينك لا تزال ترتدي العدسة «الميكروسكوبيّة» فاخْتر خليّة واحدة وركز النّظر عليها.

ما رأيك، لوْ أنّ تلك الخلية - الّتي تسبح في (مُحيط) بطرف إبهامك، كانت «عاقلة»!، نعم، تفكر وربّما تُجري الأحاديث وتحكي الحكايات مع جاراتها من الخلايا، وما رأيك لو أنّ تلك الخليّة كانت تُبصر فشاهَدَت ما حولها من الفراغات «الفلكيّة» الّتي تفصلها عن كتلة «المجرّات» المجاورة - بعيداً - في أقصى شمال «ظفر إصبعك»!.

وقبل أن تظنّ ما أظنّ!، فلَا المقام مقام هزل ولا طَرْحُ أحَاجٍ، فالمسافة بين «البُروتون» والنّواة في

«الذّرة» تعدل المسافة بين الأرض والشمس، لكنّها النّسبيّة، لذلك لا تعجب إن رأيت «خليّة» إصبعك تقيم مرْصداً فلكيّاً بداخل «إبهامك» لترى منه السّديم المُظلم الملتفّ عند بداية الظّفر!.

دعنا الآن نفترض كما افترضنا أنّ «الخليّة» تُفكر، أنّ تلك الخلية المفكّرة تفلسفت وسأَلت عن (شكْل الكيان) الّذي يحتويها، وهو بالطّبع إبهامك، ثم دارت تطُوف شمالاً ويميناً وأعلى وأسفل لاسْتِكناَه هذا الشّكل، تُرى، هل توفّق تلك الخلية ـ مهما بذلت من جهد، في رسم صورة لـ صبع وهي حبيسة بداخله؟.

دعنا نتوسّع فنفترض أنّ تلك الخليّة نجحت في تكوين شكل لجزء الإصبع الّذي يحتويها، فساقها الغرور إلى التّوسّع ابتغاء معرفة الشّكل الّذي عليه «كفّك».. فنجحت، فتطاولت لتعرف الشّكل الّذي عليه ذراعك، ونجحت، فامتد بها التّطاول لتعرف «شكلك الكُليّ» كأنّك تنظر نفسك في مرآة، أفهل هذا

من المتصوّر؟

لو جئتني بفلاسفة الدّنيا، وكافّة عُلماء الأرض، بل وأصحاب الغيبيات والسّحرة لأُصّدق أنّ «خليّة» من جسد (كائن) تستطيع معرفة الكيان الّذي يحتويها وهي (بداخله) فلنْ أصدّق، لأن ذلك مستحيل!.

أُصَدّق فقط، لو أنّ سِكّيناً قطعَت الجزء الّذي به تلك الخليّة فأخرجتها عن جسدك لتنظر إليك من خارجك كما ينظر إليك أيّ شخص يقف أمامك، في هذه الحالة، الخليّة تراك!.

وعلى شاكلة الخليّة في الجسد يشخَص كلّ ما بالكون من كواكب ونجوم وسُدم ومجرّات، تقاربت أو تباعدت، فهي مجرّد خلايا في جسد «كوْنِيّ» متناهٍ، مستطيل، مربّع، دائريّ، لن أجيبك ولن يجيبك أحدٌ ما دُمنا لم نغادره إلى خارجه لنراه - من هناك! - وجهاً لوجه!.

فإن عُدنا للخليّة الّتي بإبهامك وسألتك، أليست هذه

الخليّة من جَسدك؟ فقلت، نعم، فسألتك، أفهل كنت تفكر فيها؟ والإجابة بالطّبع ستكون اعتراضك على السّؤال، فأنت غير مشغول بها، هي بداخلك، بل وجزء من كيانك، لكنّها تعيش عالمها الخاص بها بداخلك، تعيش فتمرض وتموت وأنت لا تدرى عنها شيئاً!.

وبما أنّنا من بداية رحلة الانتهاء «نفترض»، وكنّا قد افترضنا أنّ «خليّة» إبهامك «تفكّر»، فماذا يضير لو افترضنا أن تلك الخليّة كانت تعتقد أنّك مشغول بها، وأنّك من يُدبّر لها الأم ويخطّ لها الطّريق، وأنّها في نهاية المطاف مبعُوثة فيك ـ خَلقاً آخر، لِتُجزِيها بما عملت، ومن ثمّ، فهي تطلب الغفران عن رحلة «الشكّ» الّتي تحرت فيها شكلك الكلّي!.

والإجابة الّتي أتوقّعها، أنك ستقول: خليّة مجنونة!.

خَلاصُكَ دَاخِلَك!

«الجَسدُ الكَوْنِيّ» الّذي يحتوينا مَداهُ - المعروف - «14 مليار سنة ضوئيّة»، وللتقّريب اركب شُعاعاً من الضّوء يسير بكَ بسرعة (297,000) ك/ م في الثّانية وستصل - سالماً مُعافى! - إلى نهاية المتطور الّذي عرفناه، ناهيك عمّا لمْ نعرفه، بعد أربعة عشر مِليار سنة.

14,000,000,000 ×12×30×24×60×60× = رقم مستحيل!.]

فإن صدّقنا ما يقوله عُلماء الفيزياء الفلكية، ممّا يقطعون أعْمارهم في محاولة إثباته، بأنّ الكون الذي يحتَوِينا عُدْ بنظرك إلى الرّقم المستحيل لعدد الكيلومترات الّتي قطعتها في رحلتك بأول الصّفحة - ليس إلّا واحداً من سلسلة أكوان تتجاوَر كتجاور الخلَايا في «قُرص العَسل» أبدياً أزليّاً في «مُطلق لَانهائيّ».. تحوّلنا بمهدنا الأرض، وأمّه المجموعة

الشمسيّة وجدّته الكُبرى «مجرة دَرْب التّبانة» بما تضمّه من مليارات المجموعات الّتي تفُوق مجموعتنا الشمسيّة حجماً وعَدّاً إلى «هَامُوشة!» تسبح على سطح المحيط الهادي!.

فإذا كانت «المجرّة» بما تحتويه مُجرد «هَامُوشة» تسبح وسط محيط كَوْني تقطع أحدث النظريّات العلميّة بأنّه لا نهائيّ، وأنّ المَدى الّذي انساب إليه «الانفجار الكبير» في أربعة عشر مليار سنة ما هو إلا إحدى الخلايا في «قُرص العَسَل» اللّانهائي، فكيف بي وبك في متاهة اللّانهائية الأزليّة الأبديّة المطلقة؟، وإذا كنّا في تلك المتاهة الأزليّة الأبديّة شيئاً لا يُذكر، بل بالمنظور الكوْنيّ لا وجُود لنا فلِمَ نحن هُنا؟، بل ما هي الغاية من وجُودنا على سطح كوكب يسعى حثيثاً لنهايته في زمن لا يَعْدِل الزّمن الّذي انقضى منذ وُجد؟.

لقد أثبت «العِلْم» - بإمكانيّاته المُتاحة حاليّاً - أنّ (سرّ الحياة) الّتي تموج أرضاً وبحراً وجوّاً، ملايين

البشر ممن ماتوا وممّن يمشون على الأرض، بل ملايين الطّير والحيوان وكل ما نبت على الأرض منذ كانت «الحياة» وإلى أن تنتهي - كلّه، مُعبّأ في جُزيء لا تراه العين المجردة فيما أطُلق عليه الـ!(DNA) فأينما أبْصرَت «حياة» أبصرت الـ(DNA) يقول لك «ها أنا ذا»، وعلى مثيل الـ(DNA) يشخص (الوَعْي) من خلال «الإنسان»، فالإنسان بالنّسبة للطّبيعة - للجسد الكوني، هو (جُزيء الوَعْي) الّذي تَعي به «المادّة» ذاتها. فهل الغاية من وجودنا أن تَعِي الطّبيعة بنا ذاتها ثمّ لا شيء ولا عاقبة بالنّسبة لنا، أم أننا - من وراء القصد، قد مُنحنا «الوَعْيَ» لإدراك ما فوق طاقة الطّبيعة إدراكه؟.

فلَو أن الوَعْيَ قد مُنح لـ نسان وغايته أن تعي به الطّبيعة ذاتها لاقتصر الوعي على المُدرَك من عناصر الطّبيعة دون تعدّيه إلى ما رواء تلك العناصر من «عِلَل» و«أسباب»، إذ التجاوز إلى بحث

«العلَل» ومحاولة الإمساك بالأسباب تجاوز إلى «الوراء» ينفلت به الوَعْيُ إلى ما «وراء» الكيان - الوجود - سعياً للتعرف عليه!.. فما هذا الوراء، وما الغاية من إعداد «رحلة الحياة» للتعرّف على مستور لم تكشف الطبيعة عنه؟.. هناك بالتأكيد شيء!...

وقد حارت الخليقة في فهْم كُنْه هذا الوراء - المُعبّر عنه تجاوزاً بالمستور - لكنها أبداً ما استطاعت، إذْ كانت على شاكلة الخليّة الّتي افترضناها تحاول رسم صُورة للجسد الّذي يحتويها، بينما الغاية ليست الجسد وإنما «روحه»، فالتهمتها المتاهة في درُوبها المظلمة، بينما «باب» الخلاص على مصراعيه!

في بداية «الوَعْي» البشري تكفّلت الخرافة بهَدْهَدة العقل الّذي كان على مشارف الرّؤية فأَرَاحته، فلمّا اتّسعت ساحة الرّؤية وباتت الخُرافة ضرباً من الأباطيل تكفّل «الكَهنُة» ببيان ما عجز

العقل عن تبيانه مدّعين انفتاحهم على «الماوراء» واتّصالهم بالمطلق فيما لا طاقة للعقل على التّعامل معه.

نعم، هُناك شيء، ليس هُوَ ما صورته الكهانة في كنه متناقض يجتمع فيه «الشّخوص» مع «التّواري»، يتحدّث «وحْياً» بلسان بشريّ، بل ويشخص «لاهوتاً» في جسد يمشي به على الأرض، وإنّما هو ما تفتّق عنه الإحساس منذ بدأ الوعي البشريّ. ولأن «الإحساس» غير «الإدراك» فقد توحّد - عن قصد - الإحساس به على مسار البشرية منذ ألهمت الوَعْي، لكنّ إدراكها للمحسوس به تفاوت بتفاوت الوَعْي لديْها، وكأنّما هناك ميزان قوامه «بِقَدْر ما تَعِي تُدرك»، فأدرك الإنسان البدائيّ ما أحسّه ولا يَدْريه مُتمثّلاً في القوى الغامضة المحيطة به من براكين وزلازل ورُعود فأخضع نفسه لها وبدأ في عبادتها، فلمّا انفتح وعيه فاستبان له أنّ تلك القُوى ليست سوى أحداث لا

شأن لها بمصيره عاد يبحث عن المحسوس الغامض في كلّ ما حَوله دون عثور عليه فاستقام له أن يتصوره.

ورحلة الأديان عبر تاريخ الانسانيّة سِجلّ لا يدانيه الشّك على تعدّد تَصُورات الإنسان للمحسوس الغامض بداخله، فلدى المصريّين القدماء تصوّر الإنسان «إلهَه» في صُوَرٍ شتّى وعلى أنماطٍ متعدّدة، فهو يمشي ويعبُر السّماءَ ويخترق الأرض ويتلقّى القرابين، وفي الدّيانة الهنديّة شخص «البَرَاهْما» وتجوّل بين النّاس، وفي الزرادشتيّة لا يزال الصّراع قائماً بين إله النّور وإله الظلام وفي اليهوديّة يتجسّد الإله ليُصَارع يعقوب ويتجلى على هيئة عمود من نار ودُخان ليقود رحلة الخُروج العَبْراني من مصر، وفي المسيحية يشخص في جسد «يَسُوع»، وفي الإسلام ينزل إلى السّماء الدنيا في ليلة القدر، ويحملُ عرشَه ثمانية، ولم تخْلُ الدّيانة اليُونانية القديمة من مثل هذا التّصور، فآلهة اليُونان تأكل

وتشرب وتتزاوج وتهبط إلى الأرض ولها عالَمها الخاص الّذي يتربّع على عرشه «زِيُوس» مُحاطاً بأتباعه ومنافسيه.

كذلك في الدّيانة الرّومانية القديمة، إذْ يحَلّ «جوُبِيتَر» محلّ زيوس بما يقطع بِوحْدة إحساس الإنسان «بغامض» ينمو بداخله وكأنما يحاول الشّخوص لَه، أو من خِلاله!.

فإذا كنّا قد أمسكْنا بالميزان: (بقدْر ما تَعِي تدرِك) فما لنا إذن بوَعْي الماضي ننظر به ما أدْرَكه الرّاحلون عن «المحسُوس» الغامض المغرُوس قرين وَعْينَا تصَوّره!، أليْسَ من الأجدى أنْ نطْرق باب «وَعْي» الحاضر نتحسّس ما بداخله عن تصوره لمِحسُوسه الّذي حارت في فهمه البشريّة فتناحرت واقتتلت ووجدت في صفوفها من دنّس به، ومن أراق الدّماء باسمه!.

يتناول الفِكرة بمنظور «وَعْي الحاضر» مدرستان

فلْسفيّتان، إحداهُما «إلْحاديّة» ذات فرعين، أحدهما لا يرى في الوجود سوى (المادّة) فلَا إله ولا رُوح ولا شيء سوى الكيان الشّاخص بمادّته، والحياة عند أفراد هذا الفريق ما هي الّا نتاج التطور الّذي تُجريه المادّة داخل ذاتها، أمّا الفرع الثّاني من فروع تلك المدرسة الإلحادية، فهو - وإن كان يتّفق مع أرباب الفرع الأول في أنّ «المادّة» هي كلّ شيء ولا شيء سواها - إلّا أنّه يختلف عن الأوّلين في فهمه للمادّة، فبينما هي عند أرباب الفرع الأول مُجرّد مجاميع من الذرّات متماسكة بقُوَى منْ داخلها وتتفاعل بتلك القُوى، هِيَ عند أرباب الفرع الثّاني (حَيّةٌ) تَخطّ طريقها بـ (عَقْلٍ) كوْنِيّ، ومَا «الإنسان» - وهُوَ جزء منها - سوى «مُشاهد» يَرقبُ ما يحدث ليُشَارك بتلك المُراقبة فيما هُو حادث.

والفرعان معاً يُشكلان ما يعرف بالمدرسة «المادّية»، أمّا المدرسة الثانية فهي الّتي نفَضت

عن نفسها فكرة الكيان المادي العاقل وفصَلت مادّية الكون عن أداة تسخيره، ومن ثمّ فلا أزليّة ولا أبديّه للمادّة، فهي ذات بداية وتسير إلى نهاية بما يعُطي الدّليل على أنّ وراءها «اليد الّتي صنعَت»، والتي هي أسْمَى وأقْوم وأقْدم، وأرباب تلك المدرسة - رغم إنكارها لجميع الأديان - يؤمنون بوجود الله وهُم التّأْلِيهيُّون.

واليَدُ الأزليّة الأبديّة الصّانعة تلك تتجلى بقُدراتها «المطلقة» فيما تُحكِم به القَبضة على كوْنٍ مُتناهٍ في سِعته ومتناه في تنظيمه، والتّناهيان - في السّعة والتنظيم، شاهدا عَيان على إبداع المُبدع لكنّنا في خِضمّ صراع المدرستين - وصراعما قديم عميق - وما زِلنا نقف بالسّؤال حائرين: لماذا نحن هُنا؟.

فبعيداً عن الأديان الّتي تكفّلت بالإجابة عن هذا السّؤال في ثنُائيّة «تعمير الكون - و - عبادة الله» يبقى السؤال قائماً، إذ ما نحن شيئاً في الكون لِنُعمّره، فكمْ مضى من بلايين السّنين قبل وجود

الإنسان على الأرض، وكم سيمضي من بلايين السّنين بعد فنائه - بأرْضه وشمسه ومَجرته - دُون اختلالٍ في النّظام، أوْ حَاجةٍ إلى وجُوده!.

ينقسم الفكر الفلسَفيّ حوْل إجابة هذا السّوال - لماذا نحنُ هُنا - إلى فريقين، أحدُهما ينظُر إلى الوجود بما فيه الإنسان نظرة «ميكانيكيّة»، فالكوْنُ بكلّ ما فيه شبيه بآله تُدير نفسها بنفْسِها، وما الإنسان سوى جزء من تلك الآلة عليه أن يؤدي دوْره فيما خُصّص له ولا شيء سِوى ذلك، وقد يكون الفيلسوف الفرنسي «هولباخ» - (1723 - 1789) - هو أبرز فلاسفة الإلحاد في هذه المدرسة.

أمّا الفريق الثاني فرائده هو الفيْلسُوف الفرنسي «بايل» الّذي أسّس المذهب «التّأليهي»، ويؤمن أصحاب هذا المذهب بوجود كائن أسْمَى، أو خالق للكون يتّسم بالخير والحكمة والصّلاح، لكنّهم مع ذلك ينكرون «الدّين» و«الوَحْي»، بل ويزعمون أنّ الله كفّ عن التّدخّل في شؤون الكوْن بمجرّد أن

انْتهى من خَلْقه وتركه يَسيُر بالقوانين الّتي وضَعها له [(1)]، وقد تفرع عن الفرعين عشرات المدارس الفلسفّية الّتي تختلف في طريقة التّناول وتلتقي عند إحْدى النّقطتين الأساس في الفرعين.

فإن بحثنا عن إجابة للسّؤال: «لماذا نحنُ هُنا» في طيات فكر تلك المدارس جاءت الإجابة قاطعة الحسْم بأنّ السّؤال عَبَثيّ، إذْ مَنْ (نَحنُ) حتّى نُوضَع في المواجهة مع وجود «أزليّ أبَديّ»، بينما نحنُ مُجرّد «إسقاطة» عابرة لا أثَر لها وُجِدَت أوْ لم توجد، كذلك فالسّؤال عَبَثِيّ لإدراك سائِله بِأن لا إجَابة له، وأن الباعث عليه هو غُرور الإنسان الّذي لا مَحلّ له!.

والحقيقة هي أنّ العَبثيّة ليْست في السّؤال وإنّما هي في الإجابة عنه، إذْ ليْس (الوُجود/ الكَوْن) مُجرّد (آلة) ـ عاقِلة أو غيْر عَاقِلة ـ تُدير نفْسَها بلَا غاَية، كذلك فإثباتُ وجُود (الغَاية) كافٍ بنَفْسِه لإثبات وجُود

من يبتغيها، ولأنّ المُسّخَر لهذه الغاية هو (الوجود/ الكون) فالغَايةُ مَوْصُولَة بإرَادةٍ من خارجه وليْست مِنْ دَاخِله، ولِذَا فهِيَ إرادة جَبْر و«هيْمنَة» أساسها التّسامي ولَيْس التّماثُل.

فإن قِيلَ كيْف؟ أمْسَكْنا بـ (الكيْف) مِنْ أوّلِه وَبدَأْنا بِهِ «مِعْراج» التَّقَصي درَجَةً درَجة..

مَا رَأيُك أنْ نَبْدأ بـ (النَّمل)؟، وقبل أن تَتَملْمَل فقد اخْتَرتُ «النّمل» لتكون البداية بالسّهل لترْويض الفكر على استقبال المصاعب!، قلت لك «النّمل» وليس لَديّ شكّ في أنك تَعْرفه، لكنّ الّذي أشكّ فيه هو أنّك قدْ شاهَدْت النّمل في جَماعة مُلتفّة حوْل «جَنَاح صَرْصُور» أو ذُبابة أو قطعة خُبز وهُوَ يتكاَلَبُ في جَرّها لِيَصل بها إلى مدْخل البيت الّذي يعيش فيه في رُكْن حائط أو أسفل أصِيص زَرْع..!

فإن لم تكن قدْ شاهدْت ذلك، فسَأعْطيك صُورة مُبسطة لما يْحدث، يلتفّ إطَارٌ من النّمل حَوْل

«الفرِيسَة» بعضُه يْسحَب في اتّجاه البيْت، وبعضُه يَدْفَع - أيضاً في اتّجاه البَيْت، فإن انْطاَعت الغنيمة وتحرّكت فلَا شيء في الأمْر، تشُدّها جَماعة النّمل المُلتفّة حَوْلها إلى الدّاخل بتلْقائيّة دون ما يُثير انْتباهاً لكنّنا حَتْماً سنتوقّف لِنَرى ما يحدث إنِ «اسْتعْصت» الغنيمة وأبَت أنْ تَتحرّك من مكانها، فلَوْ كنْتَ ترْقُب ستَرى «نمْلَة» قد انْفلتت عن الجماعة وأخذَت الّطريق - في سرعة - إلى مدْخل البيت فدَخلته، وما هي إلّا لحظة ثمّ تَراها قد خرجَت وفي أعقَابها عشرات من نملٍ «كبير الحجم» في اتّجاه الفَريسة، فما أنْ يصل المدَد الوافد من النّمل «الكبير» حتّى يترك النّمل الصغير المكان لَهُ ليُحيط المدَدُ الوافد بالغنيمة ويبدأ في زَحزحَتِها ثمّ في سَحْبها تجاه البَيت في سُهولة.

استَهْوت تلك العمليّة «عَالماً» - ليس في علْم الحَشرات - وإنّما في علْم «الكيمياء»، فبدَأ يلْعَبُ لُعبة القطّ والفَأر مع النّمل، فكُلّما يسْحَب النّمل

الوَليمة يمُدّ «العَالِم» قطعة منَ الخشب يُزيحُها بها إلى مكان بَعيد عن المكان الّذي كانت فيه، فيتناثر النّمل مذعوراً في كلّ الاتجاهات، ثمّ يبْدأ في العَوْدة بحثاً عن الفَريسة، يَضْربُ هُنا وهُناك دون فائِدة.

ظنّ «العَالِم» أنّ النّمل يهتدي إلى الفريسة برائحتها - فالنّمل لا يَرى - فقرّب الفريسة إلى مجموعة من النّمل فلم تلْتَفِت إليها، ليْسَت رائحة الطّعام إذن هِيَ المُرشِد إلى الطّعام، فماذا يكونُ ذَاك المُرشد؟.. بعْضاً من الوقت والنّمل يدُور دون هُدى حتى حانت «الصّدفة»، ارتطمت نمْلَة كانت تسير في خطّ مُتعرج بالطّعام، تَوقّفَت، ثم عادت بأقصى سُرعتها إلى بيت النّمل فدخَلَته، فما هِيَ إلّا البُرْهة وحُشود من النّمل تخرج سالكة طريقاً واحداً وتباعاً إلى الفريسة.

ودُون الدّخول في تفاصيل اللّيالي التي قضاها هذا «العَالِم» في حلّ اللّغز العِلميّ، فقد اكتشف أنّ النمل يتعامَل برَائحة مادّة كيميائيّة يُفْرزها حسْب الحاجة

إليْها، فحين يُحدّد هدَفاً ويُريد بيَان موْقِعه يفرز مادّة ذات رائحة مُعيّنة تتّخذ مساراً متقطّعاً كتلك الّتي تراها تحدّد المَسَار في مُنتصف الطّريق، وبتلك الخطوط - المتَساويَة عرضاً وطُولاً وكثافة - يهتدي النّمل إلى الغَرض الّذي أُفْرزت الخُطوط منْ أجْله!.

فلْنَترك هذا «العَالِم» يسترحْ - وقد أراحه الله مُنذ زمن بعيد - [(1)]، ولنلْتَقط الأنْفاس لِنَسْأَل: أهِيَ الصُّدْفة الكوْنيّة الّتي شكّلت سُلوك النّمل في التّجربة الّتي سَلفَت؟، فإن قيل رُبّما، فَعمر الحَياة على الأرض يتجاوز أربَعة مِلْيارَات سنَة وهو زمن يكفلُ تحقيق تلك الصُّدفة، قُلنا، وهل هيَ الصّدفة أيْضاً صاحبة «ابْتكار» السّائل الكيماوي المتعامل به بين النّمل؟ فإنْ قيل بأنّ الحياة مُبتَكرة وتنوُّعَها دليلٌ على ذلك، قُلنا، وهلْ هُوَ الابتكار منْ جعَل النّمل يهتدي إلى (سرّ) السائل الكيميائي فلا يُفرزُه الّا حين يُريد التّعبير به عن شيء؟، فإن أمْعَن المجادل في الجدَل فقال: النّمل يفعل ذلك بـ (الخبِرة) الّتي اكتَسبَها

عَبْر ملَايين السّنين، قلنا: أيّهما تُعطيه الخبرة تلك، إفراز المادّة أمْ (إرادة) إفرازها حين الحاجة إلى ذلك، فلو أن الأمر كان وليد «خِبرة» صنَعتها التّجربة لكان إفراز النّملة للسائل الكيماويّ عشْوَائياً في زمانه ومكانه، لكنْ أنْ يتوقّف الإفراز على عُثور النّملة على الفريسة ليبْدأ من مكانها إلى داخل بيت النّمل فلَيس ذلك بصُدْفَة، كما أنّه أمرٌ لا تُعطيه خِبرة، هُوَ «إرادة» استقام عليها السّلوك، وهي «إرادة» ليس مَبْعثُها «الغريزة» وإلّا كانت الغريزة «عاقلة» وهو مَا لَمْ يَقُل به أحَد!.

فإذا أضيف إلى ذلك - وهو الأهمّ - أنّ النّمل لا يقتَصر في استعمال كيْميَاء الرّائحة في تحدْيد المَسَار فقط، وإنّما لديْه كيْمياء «الفزع» وكيْمياء «الهُروب» وكيْمياء «الهجُوم» وكيْمياء «تحديد المَهامّ» في المستعمرة بما يشكّل عالَماً لُغة التّخاطب فيه بـ (الرّائحة)، تَساءلْنا عَمّن عَلّم النّمل تلك اللّغة!.

ولن ننتظر الإجابة، فما زال الطّريق وَعْراً، وما زال سُؤالنا الأهَمّ - (لماذا نَحن هُنا) - بلا إجابة..

في الخطْوة التّالية سَأَبْدَأ بك أنت فأُخبرُكَ عن شيءٍ بداخلك، بالتّأكيد هُوَ غير مَحْسُوس، وربّما الكثيرون منّا لا يعرفون عنه إلّا قليلاً، لن أدَعَك تُغرق في التّخْمِين بلْ سَأسْألك: ما رأيُك في كَتِيَبة الصّواريخ المُوجّهة المَوْجُودة بداخلك؟، وكيف حالُ أجْهِزَة الإنذار المبكّر المحمُولَة على «مرْكَبات الفَضاء» السابّحة في مجالك «البلَازْميّ»؟.

أهْزل!.. حسْبي الله، ما قصَدتْ إلّا الجدّ، فبأجسامنا «كتَائِب» دفاعٍ مُهمّتها حمايُتنا مِنْ فَتْك الأوْبِئَة والجراثيم ومِن ثَمّ.. (الموْت)..

تدخُل «الجرثُومة» الجسم عن طريق الهواء أو الطّعام أو الشّراب وربما بالمُلامسَة. قُلتُ: (تدْخُل)، غير أنّها في الحقيقة لم تكُنْ قد أكْمَلت الدّخُول.. مجرد أن «تَشْرع» في مَساس «المَجال الدّاخِليّ»

للجسد تنطلقُ صافِرات الإنذار في جميع جَسَدك.. هُناك خَطر!.. وعلى الفَوْر - في جزء من اللّحظة - تبدأُ عمليّة التّعبئة، تتحوّل خلاياً «المُونَاسِيت» إلى خلايا شرِهَة مُلتَهِمة تُسمّى «الماكْرُوفَاج»، وتبدأ تلك الخلَايا في التّجوال في بلَازْما الدّم لالتهام ما يُصادفها من جراثيم دخيلة، في الوقت الّذي يكُون فيه «جهَاز الإنْذار المبُكرّ» فيما يُعرف بالخليّة (T) - وهي الخليّة المحُبّبة لجرْثومة الإيذْر - قد التقط صفير الانذار فتبدأ الخليّة (تي) في الانقسام والتّكاثر دافِعَة بألوف النّسخ منها في مجرى الدّم بحثاً عن الجرثُومة الغازية، فإذا ما استشعرت بها اقتربت منها لمجرّد «تتحسّسها»، هي لحظة تستغرقها عمليّة التّحسُّس تكون فيها الخليّة (T) قد التقطت «شفْرَة» - بصْمة - الخليّة الدّخيلة، وإذا بها بعد التّعرف على تلك البصمة تُطلِق إنذاراً يحملُ أمراً «مُشفّراً» إلى خلايا المقاومة: (B) أطْلِقِي القاذفات، فتتحول تلك الخليّة إلى ملايين الأجسام المضادّة -

أرجوك أن تتوقف عند كلمة «المضادّة» - إذ أنّ تلك الأجسام تحملُ «عيناً شفْريّة» باحثة عن الهدف - المُرسل من الأصل بَصْمَتُه في شفرة الإنذار من الخليّة (T).

وتلك الأجْسام المضادّة متعدّدة المهام - في سبيل غرض واحد هو القضاء على الجُرثومة الغازية، فمنها ما يمسك بالجرثومة - من جَانبيْها - فيشلّها عن الحركة، ومنها ما يُمسك بالجرثومة من جانب واحد ليقوم بسحْبها إلى المكان الذي توجد فيه خليّة «الماكروفاج» الملتهمة لتقضي عليها، ومنها ما يقوم «بتَبوْيِر» البناء الحَيَويّ للجرثومة وتركها مادّة خاملة يطرُدها الجسْم مع نفاياته [(1)].

حرْبٌ ضَروس مُحكمة تتَضاءل بجانبها أعْتى حرُوب العَصر، من «لِيزَرْ» وصَواريخ مُوَجهّة بالأقْمَار، وقذائف باحثة - في الأعماق - عن أهدافها.

كلّ ذلك، وأنت تشرَبُ كُوب اللّيمُون الدّافِىء بعد تَنَاوُل قُرص الأسْبرين، وتنتْظِر انْخفاض حَرارة الجسْم الّتي تجاوزت حدّ الاعتدال وما هي الّا بْرقيّة مُرْسَلة إليك من الدّاخل الحَرْبُ مُشتعلَة!.

فإن كنّا جزءاً من الطّبيعة - ونحن ذلك حقّاً بالكيان المادّي - فهل هي الطّبيعة من (أبْدَع) البرنامج الدّفاعيّ الصّامت غير المحْسُوس بدَاخِلنا؟.

وإذا كانت «الطّبيعة» هي صاحبة الفَضل في ذلك فما غَرضُها مِنْه، هُوَ برنامج دفاع لحمايتنا، فهل تُريد الطّبيعة أن تَحمْينا؟.

وإذا كانت الطّبيعة تُريد «حمايتنا» فما مقْصِدُها من تلك الحماية إلّا إذا كُنّا نُشكل «غايَةً» بوُجُودِنا!. فإذا كان «وجودنا» رهناً بغاية، فما هيَ تلك الغاية؟..

ليس بيَدنا!، فلْنَصعد درَجةً أُخرى، ولْنأخذ معَنا «الخليّة» الّتي وضعْنا بها البداية لطريق النّهاية،

أمازلت تذكر «خليّة إبهامك..» دعنا ندخل بها «مُختَبراً» - حديثاً - لاستطلاعها من الدّاخل، فإن أردْتَ نُزهَةً بدَاخلها، سألتُك: هل تجُيد السّباحة؟، فإن قلتَ: وَلِمَ؟ قُلتُ لك، لِأنّك سَتلجُ «مُحيطاً» من مادّة هُلاميّة يُسمّونها «السّيُوتوبْلازْم» تغُوص بداخلها (النّواة)، أعجُوبة الأعاجيب في الخَلق، فإن استطعتَ الوصول إليْها غوْصاً - بالمجْهَر طبْعاً - فتوقّف عند عتَبة السُّلّم (الحَلزُونِيّ) الّذي هُناك.. وإلّا أخذَك الذّهُول إلى نِسْيان نفْسك بالدّاخل..

على الأعْتاب، الخليّة الحيّة - الحيوانيّة - ذاَتُ حجْم صغير مُتَناهٍ في الصّغر، فكُلّ «بُوصَةٍ مُربّعة» من جِلدْ الإنْسان تحتَوِي على (مليون) من هذه الخلايا، بينما يحتوي جِسْمُ الإنِسان على ما يزيد على (مِئة تِرلْيُون) خليّة، والخليّة تتكون من جِدار يُعْطِيها الشّكل العام، وتقَع بداخله المادّة الحيّة المعروفة «عِلميّاً» بـ (السّيُوتوبْلازم) وبه تسْبح مئات من الجُسَيمات المختلفة - الّتي لا تَعْنينا

أسْمَاؤها، إذاً نحن في رحْلة إلى (المركز) المُسمّى بـ (النّواة)، أو هُوَ (سِدْرَةُ المُنتهَى) في عملّيّة الغَوْص.

قبل سنينَ مضَتْ كانت رِحْلَةُ الإبْحار إلى نَواة الخليّة تتوقّف - عنْوة - عنْد جِدار النّواة، فأبْوابُ النّواة مُحكمة الإغْلاق، وحافِظة المفاتيح لدَى «العِلْم» خاوِيَة، فما أنْ وُجِدَ «المفتاح» وفَتَحت «النّواة» أبْوابها واسْتبانَ «الكُرومُوسوم» يَحْتَضنُ الرّمز الإلهيّ المودع من خِلاله الحيَاة - بأيّ حَيّ - فيما يُطلق عليْه «الدَّنَا» DNA - حتّى ارْتجّت الأرض!.

بالطّبع لَسْنا في مَجال يُتيح لنا الإيغَال في تطّلع الخَليّة بأكثْر من ذلك، إذْ ليْس تخصّصُنا منْ ناحيَة، ومن ناحِية أخرى بهذا التّخصّص خارجٌ عن الغاية الّتي نسْعى إليها، مَا يُهمنّا من أحْوال تلك «الخليّة» هُوَ «الكُرُومُوسُوم» الّذي يحتضِنُ النّواة - في وَلَهٍ وعِشْق - لنْسألَه عن السّر الّذي جعَله يتخَفى عَنِ

الأنْظار ليُعَانِق «قَرّة عَيْنه» الـ (DNA)؟.

ولَوْ كان للكُرُومُوسُوم لُغَة للِحدَيث أوْ يد للصّفْع لأَجَاب بهَما مُشيحاً عن وَجْه السَّائِل، أن أُغْرُب عنّي بجهْلِك!، فما ورَائي هُنا - في الـ (DNA) هُوَ (سرُّ) الحيَاة الّتي تُهْدِرُونَها شقَاءً واقْتِتَالاً وغَضّاً عن مُطَالعة (الجَمَال) الّذي ما خَلَقَه «الله» إلّا لَيَراه الإنْسَان.. أُغْرُبْ!..

وسَأَغْرُبُ، لكنْ ليْس على ظمَئي!، إذْ كيْف يكون بشرٌ في رحَاب «السّر الأعْظَم» ثمّ يْنثني خَالِيَ الوِفَاض حتّى ولَوْ بِلَمْسَة يتَذَوّقُ من خلالها (طَعْم) حَياتِه!.....

يتّخذ الـ (DNA) - حامِلُ سرّ حَياة كلّ حيّ - شكلاً مجْدُولاً - يُسمُّونه (الحلَزُون)، وتركيبتُه غريبةُ الشّكل «مُبهرَة»، غايةٌ في الإبْداع، وغايةٌ في الاسْتِحَالة، فإن تَمَّ «فَرْدُه» من «انْطِوائيّته» بَلَغ ما يَقْرب من (مِتْرين ورُبْع المِتْر).. تذكّر.. «مِترين

ورُبع المِتر»، وتذكّر أنّ ما أمامك على هذا الطّول هو (شُعَيْرة) لا يمكن رؤيتها بالمجْهر العَاديّ، فهم ينظرون إليها بالمجهر الإلِيكتُروني، ثمّ تعالَ معي لنرى بهذا المِجْهَر ما تحتويه تلك «الشّعَيْرة» منْ «جينَات» يبلُغ عددها - قفْ قليلاً كي لَا تُصْدم! - (مائة ألْف جِينْ) كلّها تحملُ صفاتك، من لَوْن وَجْهٍ ومُقَل عُيون وشَعْر وأطفار، لا.. بلْ وحتّى صِفاتك النّفسيّة والبدنيّة والمَرضيّة [(1)]. فإن كُنت «مُبْدِعاً» فهناك «جين» الإبْداع في رُكنٍ خاص به، كذلك «القَتَلة»، و«لصُوص الشّعوب» و«الكهنة» كلّ منهم «بجين» - على هيئة إجْرامِه - يُحدّدُ لهُ «مُنْزَلَق السّقُوط» ويَدفَعه إليه!. وكأنّما (هو) قَدرٌ مَحْتوم، وإِنْ ظَنّ الإنْسان نَفْسَهُ حُرّاً.

تكمن الحَياة في الكائن «الحَيّ» رُموزاً إلهيّة، مخطوطَة بالقُدْرة على (جين) يحتَويه «حَلزُون» مِجْهَريّ لِا تراه عين! - الّذي يراه هو المِجْهر!، فَارْتَعَد الإنسان وَانْسَاب مِنْه بعْض من غروره، لكنّ

«صَلفه» ظلّ!، فَأَزِيح عن عيْنه «طَرفُ الحِجاب» فرأى عجباً..

فعندما كان أحدُ عُلماء «الفيزياء الفلكيّة» يُطالع - من خلال المْرقَاب الفضائيّ - «سَدِيماً» [(1)] غائراً في أعماق الفضاء رأى ما جَعل رأْسَه يدُور، مُتَهْتِهاً لمنْ بجاَنبه: أُنظر..!، فلمّا نَظَر لمْ يُصدّق، كان «السّديم» يتَلوى، مُشَكلًا «حَلزُوناً» تتوالَد مِنه ومَضات تُخلّف كلّ وَمْضة (جيناً) كوْنيّاً - نَجْم - يُومِض بالظّهور لبقيّة الأنجُم!. وقد تمكن هذا «الفيزيائي» منْ رَصْد هذا «السّديم» وتصويره. (أنظِر الصّورة).

صورة ص 128

كروموسوم الخليّة في الكائن الحيّ (و) كروموسوم «السّديم» في قلب الكون!

فإن اكْتَفينا بمَا سلَف، وعُدْنا من الرحلة في الخليّة الحيّة وبين يدينا سِرُّ الحياة فيها مسْطُورٌ على حَلَزُون الـ (DNA!) ثم رأينا «شَبيه» هذا السّر، نفس الهيئة والشّكل - ماثلاً في (حَلَزُون) (كَوْني) تتوالد بباطِنه النّجوم - فيسْطَع النّور وينْزاح العَدَم! - أفلا يتبادر إلى الذهن أن يكون هذا «السّديم» شريطاً شفْرياً «لِنَواةٍ» حيّة في قلْب خليّة كوْنيّة؟.

فإذا كان الأمر على هذا النّظر، أفَلا يكونُ دليلاً على أنّ (الحياة) الّتي نحياها ما هي إلّا مُجرد «نموذج» مُتناهي الضّآلة لِحيَاة يحْياَها «الكَوْن» نفسه؟.

فإن عُدْنا بالسّؤال: لماذا نَحنُ هُنا؟، وبين أيدينا أنّ بداخلنا «كَوْناً حياً» هُو بذاته «الكوْن المُتناهي -

المطلق» أفَبَعْد ذلك نُسلّم بوجُودنا لأيّ من المدرستين (الإلحاديّة/ المادية) أو (الماديّة العاقِلة)؟، هناك شيء!، ونِداءُ الاقتراب يتوالى!.

يتّفق «العلْم» على أنّ «الجَمال) ليْس صِفَةَ في الشّيء الجميل بقدْر ما هُوَ «الأثَر) الّذي «يُخالط» الإنسان حين مُطالعته للشّيء الجميل [(1)]. فاللّوْحَة - رائعة الجمال - تظلّ مُجرد خليط من الألوان على قطعة قُماش ميتة لَا حيَاة فيها، وستظلّ إلى أن يُبْليها الزّمن في صمْتِها الرّهيب وهي «لا شيء/ مَعدُومة» [(*)]. لكنّ الحال ينْقلب على عَقِبَيْه إن أطلّ ناظر بعينيه على تلك اللّوحة، في الحال «تنطِق» وقد دبت فيها الرّوح، تحاور النّاظر إليها فَتمده بالمتعة.. والمُتعة الّتي تمدّك بها «لوحَة» أو «سِمْفُونيّة»، أو مُجرد زهْرة تختال في نَدى الصّباح هي (لُغَة) الجمَال الّتي ما كانت تنطق إلّا إذا كان هُناك مَن يَسمَع!.

حتّى في «الفيزياء» يرى العلماء أنّ الجمَال وإن كان المقياس الحقيقي للحقيقة العلميّة، إلّا أنّه في حاجة إلى مَن يكشف عن تلك الحقيقة، فبدون ذلك «الكاشف» لا حقيقة ولا جَمال.

والوجود من حَولنا غاصّ بالجَمال - لا شأن لنا بالأجساد! - بما لا يمكن لطبيعة أن تصنَعه، فإذا كانت الطّبيعة قد هيّأت للنّبات أوراقاً مُهمتها إمداده بالغذاء - التّمثيل الكُلُورُوفِلّي - فقد كان يكفي الطّبيعة في تحقيقها لذلك أن تجعَل أوراق الشّجر جميعها على نَسق واحد، فكلّها من خلال هذ النّسق تُؤدّي الغَرض المطلوب. لكنّك تَرى ورَقة على هيئة «القلْب» وأخرى على هيئة «الفَراشة».. بعضُها أمْلَس الحَوافّ وبعضها مَوْصول بانْحِناءة أوْ غَوْر، بلْ بعضُها على «لَوْنٍ» وبْعضُها الآخر تتعدّد الألوان فيه.

والحال كذلك في «الطّيور» مع أنّ الرّيش مُهمّته للطّير واحدة - تعديل الحرارة والطّيران - إلّا أنّك

تَرى مَن يختالِ بجمال رِيشه كالطّاوُوس والببغاء وطيور الزّينة. أُلوف الأشكَال و التّنويعات في تناسق عجيب يُناديك جَهارًا: تعالَ أنظُرني!.

وقد انْتابت الحيرة عُلماء الطّبيعة عندما طالعوا «نُدَف الثّلج» تحْت المِجْهَر، إذْ رأوا عَجَباً، فالثّلج - قطَرات الماء المتجمّدة - قد تشكّل هَنْدسيّاً في رُباعيات وسُداسيّات.. لا، بل وتزَيّنت الأفْرُع في تَحدّ لِأمْهر عَقْل بشريّ أن يُحاكي. [أنظر الصّوَر].

صورة ص 129

نُدف ثلجيّة تتحدّى الإنسان أن يُحاكيها، فهل يمكن أن يكون وراءها «صُدفة» ؟.

صورة ص 130

[تنويعات نباتيّة تدعُوك للمُشَاهدة، فما الّذي وراءها...؟.].

فإن كُنتَ تعرف «الغَوْص» وتسنّى لك مُشَاهدة «الشّعَب المرجَانيّة» تحت الماء وهي تُومض ألوان الطّيْف بينما تحُفّ بها - غير الأسماك - كائنات تختال تَراقُصاً بقمصانها الشّفافة، أو بجيوبها النّفاثة، ورأيت من بين الصّخور (قوْقعة) تطلّ منها العينان في بريق يُمسك بإرادتك ويشدّك إلى القاع!، تساءلتَ عمّا وراء هذا التنّوع الإبداعيّ من سِرّ!..

ولن نسأل في ذلك أصحاب «المذهب الطبيعي» الّذين ينْسِبون للطّبيعة كلّ شيء، إذْ لا فائدة يُؤديها الجَمال للطبيعة، كذلك لن نسأل (كاهناً) أو تابع كاهن تَرى «القُبْح» يطُلّ من عينيه دلالة على بُغضه للجمال وكراهيته له، و إنّما نسأل كلّ ذي «عينين» و«عقل» يسعَى بهم على الأرض!، لمن هذا الإبداع إن لم يكُن لك؟ ولمن تعُج الدّنيا بـ (الجمال) إلّا إذا كان المُبتغى (مشاهداً)، وإذا كان «المشاهدون» هم «نحن البشر» - هل يستمتع الحيوان بالجمال؟ - فما هي الرّسالة الّتي وراء هذا الطّرح البديع الرّائع؟.

وإذا كنّا وحْدنا - بني الإنسان - من أَرسِلَت إليه تلك الرّسالة، فماذا وراء رسالة «مُعبَّقة» بالروعة فيما لا حُدود لتصوّره؟.. هناك شيء!.. ونداء الاقتراب يتوَالى!.

(مصْيَدُة الفِئْران)، عبارة عن صندوق بدائيّ من السّلْك به بابٌ يُفتَح جاذباً «زُنْبرُكاً» يتحكّم فيه «خُطّاف» توضع فيه قطعة من الجُبن الّتي ما أن يحاول الفَأر الْتهامَها حتّى يتحرّر الخُطّاف جاذباً الزنبرك.. هِيَ مُجرّد (تكّة!) وبعدها على الفَأر السّلامة!.

ولعلّك - حين كنتَ طفلاً - جرّبتَ اصْطياد العصافير بـ (الفَخّ!)، وفكْرَتهُ تُماثل تماماً فكرة المصْيَدة، تُوضع حَبّة القَمح أو الأرز في طَرَف «الخُطّاف» فما أن ينقرها الطّائر حتّى تحدُث (التّكّة) فينتهي الأمْر بالنّسبة للعصفور المسكين!.

والسر في بَلَاء المصْيدة بالنّسبة للفَأر، والفَخّ

بالنّسبة للعُصفور هو (الطّعْم) الذي جَذب المسكين إلى الدّاخل. فلَوْلا «قِطعَة الجُبْن» ما لَقِي الفَأْر مَصِيره، ولوْلَا «حَبَّة الأَرُزّ» مَا تَجرّع العُصفور نهايتَه!.

والإنسانُ ليْس وحْدَه مَنْ يصْنعَ «المَصَايد» و«الفِخَاخ»، بل هُو مُجرد «مُقَلّد» بدائي لا يزَال طِفْلاً يَلْهُو بالحَصَى في عالَم الصّيْد ودُنيا الاقتِنَاص!.. بلْ يلهُو بصَيْد العَصافير وهوَ بـ(نَفْسِه) مَسُوقٌ في رِحْلة (قَنْص) هوَ المقصُود بها.. مُجرد (تِكّ!)، وتكون المهمّة قد انْتهَت!.

وفكرة المَصْيدة أو الفَخّ وإن كانت بسيطة، إلا أنّ وراءَها (عقْلاً) فكّر في الكَيفيّة الّتي أنْجزَتْها، بل هُو قبْل أنْ يُفكّر في إنْجَاز «الابْتكار» كان تحْت (إلْحاح حَاجَة) فالمصايد والفِخَاخ تُخْفي وَراءها (مُترَبِّصاً!) اسْتغلَّ (ذكاءه) لـ (تحقيق غاية يبتغيها).

دعْنا الآن من المَصَايد والفِخَاخ فسنعُود إليها فيما

بعد!..

يقول أصحاب المدرسة (المَادية) أنَّ (الوجود) برمَّته (مادّة)، فالوجود وما وراء الوجود، ما تَراه وما لسْتَ تَراه ليْس إلَّا «المادّة» وَمَا التّنوّع والاختلاف الّذي تَراه إلّا اختلافاً في التّشكيل، واختلافاً في (رُؤيَة) التّشكيل، فلَا اللّون الأخضر موْجُود في وَرقَة الشّجرة الّتي تَراها خَضْراء، ولا تَعدّد الألْوان في «القَوْس القُزَحِيّ» هُو ما هُنَاك عنْد الأفق، بل كُلّها مُجرّد (صُوَر) تتشكلّ من خلالها المادّة بدَاخل «مُخّك!».

فإن سألتَ عن (الحيَاة) أهِيَ الأخُرى مادّة؟، أجابك أصحاب تلك المدرسة، بأن الحَياةَ نِتَاجٌ طبيعيّ لتطوّر المادّة، فما من كائن «حيّ» إلّا وهو مادّة، غاية ما في الأمر أنّها مادّة تحوّلت منَ الشّكل الغازيّ، أو الصّخْريّ أو الفَحْمِيّ.. إلخ أشكال المادّة، إلى الشّكل (البُيُولُوجيّ) الّذي تُتاح «الحَياة» من خلاله.

فإذا كانَ مَدى صَبْرك - مِثْلي! - قصيراً فأشْهَرْتَ سَيْفَك!، قُلتُ لك: تَمهَّل، فَهؤُلَاءِ مَعذُورُون لأنّهم لمْ يَروا «فخّاً»، وبيُوتُهم خالية مِنَ الفِئْران والمصايد!، فدَعْنا نتسلّل إليهم بسُؤال من خارج سِيَاق تفكيرهم، لا يملكون منه فَكاكاً!.

فيَا أيُّها (المَاديّ)، ما رأيُك في علاقة (الذّكر) بـ (الأُنثى)؟، في الإنسان والحَيَوان والطّير، بل وفي كلّ ما هو (حيّ). ومقْصِدُنا بالعِلاقَة في السؤُال، هو «الدَّفع البُيُولُوجيّ» السّاعي إلى التِقَاء الجنسين لقاءً «جِنْسِيّاً».

ونحن نعرف من البداية أنّ لَدَى «المَادِّيّ» إجَابةً عن هذا السّؤال، فَلدَى «مدرستهم» التّفَاعُلات الهِرمُونيّة - التّسْتُوسْتِيرون والاسْتِرُوجين وغيرهما من إفْرازَات «مَكَامن» الدَّفْع - الغُدَد - المغْرُوسَة في الكائن الحيّ، ولَديهم أنّ «الغريزة» بيُولوجيّة يُغْري بها مُتعَة الجَسد بـ (الشبق) ومُتْعَة العَقل بما تنقَله إليه النّبضَات العَصَبيّة حال التّلاقي، لكن ليْس عندهم

أيّ إجابة عن (الطّعْم) المُتَواري خَلْف (اللّبِيدُو) - مُتعة الشّبَق..

ليكُن السّؤال إذن: فلَمِاذا أجْهَدَت «المادّة» نفْسَها بتصنيع (المَصايد) وتخْلِيق (الطّعُوم) إلّا إذا كانت (تهْدف) بذلك إلى «غاية» تسْعى إليها، فإِن كان فما تلك الغاية؟.

يَشِبّ «الذّكر» أو «الأنثى» وقد أُحْكم بدَاخِله غَرْسُ «الفَخّ» وتجْهيز «الطُّعْم»، ففى الذّكر والأنثى (غُدَدُ الجِنْسِ) مُودَعَةٌ في «أعماق» النّشْأة لحظْة الْتِقَاء (الَحيْمَن) - الحَيَوان المَنويّ - بالبُوَيْضَة، ومعَ «النّمُوّ» تفْتح «المَصَايدُ» أبْوابها، ويبْدأُ إطْلاق قذَائِف «الرّغبة» في الجَسَد.. هرمُونات ذُكُوريّة في الذّكر، وأُنْثويّة في الأنثى.. تُغرّد الطّيُور، وتتَراقص الأسْماك، وتتفَتّح الوُرُود، وعلى ساحة (الإنسان) يَدِبّ النّشاط في «تجمّعات» النّوادِي وخلْف أسْوَار قاعات الدّرْس ومن خلال النّوافذ المُتقابلة، وعصْريّاً، عَبْر «الهاتف» الجَوَّال تحت الغِطَاء

الدّافِىء في ليالي الشّتاء!.

ولنختَصِر الطّريق!. ينْتَهي «الفَرَح»، ويَدْخل «العَرُوسان» مخْدعهما، ثُمّ تَمْضي لَحظات وإذا.. (تِكّ)! قد حَدثت، ابْتَلعَ الاثنان «الطّعْم» وقبض «الفخّ» قبْضَته!.

فإن قال قائل، عنْ أيّ «فخّ» تتحدّث؟، قلتُ له: عن «فخّ الطّبيعَة» الّذي نصَبَتْه لِكُلّ كائِن حيّ، وأخفَته في «عباءَة الجنس»، وغلّفَته بـ (ارْتجَافَة الشّبق) ـ الطّعْم ـ لتَقع فيه!.

وقبل أن يسأل سائلٌ عن الغَرض من ذلك، تُبادرُه بأنّ (الحَياة) تُرِيد «الاستمرار»، فهِيَ تُقاوم بما تصْنع «يَدَ العَدَم» الممتدة بالفناء. هيَ تقاوم ـ (بِكَ) ـ أن تَفْنَى هي، وليْس بكَ وحْدَك وإنّما بكلّ ما (هي فيه)، إنْساناً كان أو فأرْاً أو طائِراً أوْ نباتاً.. مجرّد (تِكْ)، ثمّ معَ الشّكْر، إذْهَب لحَالِك!.

وهُنا نتوقّف لنسْأَل السُّؤال الأهَمّ: إذا كانت

(الحَياة) تحْتَالُ لتَبْقى، بتَصْنيع الغُدَد، وإطلاق عِنَان «الرّغْبة»، ودفْع مُكافأة اللّقاء «ارْتجَافَةُ شَبَقٍ» تذُوب في «نُعُومَتها» مادّة الجَسد، أفَلا تكون بذلك (عَاقِلة)؟.

فإذا كانت الحياة - حسب رُؤى المادّيين - هي نِتَاج مَادّة تطوّرت، أفَنِتَاجُ هذا التّطوُّر أن يُوهَب للحياة «عقل»؟.

كلّا.. فهناك شيء!... ونِداءُ الاقتراب يتوالى....

....

يَنْدفع «الجسد» - وهو مادّة - إلى التّوحد مع أصْله فيسلك السّبيل إلى (العَدم) (*)، ويَنْدفع «الرُّوح وهُو (مُطْلَق) إلى التّوحد مع جَوْهِره. والطريق إلى «العَدم» سُقوط، بينما طريق الجوهر بالتّسَامي علوّ،

وبين السُّقوط والتّسامي كانت (الحيَاة) جِمَاعاً بين «المادّة» و«الرّوح» في كلّ «حيّ» الإنسان والحيَوان والحَشرة والأشجار وكُلّ بيْن يدَيْك تراه. غير أنّ الإنسان هو الوحيد الّذي مُنح إلى جَانِب أنّه يَحْيا مِنْ خِلال مَادّته/ جَسده، وَجَوْهَره/ رُوحه، (عقلاً) ليُدرِك ـ وليس يَرى! ـ به ما يَراه وصولاً به لإدْراك ما لَا يراه. وبما أن الإدْراك مُرتبط بـ (الوعي) (**) فالإنسان ـ وحْدَه ـ دون باقي الأحياء في الوجود هو الّذي عليه (عَقْلنَة) الوجود ليصير مفهوماً، وتاريخ الإنسان على الأرض يعُطي الدّليل على أن الوَعْي الإنسانّي مُنفَتح تجاه غاية تُشير «المَسيرة» إلى أنها التعرّف على حقيقة الوجود، وكأنّما يبتغي «الوجود» بـ «الوَعْيِ الإنْسانِيّ» الكشف عن حقيقته!.

والحياة العاقلة ـ بالوَعْي ـ سواء في الإنسان على الأرض أو في «أشْباه» الإنسان في بقيّة أرْجاء الكون، هِيَ مُبتَغى «الرّوح المُطلق» ليعي بها

الوُجُود جوْهَره، وليَأَخُذ الطّريق كُلٌّ إلى «أصْلِه»، وما انْقِسام الحَياة على الأرض إلى حياة «عاقِلَة» - في الإنسان-، وحياة «غيْر عاقِلَة» في باقي الكائنات الحيّة إلّا «شارة» على الطّريق لتحديد الاتّجاه!.

فمن مُعطيات تلك الشّارة على أرض الواقع أنّ الحيّاة وإن كانت في جوْهَرِها «واحِدَة» إلّا أنّها حِين مَسّت «المادّة» انقسمت إلى فرعين أحدهما اختصّ به كائنات «اللّاعقل» ولا وَعْيَ كالأشجار والنبات وكافّة الكائنات (الغريزيّة) كالنّحل والنّمل والحشرات والحيوان وكافة ما توقّف به وعْيُه بانْحِصَاره في الغريزة الّتي قيّدته في إطار المادّة، فأصبح بهذا القيْد غايَة لوُجود غيْره، كالغاية من وجود الحَيوان والنبات لمن يتعَيّش عليهما، وثانيهما، حياة قرينها الوَعْي وفي رحَابه تكْمُن (الذّاكرة) ومُعْطَاها على مرّ التّاريخ البشري أنّها (وَسِيلَةٌ) يتنامى من خلالها «الوَعْي» سَعْياً لإدْراك «غايَة» مازال الطّريق إليها طويلاً!.

غير أنّ معالم الطّريق تُعطى أن الحَياة «الوَاعية» ومستقرّها هو [المادة/ الجسد «+» الروح] قد مُنحت حُريّة اختيار «السّقوط» بالنّزُوع إلى المادّة، أو «التّسامي» بالنُّزوع إلى الرّوح إذْ ليس هناك «برزَخٌ» يفصل بين «السّقوط» و«التّسامي» فما دُمْت قدْ وعَيْت، فأنت المسؤول عن مصيرك!.

صورة ص 133

إطْلالَة

في البَدْء كان كلُّ شيْء، وكُلّ شيءٍ كان في «العَدَم». فَلَيس العَدَمُ هُوَ عدمَ الوُجُود، وإنّما هوَ

الوجُود (السّاكِن) في اللّازَمان ولّا مكَان ولا هَيْئة (*)
. كانَ الوُجُود في العَدَم «لَا نهائيّاً» تحتْويه ظُلْمةٌ أَبَديّة، كالُجثة - مَيِّت! -، وفي مُقَابل «المُطْلق المَعْدُوم» كان «الرّوحُ» هُوَ «الوُجُود» مُطلقاً وَحَيّاً، جَوْهراً يحْجبُه النّور الأبدي في مقابل ظُلمة العَدم الأبَديّة، شاخِصاً لِذَاته وليس هُناك سِوَاه فلمّا «تجلى» فاضَ «النّور» إلى قلب الظُّلْمة فانفجر «العَدمَ»!.. شَخَص «المكان»، وولد «الزّمان»، وتشَكّلَت «هَيئة» الوُجود، فأعْجبَ «الرّوح» إبْداع تَجلّيه وأراد لَهُ أن يُشَارك في النّعيم فَمدّ لَه منْ «روُحِه» فاستقام «حيّاً»، وَدَفَق في رِحابه «الوَعْي» فأبْصَر.. اكْتَملَت «اللّوْحَة» وما بقَي إلا مَنْ يُشاهدها، إنسان هُنا، ومثيلُه بما لا حصر ولا عدّ في كلّ الأرجاء، وعلى مسار الوجود، كلّ ينظُر، وكلّ «بِوَعْيِه» على (قَدْرٍ) في التّعرفِ على ما يَنظُر!.

وكَيْلا يُظَنّ أنّ تلك هيَ «شطْحَةٌ صُوفيّة» - وليْتَها

تكُون! - فالوُجُود من حَوْلنا شاخِصٌ في (ثُنَائِيّات) مُتَضادّة، فمقابل الأبيض يُوجد الأسْود، ومقابل اللّيل يُوجد النّهار، ومقابل الحرارة توجد البُرودة، فإنْ تَعمَّقْتَ، فمقابل الأليكترون يُوجد البُروتون، ومقابل السّالب - في الكهربيّة - يُوجد الموُجَب، وفي الحياة، مقابل الذّكَر توجد الأنثى، وفي المادّة يوجد «ضَدِيدُ المادّة» مقابلاً للمادّة، فإن أحْصيْت فلا شيء في الوُجود على حالَةِ انْفراد بل كّلٌ ولَهُ (ضِدّه) المُقابل لَه، فِلَم لا يكون (للجَسَد الكونِيّ المُطْلق) - مع الاعتذار فليس في اللّغة لِمَا نقْصِدُه ما يُعبرُ عنه - مقابلاً - بالجَوهْر - مُطلق؟.

وإذا كان «الوجود» هو الشخوص من «العَدَم» وكان الشّخوص بتَجلي «الجَوْهر» على الغارق في عدَمِه، فإن الوُجود برُمته «مخلُوق» بهذا التجلّي، بل هو مرتبط المصير به!، فمجرّد «الإشاحة» عنه يُردي إلى العَدَم!.

وجوهر الوجود - باعثه من العدم/ خالقه -

شاخص شخوص عيان بالوجود الذي تَراه، فبدونه يُطبِقُ «العَدمَ» فلا تكون - أنت - ولا يكون هناك ما تَراه، فمن يظنّ احتجابه فعيْنُ «البَصيرة» لدَيْه كليلة، فما أبَدع ما أبدع و(أرَاكَهُ شاخِصاً) إلّا لتراه من خِلاله.

وعين البَصيرة - العين الوَاعية - مُستَقِرَّةٌ بداخِلك، هِيَ قَبَسُك من النّور - شِئْتَ أمْ أبيْت! - وهَي «بابك» وعذابك، إذْ هِيَ (سِجلّك!) المَسْطُور به فِعَالك، هيَ «ذاكِرتك» الرُّوحيّة المنفصلة عن «مَادّتك/ جسدك» المنْفَتحِة على المُطلَق فيك - رُوحك -، ومِنْ ثمَّ فهِيَ البَاقية بعد موْتِك!، هيَ أنْت بِكلّ مَا كنْتَ، عارياً - دُون ما يَستُرك! - على مَ لا اسْتِتارَ فيه ولا توَارٍ.

وبالعَين الواعية، فلَمْ يُلْقَ بالإنسان في «جُبّ جَهالة» لا مخرجَ مِنه الّا بـ (كَاهِن) أو (مُضَلل)، فخلاصُ الإنسان بدَاخله، قَبسُ النّور المُودَع فيه قرين إبَداع حَياته.

لقد أقَض «الحَلّاج» مَضْجَعي، وسَهّدَني اللّيالي وأنا أحَاوِل الاقتراب من سَاحة «الفَيْض» الّتي انساب منها «النّور» فيما لا أعْرف كيْف صَاغه شِعْراً:

بَيْنِي وَبَيْنَك (أَنَّي) تُنازِعُنِي فارفع بأنَّيْك (أنىَّ) مِنَ البَيْنِ

هيَ إذَن (أَنيَّ) مُنْزَلَق السُّقُوط، وسِتَارُ الاحتجاب، وبابُ الدّخُول، اقتنصها «الحلّاج» من انفِرَاجة وَعْي شَخَص فيها «التّجلي....».

فيَا أيّها المغُرور... يا (أنا).. ضَع النّقطَة الفَاصِلةَ!، واجْهرَ بمَا في الصّدر..

.... سُبْحَانَك

رشاد سلام

دمنهور - 28/2/2009

[(1)] انظر: رمسيس عوض، عصر العقل ونهاية المسيحيّة في أورّبا، دراسة منشورة بمجلة القّاهرة، العدد 152. فإن شِئت تفصيلاً أوفى فارجع إلى: الفلسفة المعاصرة في أوربّا - أ. م. يُوسنسكي، ت/ عزّت قرني، عالم المعرفة العدد (165) ص 183.

[(1)] أنظُر: لُغة الكيمياء عند الكائنات الحيّة، د/ أحمد مدْحت إسلام، عالم المعرفة (93) ص 14.

[(1)] المرجع السّابق ص 350 - 354.

[(1)] انظر: التّنبؤ الوراثي، روزلت هارسيناي، ترجمة مصطفى إبراهيم، عالم المعرفة (130) ص / 25.

[(1)] السّديم: هو تجّمعات غازيّة هائلة في الفضاء الكوْني، وهو (الرّحم) الذي تولد النجوم من داخله.

[(1)] أنظُر: روبرت أغروس، العلم في منُظوره الجديد، سابق ص 45.

[(*)] الذي يَطَالُه «العَدم» في اللّوحة - غير المنظور إليها - هُوَ ما يُعبّر عنه التّشكيل وليس التّشكيل نفسه.

[(*)] العَدم - في رأينا - ليس «عَدم الوجود» وإنّما هو: الوجود المُتَوارِي في «السّكون المطلق» أنظر الخاتمة.

[(**)] يختلف «الإدراك» عن «الإحساس» فالإدراك هو (عقْلَنَة) الإحساس بمعنى فَهْمِه.

[(*)] يكاد يُجمع علماءُ الفيزياء الفلكيّة على أن أصل (الكون) - مادّته - كان مُعبّأً في كُتلة لا يتجاوز وزنها عشرة كيلُو جرامات فانضغطت بقوّة جَذْب لانهائيّة إلى أن صارت في حجم جزء من البلْيُون من

نواة الذَّرة [فرانك كلوز، النهاية، سبقت الاشارة إليه ص 271]، وأن تلك النّواة الكونيّة المضغوطة حين بلغَت الحدّ المُطلق للكثافة وفي جزء من السّكستليُون من الثّانية (10- 36) انفجرت مُحْدِثة الانفجار العظيم المقول به. غيْر أننا (نحدِس) بغير ذلك، فَبِنْيَة الكون - على ما هي عليه الآن - كانت موجودة - أزليّاً - في ظُلمة (سكون== عدميّ) حيث لا زمان ولا مكان ولا هيئة، فاجتاحتها «ومْضة» نْبضٍ حيّة فجّرت أعماق الصّمت فيها - دويّاً طوى الأبديّة وأوْجَد «الزّمان» فكان الخَلق!. (الكاتب).

المراجع

1- حسن - سليم، موسوعة مصر القديمة - الهيئة المصريّة العامة للكتاب.
2- محمود - عبد القادر، الفكر الإسلامي والفلسفات المعارضة - الهيئة المصريّة العامة للكتاب.
3- تاندر - جفري، المعتقدات الدينيّة لدى الشّعوب - عالم المعرفة، الكويت (173).
4- رايلي - كافين، الغرب والعالم - عالم المعرفة - الكويت (90).
5- حمّاد - أحمد عبد اللطيف، الزمان والمكان من قصص العهد القديم - عالم الفكر - الكويت مج/ 16 ع / 3.
6- حمدان - جمال، اليهود - الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
7- الطّبري - محمد بن جرير، تاريخ الطبري ط / 6 -

دار المعارف مصر.
8- كوبر - جون، الفكر الشرقي القديم - عالم المعرفة - الكويت (199).
9- كلوز - فرانك، النهاية - عالم المعرفة ــ الكويت (91).
10- برشنسكي - إ.م، الفلسفة المعاصرة في أوربا - عالم المعرفة (165).
11- ديورانت - ول، قصّة الحضارة - مج /2 مكتبة الأسرة 2002.
12- برستيد - جيمس هنري، فجر الضمير ــ الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
13- ليسنر - إيفار، الماضي الحيّ - الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
14- العقّاد - عباس محمود، عبقرية المسيح - الهيئة المصريّة العامّة للكتاب.
- الخضري - محمد، إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء - دار الوفاء للنشر.

16- ابن سعد - محمد، الطّبقات الكبرى - تحقيق النشرتي - القاهرة.
17- أبو زيد - نصر حامد، مفهوم النصّ - الهيئة المصريّة العامة للكتاب.
1- هارسنياي روزلت، التنبّؤ الوراثي - عالم المعرفة (130).
19- غاتشف غيورغي، الوعْي والفن - عالم المعرفة (146).
2- إسلام - أحمد مدحت، لُغة الكيمياء - عالم المعرفة (93).
- أغروس - روبرت، العلم في منظوره الجديد - عالم المعرفة (134).

صدر للمؤلف

1- وحيدة (رواية)
2- دموع ريمة (رواية حاصلة على جائزة الدولة)
3- تل البواسل (مجموعة قصصيه قصص قصيرة)
4- تطبيق الشريعة بين القبول والرفض (بحث أكاديمي)
5- تخاريف (مجموعة مقالات بمجلة العصور الجديدة)
6- مجموعة من الأشعار لم يكتب لها أن تري النور ستصدر في ديوان شعري تكريماً لوفاة الراحل العزيز
7- أغنية متغربين لمحرم فؤاد
8- أغنية ميل على الهوى لفاطمة عيد
9- أغنية سمار الليالي لأحمد إبراهيم
10- كهنة في كل العصور (صدر بعد وفاته)

Table of Contents

الفصل العاشر: هُناكَ شيء!
المراجع